مصائب الإنسان من مكائد الشيطان

للشيخ الإمام تقي الدين أبي إسحق ابراهيم ابن العلامة
أبي عبد الله محمد بن مفلح المقدسي الحنبلي

ضبطه ورتب فصوله وصححه
جماعة من العلماء بإشراف الناشر

دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

الطبعة الاولى
١٤٠٤ هـ ـ ١٩٨٤ م.
بيروت ـ لبنان

جميع الحقوق محفوظة
لدار الكتب العلمية ـ بيروت

يطلب من : دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ لبنان
هاتف : ٨٠١٣٣٢ ـ ٨٠٥٦٠٤ ـ ٨٠٠٨٤٢
ص.ب ٩٤٢٤ـ١١ ـ تلكس : NASHER 41245 Le

بسم الله الرحمن الرحيم

خطبة الكتاب

قال الشيخ الامام العالم العلامة الرباني ، إمام الأئمة ومفتي الأمة وبحر العلوم ، سيد الحفاظ وفارس المعاني والألفاظ ، فريد العصر وقريع الدهر ، شيخ الاسلام ، بركة الأنام ، علامة الزمان ، وترجمان القرآن، علم الزهاد وأوحد العباد ، قامع المبتدعين ، وآخر المجتهدين ، تقي الدين أبو اسحاق ابراهيم ابن الشيخ الامام العلامة أبي عبد الله بن مفلح المقدسي الحنبلي قدس الله روحه ونور ضريحه آمين يارب العالمين .

الحمد لله العزيز الحكيم الذي قضى ، فأسقم الصحيح وعافى السقيم، قسّم عباده إلى قسمين : طائع وأثيم ، وجعل مآلهم إلى دارين : دار النعيم ودار الجحيم ، فمنهم من عصمه من الخطايا ، فكأنه في حريم ، ومنهم من قضى عليه أن يبقى على الذنوب ويقيم . ومنهم من تردد بين الأمرين والعمل للخواتيم . خرج موسى راعياً فعاد وهو كليم ، وذهب ذو النون مغاضباً فالتقمه الحوت وهو مليم ، وكان محمد ﷺ يتيماً فصار الكون لذلك اليتيم ، وعصى آدم عليه السلام وابليس ، فهذا مرحوم وهذا رجيم ، فإذا سمعت نبيل الممالك أو رأيت وقوع المهالك ، فقل ذلك تقدير العزيز العليم ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد ، وهو العليم الحكيم ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله الذي أخذ له الميثاق على الأنبياء وبشر عيسى بفضائله وقال : ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد رؤوف

رحيم وبه توسل آدم عليه السلام ، وقد أسجد له من أسجد من كل ملك كريم صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه ما سلك الطريق القويم ، وما لاح برق أو هب نسيم .

أما بعد : فإن السعادة كل السعادة في تقوى الله ، والشقاء كل الشقاء فعل الذنوب ومعصية الله ، فإنه قد جاء عن علي رضي الله عنه من جواهر الكلام : « العبد لا يرجو إلا ربه ، ولا يخافن إلا ذنبه وما نزل بلاء إلا بذنب ، ولا رفع إلا بتوبة » .

ذكر البيهقي عن علي بن أبي طالب قال : « خمس لو سافر فيهن رجل إلى اليمن كنّ له عوضاً عن سفره لا يخشى عبد إلا ربه ، ولا يخافن إلا ذنبه ، ولا يستحي إذا لم يعلم أن يتعلم ، ولا يستحي إذا سئل عما لا يعلم أن يقول الله أعلم ، والصبر من الدين بمنزلة الرأس من الجسد ».

قال البيهقي ، قال علي بن أبي طالب : « ما أحلاها وأبردها على الكبد » يكررها ثلاثاً . قالوا : وما ذاك يا أمير المؤمنين ؟ قال : أن يسئل الرجل عما لا يعلم فيقول الله أعلم . وقال ابن عباس ـ إن للحسنة لنوراً في القلب ، وضياء في الوجه ، وسعة في الرزق ، وقوة في البدن ، ومحبة في قلوب الخلق ، وان للسيئة لسواداً في القلب ، وظلمة في الوجه ، وضيقاً في الرزق ، ووهناً في البدن ، وبغضاً في قلوب الخلق . انتهى . وكل مؤمن يجد ذلك من نفسه على قدر حاله .

قال الحسن : لا يجعل الله عبداً أسرع إليه كعبد أبطأ عنه .

قال سميط بن عجلان : الناس ثلاثة : فرجل ابتكر الخير في حداثة سنه ، ثم داوم عليه حتى خرج من الدنيا فهذا المقرب ، ورجل ابتكر عمره بالذنوب وطول الغفلة ، ثم راجع بتوبة فهذا صاحب يمين ، ورجل ابتكر الشر في حداثة سنه ، ثم أبذل فيه حتى خرج من الدنيا ، فهذا صاحب شمال ، فقلت : يا نفس تداركي أمرك قبل مغيب شمس الحياة ، واقلعي عما أنت فيه من الرياء والركون إلى الدنيا وطلبها ومحبتها ،

واقصدي بما أنت فيه وجه الله ، واكثري من العمل بما علمت فإنه من عمل بما علم أورثه الله علم ما لم يعلم ، والعلماء همتهم الرعاية ، والسفهاء همتهم الرواية .

وبينا أنا في ذلك إذ أرسل إلينا بعض قضاة حلب في قضية حادثة تتضمن أن شخصاً شريفاً وقع منه أمور تقدح في الايمان ، وتوجب الكفر بالرحمن ، فقلت : لا إله إلا الله إن الشيطان لبني آدم بالمرصاد وكنت إذ ذاك أتكلم على قوله تعالى : ﴿ إنْ يدعُونَ منْ دونه إلاّ إناثاً وإنْ يدْعُونَ إلاّ شيْطاناً مريداً ﴾ (١) . لعنه الله . قالوا : من كل ألف واحد لله وتسعمائة وتسعة وتسعون للشيطان . ﴿ وقال لأتّخذنّ منْ عبادكَ نصيباً مفْروضاً * ولأضلنّهم ولأمنّينّهم ولآمُرَنّهم ﴾ (٢) فأخذت بالاستعاذة بالله من الشيطان الرجيم ، وفي بيان وسوسته وخدعه وكشف أموره لينتفع بها أخواني ، كما انتفعت وأحببت أن أظهر أمره وأشرحه ، فإنه عدو مشاهد فيحذره المؤمن ، وأن أكتب لك ما أقدرني الله تعالى عليه أعاذنا الله منه بمنه وكرمه ، ورتبت الكلام في ذلك على فصول :

الفصل الأول : في الاستعاذة وأحكامها .

الفصل الثاني : في وسوسة الشيطان للأبوين .

الفصل الثالث : هل له سلطان على بني آدم أم لا ؟

الفصل الرابع : في التحصن من الشيطان بذكر الله تعالى .

الفصل الخامس : عقده على قافية ابن آدم كل ليلة .

الفصل السادس : أكل الشيطان وقيئه وبوله .

الفصل السابع : ذكر عقبات الشيطان السبع وفيه الكلام على حديث من خلق .

---

(١) سورة النساء الآية : ١١٧ .

(٢) سورة النساء ، الآية : ١١٨ ، ١١٩ .

الفصل الثامن : في بكاء الشيطان .
الفصل التاسع : في رنة الشيطان وندائه ليلة البيعة للعقبة وتصوره بصورة شيخ نجدي في وقت الهجرة والكلام على قوله تعالى : ﴿ وإذْ زيّن لهم الشّيْطان أعمالهم وقالَ لا غالِبَ لكُم ﴾ (١) .
الفصل العاشر : في أحقر أوقات الشيطان ودعاته على نفسه بالويل .
الفصل الحادي عشر : جرى الشيطان من ابن آدم مجرى الدم .
الفصل الثاني عشر : هرب الشيطان من الآذان ووسوسته للمصلين من المسلمين .
الفصل الثالث عشر : مبيت الشيطان على خياشيم ابن آدم .
الفصل الرابع عشر : نصب الشيطان عرشه على الماء وإرساله سراياه.
الفصل الخامس عشر : في ذكر شياطين العبادة من الصلاة والوضوء والصوم .
الفصل السادس عشر : في راية الشيطان .
الفصل السابع عشر : في تصفيد الشيطان في شهر رمضان .
الفصل الثامن عشر : في حضور الشيطان عند النبي ﷺ وفراره من عمر .
الفصل التاسع عشر : في كلام الأنبياء للشيطان .
الفصل العشرون : مم خلق الشيطان و هل هو من الملائكة أم لا ؟
الفصل الحادي والعشرون: في تحزينه لابن آدم في المنام برؤيا سيئة وفيه رؤيا النبي ﷺ في المنام وأن الشيطان لايتمثل به .
الفصل الثاني والعشرون : في اجتهاد الشيطان على المؤمن عند الموت .
الفصل الثالث والعشرون : فيما أعد لابليس في جهنم ورجائه المغفرة .

(١) سورة الأنفال ، الآية : ٤٨ .

الفصل الأول :

في الاستعاذة وأحكامها

تعريف كلمة الاستعاذة :

قال الله تعالى : ﴿ فإذا قَرأتَ القُرآنَ فاسْتعِذْ بالله منَ الشّيْطان الرّجيم ﴾ (١) . وقال تعالى : ﴿ وقُلْ ربِّ أعوذُ بك منْ هَمَزات الشّيَاطين * وأعُوذُ بك ربِّ أنْ يحْضُرُون ﴾ (٢) . الاستعاذة : استدعاء عصمة الله سبحانه من الشيطان ، وأصل أعوذ . أعوذ بضم الواو على وزن : أدخل وأقفل ، فنقلت حركة عين الكلمة الى فائها ، فسكنت كما سكنت في الماضي . وقيل : استثقلت الضمة على الواو وصارت إلى الألف ، فهذا الإعلال لأجل أن يشاكل المضارع الماضي . وقيل : استثقلت الضمة على الواو ، فنقلت إلى العين والإعلال فيه أصلي بنفسه وهذا غير مستقيم لأن الحركة في حرف اللين لا تستثقل إذا سكّن ما قبلها ، وإنما هذا الاعلال لأجل أن يشاكل المضارع الماضي . قوله : (منَ الشيطان) فتح النون لالتقاء الساكنين والأفصح في « من » إذا دخل على لام التعريف نحو : مِنَ الرجل فتح النون ، وقد تكسر وهو غير فصيح ، فإن دخل « من » على اسم في أوله همزة وصل نحو : منِ ابنك ، كسرت النون ، وقد تفتح وهو غير فصيح ، والفرق أن استعمال « من » مع لام التعريف نحو : من الرجل كثير جداً ، والفتح أخف إذ لو كسر لاجتمع كسير ثاني ، كما قالوا : كيف وأين ففتحوا

---

(١) سورة النحل ، الآية : ٩٨ .

(٢) سورة المؤمنون ، الآية : ٩٧ ، ٩٨ .

كراهية اجتماع ياء وكسرة ، وأما نحو : من ابنك فقليل إذ ما فيه همزة الوصل قليل بالنسبة إلى ما فيه لام التعريف نحو : من إله، وأما من قال : من ابنك فلفرط حرصه على ما هو أخف ، فإن قيل : عنِ الرجل بالكسر وما الفرق بين من وعن ؟ قلت : الفرق أن العين لم تكن مكسورة كما كانت الميم في « من » فلما لم يكن كذلك ثبت على الكسر الذي هو الأصل .

فصل

في معنى كلمة الشيطان في اللغة :

الشيطان : واحد الشياطين على التكثير والنون أصلية لأنه مشتق من شطن إذا بعد عن الخير ، وشطنت داري أي بعدت . قال الشاعر :

نأت بسعاد عنْك نوىً شُطُون فبانَتْ والفؤاد بها رهينُ

وبئر شطون أي : بعيدة القعر سمي بذلك لبعده من الصلاح والخير ، وقيل : إن شيطان مأخوذ من شاط يشيط إذا بطل ، فالنون زائدة . وشاط إذا احترق ، واشتاط الرجل إذا احتد غيظاً ، واشتاط إذا هلك قال الأعشى شعر :

قَد تظْعَنُ العِيرُ في أكنان قائلة وقدْ يَشيطُ على أرماحِنَا البَطَلُ

أي يهلك .

وهذا القول فيه نظر من وجهين : أحدهما أن سيبويه حكى أن العرب تقول تشيطن فلان إذا فعل أفعال الشياطين ، فهذا يبين أنه تفعيل من شطن ، ولو كان من شاط لقالوا تشيط . قال أمية بن أبي الصلت شعر :

أيُّما شاطنٍ عَصاه عُكـــاه ورماهُ في السِّجن والأغلالِ

فهذا شاطن من شطن لا شك فيه ، فعلى القول الأول النون فيه أصلية ، ووزنه فيعال . وعلى القول الثاني النون فيه زائدة ووزنه فعلان ،

فإن جعلته فيعالا صرفته ، وإن جعلته فعلاناً لم تصرفه للتعريف والألف والنون الزائدتين ، كسعدان ، وكل عات متمرد من الجن والإنس والدواب شيطان .

فصل

في تعريف كلمة الرجيم :

الرجيم : فعيل بمعنى مفعول . أي : مرجوم وصف بذلك لأنه يرجم بالنجوم عن استراقه للسمع . قال تعالى : ﴿ وجَعَلْناها رُجُوماً للشّياطين ﴾ (١) . يعني الكواكب ، وقيل : لأنه رجم باللعنة والمقت وعدم الرحمة ، وقيل : فعيل بمعنى فاعل . أي : يرجم غيره بالاغواء . والاستعاذة في كلام العرب : الاستجارة والتحيز إلى الشيء على معنى الامتناع به من المكروه . يقال : عذت بفلان واستعذت به ،أي: لجأت إليه وهو عياذي أي ملجأي ، فالعوذ : الالتجاء إلى الغير والتعلق به ، فالعياذ لدفع الشر واللياذ لطلب الخير ، كما قال المتنبي :

يا مَنْ ألوذُ بـــه فيمـــا أؤمّله ومَنْ أعوذ بـــه فيمـــا أُحَاذِرُهْ
لا يجبرُ الناس عظْماً أنت كاسره ولا يهيضون عظْماً أنت جابرُهْ

ونفس الاستعاذة تارة تقع من نفس ما لم يكن بعد ، وتارة من موجود له شر مستقبل ، فالأول كقوله : « اللهم إني أعوذ بك من الهم والحزن » . والثاني كقوله : « أعوذُ بالله منَ الشّيطانِ الرجيم » . وقوله ﷺ : « أعُوذُ بالله من شُرور أنْفُسنا ومن سيِّئات أعمالنا ». فيحتمل هذا وهذا ، لكن الأظهر أنه من المعدوم تعوذ من شر نفسه الذي لم يقع وسيئات عمله . أي عقوبات عمله ، وهذا تعوذ من نوع الشر .

---

(١) سورة الملك ، الآية : ٥ .

فصل

من هنا لابتداء الغاية وإن لم تحسن في مقابلتها إلى على ما ذكره ابن الحاجب ، وابن مالك لأن ابتداء الاستعاذة من الشيطان مع قطع النظر عن الانتهاء ، فإن القصد امتداد الاستعاذة ودوامها .

فإن قيل : لِمَ اتصلت من هنا بالله واتصلت في موضع آخر برب . قال تعالى : ﴿ قلْ أعُوذُ بربِّ الفَلَق ﴾ (١) . ﴿ قُلْ أعوذُ بربِّ النّاس ﴾ (٢) .

قلنا : لأن التعوذ هنا لقراءة القرآن ، وفي قوله هناك : (قل أعوذ برب الفلق) لحفظ النفس والبدن من السحر والعين ، والأول أهم . لأن الشيطان يبالغ في منع العبادة أشد منه في ايصال الضرر ومن ثم كان : ﴿ لا تحزنْ إنَّ اللهَ مَعَنا ﴾(٣) . أبلغ من : ﴿ كلاّ إنَّ معي ربِّي سيَهْدِين ﴾ (٤) .

فصل

في عداوة الشيطان لابن آدم :

(الألف واللام) في الشيطان يحتمل أن تكون للعهد . أي الشيطان المعهود الذي هو عدونا وعدو أبينا : ﴿ إنَّ الشّيْطانَ لَكُم عَدُوٌّ فاتّخذوه عَدُوّاً ﴾ (٥) . لأن المعاصي برضا الشيطان والراضي كالفاعل ، وان استبعدت ذلك فاعرفه بمسألة شرعية ، فإن قراءة الامام قراءة المقتدي عند الأكثرين من حيث أنه رضي بها ، وسكت خلفه ، ويحتمل أن تكون للعموم ، لأن الشياطين كثيرة مرئية وغير مرئية ، وتشمل الاستعاذة بالله من شياطين الإنس وشياطين الجن ، بل وتشمل الاستعاذة

---

(١) سورة الفلق ، الآية : ١ .
(٢) سورة الناس ، الآية : ١ .
(٣) سورة التوبة ، الآية : ٤٠ .
(٤) سورة الشعراء ، الآية : ٦٣ .
(٥) سورة فاطر ، الآية : ٦ .

استعاذة الإنسان من شر نفسه ، كقوله سبحانه وتعالى : ﴿ منْ شرّ الوسْواسِ الخنّاس * الّذي يوسْوسُ في صدُور النّاس * منَ الجِنّة والنّاس ﴾ (١) . وفي هذه الآية ثلاثة أقوال :

أحدها : أن المعنى من شر الموسوس في صدور الناس جنهم وإنسهم، فسمى الجن ههنا ناساً ، كما سماهم رجالا قاله الفراء ، فيكون الوسواس موسوساً للجن ، كما يوسوس للانس ، فيكون الجار والمجرور في قوله : (من الجنة والناس) حالاً أي كائناً من القبيلتين ، ومن الجنة للتبعيض . وأجاز الزمخشري أن يكون لابتداء الغاية . أي يوسوس في صدورهم من جهة الجنة ومن جهة الناس ، وهذا القول ضعيف إذ لم يقم دليل على أن الجني يوسوس في صدور الجن ، ويدخل فيه كما يدخل في الناس ، ثم فيه تبيين للناس بالناس ، والجن لا يطلق عليهم ناس لأنه مأخوذ من الاستتار ، وأما الناس فبينه وبين الإنس مناسبة ، والانسان مشتق من الاستئناس وهو الرؤية والاحساس ، ومن قوله : ﴿ آنَسَ منْ جانِبِ الطُّور ناراً ﴾ (٢) . أي : رآها فإن آنستم منهم رشداً أي أحسستموه ورأيتموه ، وأما الناس فالصحيح أنه من تونّس وهو الحركة الشائعة ، فيسمى الناس ناساً للحركة الظاهرة والباطنة ، كما يسمى الرجل حارث وهمام وهما أصدق الأسماء لأن كل واحد له هم وإرادة هي مبتدأ حرث وعمل هو منتهى وكل أحد هر حارث وهمام ، وهما حركة الظاهر والباطن .

والقول الثاني : أن المعنى من الموسوس في صدور الناس من الجن ومن شر الإنس مطلقاً قاله الزجاج ، ولم يذكر ابن الجوزي وجماعة غير هذين .

والقول الثالث : وهو الصحيح ، فهو حال من الضمير في يوسوس والمعنى الاستعاذة من شر الموسوس من الجنة والناس في صدور الناس ،

---

(١) سورة الناس ، الآيات : ٤ – ٦ .
(٢) سورة القصص ، الآية : ٢٩ .

فأمر بالاستعاذة من شر شياطين الجن والانس . أن قوله بيان الذي يوسوس وانهم نوعان : انسي وجني ، والوسوسة هي الالقاء الخفي في القلب ، وهذا مشترك بين الجن والانس ، فعلى هذا : الموسوس في صدورهم قسمان : إنسي وجني ، فالوسواس موسوس للجني كما يوسوس للانسي كما قال تعالى : ﴿ وكذلكَ جعلْنا لكُلِّ نبيٍّ عدُوّاً شيَاطينَ الانْس والجنِّ يُوحي بعضُهُم إلى بعْض زُخْرُفَ القوْلِ غُروراً ﴾ (١) وقال تعالى عن المنافقين : ﴿ وإذا خلَوْا إلى شياطينِهِم قالُوا إنّا معَكُم ﴾ (٢) والمراد هنا شياطين الإنس بإجماع المفسرين . وقال النبي ﷺ لأبي ذر : يا أبا ذر ! « تعوذ بالله منْ شيَاطين الإنسِ والجنِّ » فقال : يارسول الله ! أوَ للإنس شياطين ؟ فقال : « نعم . شر من شياطين الجن » . رواه الامام أحمد ، وابن حبان في صحيحه . فأمر سبحانه بالاستعاذة من شر الوسواس من الجِنّة والناس الذي يوسوس في صدور الناس ، ويدخل في ذلك وسوسة نفس الانسان له ووسوسة غيره له . وهذا القول اختاره الحكيم الترمذي ، والشيخ تقي الدين في كتاب « الرد على الرافضة ».

فإن قيل : قال تعالى : ﴿ ادْفَعْ بالّتي هيَ أحْسنُ . السّيّئةُ نحنُ أعلمُ بما يصفُونَ * وقلْ ربِّ أعوذُ بكَ منْ هَمَزات الشّيَاطين ﴾ (٣) أمر سبحانه وتعالى أن يحترز من شر شياطين الانس يدفع إساءتهم إليه (بالتي هي أحسن) ، وأن يدفع شر شياطين الجن بالاستعاذة منهم كما قال سبحانه وتعالى في سورة الأعراف : ﴿ خُذِ العَفْوَ وأمُرْ بالعُرْفِ وأعْرِضْ عنِ الجاهلينَ ﴾ (٤) . فأمر بدفع شر الجاهلين بالاعراض عنهم ، ثم أمره بدفع شر الشيطان بالاستعاذة منه ، فقال : ﴿ وإمّا ينزَغَنّكَ منَ الشّيْطانِ نَزْغٌ فاستعذ بالله إنّهُ سميعٌ عليمٌ ﴾ (٥) . ونظير ذلك في فصلت : ﴿ ولاَ تَستوي الحَسَنَةُ ولا السّيّئةُ ادْفع بالّتي هيَ

---

(١) سورة الأنعام ، الآية : ١١٢ .
(٢) سورة البقرة ، الآية : ١٤ .
(٣) سورة المؤمنون ، الآيتان : ٩٦ ، ٩٧ .
(٤) سورة الأعراف ، الآية : ١٩٩ .
(٥) سورة الأعراف ، الآية : ٢٠٠ .

أحْسَنُ فإذا الذي بيْنَك وبيْنه عَدَاوةٌ كأنّه ولي حميم ﴾ [1] . فهذا الدفع لشيطان الانس ، ثم قال : ﴿ وإمّا ينزَغَنّك منَ الشّيْطان نَزْغٌ فاسْتَعِذْ بالله إنّه هوَ السّميعُ العليم ﴾ [2] . قلنا : شياطين الانس للانسان في الاحتراز منهم طريقان : أحدهما : التباعد عنهم وعدم الاجتماع بهم والأنس بهم ، فإن شيطان الإنس إنما يغوي إذا لاذ به الإنسان وصاحبه حتى صار من إخوانه ، كما قال ﷺ : « لا تصحبْ إلاّ مُؤمناً ولا يأكل طعامَك إلاّ تقي » . والثاني : الاستعاذة بالله فإنه إذا أغواه وزين له معصية ربه فاستعاذ بالله منه ، عصمه الله من تأثير وسوسته في قلبه وسلمه منه بحوله وقوته ، فإنه سميع عليم . سميع باستعاذتك ، عليم باغواء شيطانك . ٤ —

قال قتادة : (الخناس) له خرطوم كخرطوم الكلب في صدر الانسان ، فإذا ذكر العبد ربه خنس ، فالخناس : فعال من خنس يخنس إذا توارى واختفى ، وأصله الرجوع إلى وراء . والخناس : مأخوذ من هذين المعنيين ، فهو من الإختفاء والرجوع ، ومن وسوسته أيضاً أن يشغل القلب بحديثه حتى ينسيه ما يريد أن يفعله ، ولهذا يضاف النسيان إليه إضافته إلى سببه ، قال تعالى : ﴿ فإنّي نَسِيتُ الحوتَ وما أنسَانِيهُ إلاّ الشّيْطانُ أن أذْكُرَه ﴾ [3] . وقوله : (من شر الوسواس) يعم كل شره ، ووصفه بأعظم صفاته ، وهي الوسوسة التي هي مبدأ الارادة ، فإن القلب يكون فارغاً ، فيوسوس إليه ويخطر الذنب بباله ، ويصوره في نفسه ، ويشهيه فيصيره شهوة ، ويحسنها له فتصير إرادة ثم لا يزال يخيل ويشهي وينسي علمه بضررها ، فتصير الارادة عزيمة جازمة ، فيبعث الجنود في الطلب ، فيبعث الشيطان معهم مدداً وأعواناً ، فإن قروا حركهم وأزعجهم ، كما قال : ﴿ ألَمْ ترَ أنّا أرْسَلْنا الشّيَاطين على الكافرينَ تؤُزُّهُم أزّاً ﴾ [4] .

---

(١) سورة فصلت ، الآية : ٣٤ .
(٢) سورة فصلت ، الآية : ٣٦ .
(٣) سورة الكهف ، الآية : ٦٣ .
(٤) سورة مريم ، الآية : ٨٣ .

فصل

في شروع الاستعاذة :

أجمع الناس على مشروعية الاستعاذة لقراءة القرآن . قال تعالى : ﴿ فإذا قَرَأْتَ القُرآنَ فاسْتَعِذْ باللهِ منَ الشَّيْطانِ الرَّجيم ﴾ [1] . قال أكثر العلماء : إنها تشرع لارادة القراءة . وقاله الأئمة الأربعة ، وغيرهم وقالوا في الآية : إذا أردت قراءة القرآن، فاطلق اسم السبب على المسبب ، كما يقال : إذا دخلت على الأمير فتأهب ، فعبر عن إرادة الفعل بالفعل ، لأن الفعل يوجد بقدرة الفاعل عليه وإرادته له ، فكما عبّر عن عدم القدرة على الفعل بعدم الفعل في قولهم : الانسان لا يطير ، والأعمى لا يبصر . أي : لا يقدر كذا عبر عن إرادة الفعل بالفعل ، لأن الفعل مسبب عن القدرة والارادة ، فأقيم المسبب مقام
٨ — السبب للملابسة بينهما وللإيجاز وهذا كقوله ﷺ : « إذا تَوضّأ أحدُكُم
٦ — فليستنثر » . وصح أنه ﷺ استنثر في أول وضوئه . وقال ﷺ :
٧ — « إذا أمّنَ الإمامُ فأمّنُوا فإنّه مَنْ وافَقَ تأمينه تأمينَ الملائكة غُفِرَ له ما تقدّم من ذنْبه » . أي إذا أراد الإمام أن يؤمّن .

٨ — وفي الصحيح : أن النبي ﷺ قال : « إذا قال الإمام ﴿غير المغْضوب عليْهم ولاَ الضّالين ﴾ [2] . فقولوا : آمين . فإن الإمام إذا وصل في القراءة إلى قوله (ولا الضالين) يريد أن يؤمّن ، فهو كاللفظ ، فليس في اللفظ حجة على أن الامام لا يؤمن » .

وقالت طائفة : الاستعاذة بعد القراءة . ذكر ذلك عن أبي هريرة ، وابن سيرين ، والنخعي ، وقاله داود ، وخالفه ابن حزم في ذلك . وقال : صح ابتداء القراء جيلاً بعد جيل على الابتداء بالتعوذ قبل القراءة، وأخذ هؤلاء بظاهر الآية ، لأن الفاء للتعقيب وجعلها الأئمة هنا للحال
٩ — نحو : إذا دخلت على الأمير فتأهب . وعن أبي هريرة أنه تعوذ بعد

---

(١) سورة النحل ، الآية : ٩٨ .
(٢) سورة الفاتحة : الآية : ٧ .

الفاتحة في الصلاة ، فقيل : لأنه نسيه قبلها ، وقيل لأجل ما يقرأ بعدها .

قال الشافعي في مسنده : أخبرنا ابراهيم بن محمد ، عن ربيعة بن عثمان ، عن صالح بن أبي صالح أنه سمع أبا هريرة ، وهو يؤم الناس رافعاً صوته : ربنا إنّا نعوذ بك من الشيطان الرجيم . في المكتوبة إذا فرغ من أم القرآن ، والحديث نص في الاستعاذة قبل القراءة كما يأتي وللحكم في التعوذ قبل الشروع في قراءة القرآن وجوه :

الوجه الأول : أن القرآن شفاء لما في الصدور ، ويذهب لما يلقيه الشيطان فيها من الوساوس والشهوات والارادات الفاسدة ، فهو دواء لما أثره فيها الشيطان ، فأمر القارىء أن يطرد مادة الداء ، ويخلو منه القلب ليصادف الدراء محلا خالياً فيؤثر فيه كما قيل :

أتاني هَواها قَبل أنْ أعرفَ الهوى فَصَادفَ قَلْباً خالياً فتمكّنا

الوجه الثاني : أن القرآن مادة الهدى والخير في القلب ، كما أن الماء مادة النبات والشيطان نار يحرق النبات أولاً فأولاً ، فكلما أحس نبات الخير في القلب سعى في إحراقه وإفساده ، فأمر أن يستعيذ بالله منه لئلا يفسد عليه ما يحصله بالقرآن ، والفرق بين هذا الوجه والذي قبله : أن الاستعاذة في الوجه الأول لأجل حصول فائدة القرآن ، وفي الوجه الثاني لأجل بقائها وحفظها وثباتها ، وكأن من قال الاستعاذة قبل القراءة لحفظ هذا المعنى .

الوجه الثالث : أن الملائكة تدنو للقراءة وتسمعها كما في حديث أسيد بن حضير لما كان يقرأ ، ورأى مثل الظلة فيها مثل المصابيح ، فقال النبي ﷺ : تلك الملائكة . والشيطان ضد الملك وعدوه ، فأمر القارىء أن يطلب بعد عدوه عنه حتى تحضره الملائكة ، فهذه وليمة لا تجتمع فيها الملائكة والشياطين .

والوجه الرابع : أن الشيطان يجلب على القارىء بخيله ورجله حتى يشغله عن تدبر القرآن وفهمه ، فلا يكمل انتفاع القارىء ، فأمر عند الشروع أن يستعيذ بالله منه .

الوجه الخامس : أن القارىء مناج لربه بكلامه والله سبحانه أشد أذناً للقارىء الحسن الصوت بالقراءة من صاحب القينة إلى قينته ، والشيطان إنما قراءته الشعر ، والغناء ، فأمر القارىء أن يطرده بالاستعاذة عند مناجاته واستماع الرب قراءته .

الوجه السادس : أن الله سبحانه أخبر أنه ما أرسل من رسول ولا نبي إلا إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته . قال السلف : المعنى أنه إذا تلا ألقى الشيطان في تلاوته ، قال الشاعر في عثمان رضي الله تعالى عنه :

تمنّى كتابَ اللهِ أولَ ليلـــه وآخرهِ لاقى حمَام المقَادرِ

فإذا كان فعله هذا للرسل ، فكيف بغيرهم ؟ ولهذا يغلط القارىء ويشوش عليه .

الوجه السابع : أنه أحرص ما يكون على الانسان عندما يهم بالخير ويدخل فيه . وفي الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال : « إنّ شيطاناً تفلّتَ عليّ البارحة فأرادَ أنْ يقطعَ عليّ صلاتي » . وكلما كان الفعل أنفع للعبد وأحب إلى الله ، كان اعتراض الشيطان له أكثر . ١١ —

قال مجاهد : « ما من رفقة تخرج إلى مكّة إلا جهز معهم إبليس مثل عددهم » . رواه ابن أبي حاتم ، فأمر سبحانه العبد أن يحارب عدوه الذي يقطع عليه الطريق ، ويستعيذ بالله منه أولا ، ثم يأخذ في السير ، كما أن المسافر إذا عرض له قاطع طريق اشتغل بدفعه ، ثم سار . هذه فائدة الاستعاذة لأجل قراءة القرآن ، ولا شك أن المراد من الاستعاذة : التعوذ من جميع المنهيات والمحظورات وهي : إما من باب الاعتقاد ، أو من باب أعمال الجوارح ، وأما الاعتقادات ففي الحديث : « ستفترق هذه الأمة على نيف وسبعين فرقة » موصوفة بالعقائد الفاسدة والمذاهب الباطلة . ثم إن كل واحدة من أولئك الفرق غير مختص بمسألة بل بمسائل متعلقة بذات الله تعالى وبصفاته وأحكامه وبأفعاله وأسمائه ، وبمسائل الجبر والقدر والتعديل والتخويف والنبوات والمعاد والوعد والوعيد والاسماء والأحكام والامامة ، فإذا وزعنا عدد هذه الفُرق ١٢ —

المذكورة في الحديث على هذه المسائل بلغ العدد الحاصل مبلغاً عظيماً ، وأيضاً من الشهوات فرق الضلال من الخارجين عن هذه الأمة نحو سبعمائة فرقة ، فإذا ضممت أنواع ضلالاتهم إلى أنواع الضلالات الموجودات في فرق الأمة في جميع المسائل العقلية المتعلقة بالالهيات ، والمتعلقة بأحكام الذات والصفات ، بلغ الجميع مبلغاً عظيماً في العدد ،

ولا شك أن قولنا : « أعوذ بالله من الشيطان الرجيم » يتناول الاستعاذة من جميع تلك الأنواع والاستعاذة من الشيء لا تمكن إلا بعد معرفة قبحه ، فظهر أن قولنا : أعوذ بالله مشتمل على ألوف من المسائل ، وأما الاعمال الباطلة فهي عبارة عن كل ما ورد النهي عنه في الكتاب والسنّة والاجماع والقياس ، ولا شك أن تلك المنهيات تزيد على ألوف ، فيثبت بهذا الطريق أن قولنا : أعوذ بالله مشتمل على عشرة آلاف مسألة أو أزيد أو أقل من المسائل المهمة ، فصدق من قال : (إن الاستعاذة يستنبط من فوائدها عشرة آلاف مسألة) والله أعلم .

فصل

الاستعاذة في الصلاة :

قال مالك : لا يتعوّذ المصلي في الصلاة المكتوبة ، لقول أنس رضي الله عنه كانوا يفتتحون القراءة بالحمد لله رب العالمين ، وقياساً على صلاة الجنازة ، فإنه ليس فيها التعوذ ، وعامة العلماء على خلافه ، وأنه يسن التعوذ في المكتوبة للآية الكريمة : ﴿فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله﴾

قال ابن عبد السلام المالكي : قراءة النبي ﷺ في الصلاة بغير
١٢ — استعاذة مخصص الآية . قلنا : هذا لا يصح لأنه ثبت أنه ﷺ تعوّذ في الصلاة في قيام الليل .

١٤ — قال ابن عطية : لم يحفظ أنه ﷺ تعوّذ في صلاة . قال ابن حزم ، قال مالك : لا يتعوذ إلا في قيام رمضان ، فإنه يبدأ بالتعوذ في أول ليلة ،

ثم لا يعود . وهذه قولة لا دليل عليها من كتاب ولا سنّة ولا إجماع ولا قياس . انتهى .

وأما صلاة الجنازة ففيها روايتان عن الامام أحمد ، فإن سلمناها فالفرق بينها وبين المكتوبات أنها مبنية على الاسراع ، ولهذا يسلم فيها مرة . وقال أبو حنيفة والشافعي بالتعوذ في كل صلاة ، لكن قال الشافعي يتعوذ المصلي في كل ركعة . وقال أبو حنيفة : يتعوذ في الركعة الأولى ، وهو تعوذ لقراءة الصلاة كلها .

وعن الامام أحمد روايتان كالمذهبين ظاهر المذهب ، كقول أبي حنيفة عن أبي سعيد رضي الله عنه قال : كان النبي ﷺ إذا قام إلى صلاة الليل كبّر ، ثم يقول : « سبحانك اللهم وبحمدك وتبارك اسمك وتعالى جدك ولا إله غيرك » . ثم يقول : « أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم من همزه ونفثه » . رواه الخمسة ولفظه للترمذي ، وهو من رواية علي بن علي الرفاعي. وقد اختلف فيه . قال أحمد : لا يصح هذا الحديث .

وفي الباب ، عن أنس وعائشة ، والقطع أنه صلى الله عليه وسلم : كان يستفتح في الفرائض ، وكذا التعوذ ولكن كان يخفيه .

فصل

أقوال العلماء في الاستعاذة :

قال أكثر العلماء : التعوذ في الصلاة من سننها لا تبطل بتركه ، وهذا قول الأئمة الأربعة وغيرهم ، ولم يعلمه النبي ﷺ للمسيء في صلاته مع الحاجة إلى البيان ، وعن أحمد رواية أنه واجب فيها ، واختاره أبو عبد الله بن بطة لظاهر الآية . قال الشيخ أبو العباس : من العلماء من يوجب الاستعاذة للقراءة ، وهذا القول قوي لأمر الله تعالى بذلك انتهى.

وذكر عن ابن جريج ، عن عطاء أنه قال : الاستعاذة واجبة لكل

قراءة في الصلاة وغيرها ، وقال ابن حزم : التعوذ فرض في كل ركعة .

وحكي رواية عن الامام أحمد بالوجوب في كل ركعة لأنها تدرأ شر الشيطان ، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب ، ولأن الاستعاذة أحوط وهو أحد مسالك الوجوب . وقال ابن سيرين : إذا تعوذ في عمره مرة واحدة أجزأه في إسقاط الوجوب ، وفي هذا اشارة من ابن سيرين إلى أن الأمر إذا علق على شرط لا يقتضي التكرار ، كما اختاره ابن الحاجب وطائفة من الأصوليين ، وقال بعض أهل العلم : كانت الاستعاذة
١٦ — واجبة على النبي ﷺ لتوجه الخطاب اليه دون أمته ، ولو قيل بالعكس لعصمته ﷺ دون غيره من الناس كان أولى . واختلف الناس في كيفية الاستعاذة على أقوال :

القول الأول : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم . اختاره القاضي أبو يعلى في الجامع الصغير ، وأبو حنيفة والشافعي ، واختاره من القراء أبو عمرو وعاصم وابن كثير لظاهر الآية : ﴿ فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم ﴾ . قال المقدمي : ولكثرة استعماله في سائر الأمصار ولزوم أكثر القراء له في جميع الأقطار . وقال ابن المنذر :
١٧ — جاء أن النبي ﷺ كان يستعيذ كذلك .

والقول الثاني : أنه يقول أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم ، وهو منصوص الإمام أحمد في رواية عبد الله ، وهو ما ذكره الشيخ مجد الدين في المحرر ، وقاله أويس القرني ، والحسن ، وابن سيرين ، وقتادة ، وبعض الشافعية ، وذكره المهدوي عن كثير من القراء
١٨ — لخبر أبي سعيد السابق أن النبي ﷺ كان يقول : « أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم من همزه ونفخه ونفثه » .

وروى أبو داود في قصة الإفك ، أن النبي ﷺ جلس وكشف عن وجهه وقال : « أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم » . وقال أبو العالية لما قرأ النبي ﷺ سورة المجادلة وخولة بين يديه قال : « أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم » . وذكر ابن أبي شيبة أن عمر كان يتعوذ كذلك .

القول الثالث : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم . إن الله هو السميع العليم . قال عبد الله بن أحمد : سمعت أبي إذا قرأ استعاذ ، فيقول : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم إن الله هو السميع العليم ، واختاره طائفة من الأصحاب كأبي بكر عبد العزيز ، والقاضي في المحرر ، وابن عقيل، وقاله سفيان الثوري ، ومسلم بن يسار ، ومن القراء نافع ، وابن عامر ، والكسائي ، لأن ظاهر الآية أن يعقب أعوذ بالله بقوله (من الشيطان الرجيم) . وقوله : فاستعذ بالله إنه سميع عليم يقتضي أن يلحق بالاستعاذة وصفه بأنه السميع العليم في جملة مستقلة مؤكدة بحرف « أن » وفائدته الثناء على الله والإخبار بأنه سبحانه سميع عليم ، فيسمع استعاذتك ، فيجيبك ويعلم ما استعذت منه فيدفعه عنك ، فهو السميع لكلام المستعيذ ، والعليم لفعل المستعاذ منه وبذلك يحصل مقصود الاستعاذة .

القول الرابع : أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم إن الله هو السميع العليم ، وهو ما رواه ابن أبي موسى في الارشاد ، وأبو الخطاب في الهداية ، والحلواني في التبصرة وغيرهم ، لأن قوله : ﴿فاستعذ بالله إنه هو السميع العليم﴾ لا بد أن يقدر فيه من الشيطان الرجيم ، وهو يحسن قبل ذكر الصفة وبعدها ، فجمعنا بينهما عملا بهذا .

القول الخامس : أللهم إني أعوذ بك من الشيطان الرجيم من همزه ونفخه ونفثه، اختاره إسحاق بن راهويه ، وذكره عن النبي ﷺ وصدق.

قال أحمد في المسند : حدثنا قراد أبو نوح ، حدثنا عكرمة بن عمار ، عن يحيى بن أبي كثير ، عن أبي سلمة قال : كان النبي ﷺ إذا قام من الليل يقول : « اللهم إنّي أعوذُ بكَ من الشّيطان الرجيم من همزه ونفخه ونفثه » . وكان ﷺ يتعوذ بالله من الشيطان الرجيم من همزه ونفثه ونفخه ، وذكر حرب ،عن ابن عمر أنه كان يقول : اللهم إني أعوذ بك من الشيطان الرجيم .

القول السادس : ذكره في كتاب الحنفية : أستعيذ بالله من الشيطان الرجيم . اختاره حمزة ، وذكره عن ابن سيرين .

القول السابع : أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم من همزات الشياطين ، وأعوذ بالله أن يحضرون إن الله هو السميع العليم .

القول الثامن : قاله طائفة من أهل مصر والمغرب . أعوذ بالله العظيم من الشيطان الرجيم .

القول التاسع : قاله طائفة من أهل خراسان وغيرهم : أعوذ بالله القوي من الشيطان الغوي .

القول العاشر : أعوذ بالله المعين من الشيطان اللعين . قال ابن عطية أكثر المفسرين في هذا من تبديل الصفة في اسم الله ، وفي جهة الأخرى في قول بعضهم : أعوذ بالله المجيد من الشيطان المريد ، ونحو هذا أسماء لا أقول فيه نعمت البدعة ، ولا أقول إنه لا يجوز . قال المهدوي : والاختيار الاقتصار على ما يؤيده القرآن ، والخبر ، وهو في القولين الأولين ، والأول أولى ، لأنه مؤيد بالنص المأمور عند قراءة القرآن ، والقول الثاني وإن أيده النص ، فإنه مأمور به عند نزغ الشيطان .قال الشيخ موفق الدين : كيفما استعاذ فهو حسن لأنه منقول والمرجح غير ظاهر وقال الشيخ مجد الدين مهما استعاذ به أجزأه بلا كراهة ، وقد جاء التعوذ من الشيطان عن موسى عليه السلام . قال عمر بن حسان : أن موسى أعطي آية من كنوز العرش : رب لا تريح الشيطان في قلبي وأعذني منه ، ومن كل شر فإن لك الأيد والسلطان والملك والملكوت دهر الداهرين وأبد الآبدين آمين آمين . وأعطى رسول الله ﷺ آيتين من كنوز العرش آخر سورة البقرة : ﴿ آمَنَ الرَّسُولُ ﴾[1] . ذكر هذا هشام بن عمار في كتاب البعث .

تنبيه :

سبق في تعوذ النبي ﷺ : أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان

---

(١) سورة البقرة ، الآيتان : ٢٨٥ ، ٢٨٦ .

الرجيم من همزه ونفخه ونفثه . وقد جاء في الحديث تفسير ذلك قال : وهمزه : لمته يعني إلى شبه الجنون . ونفخه : الكبر . ونفثه : الشعر . وقد قال تعالى : ﴿ وقُلْ ربِّ أعُوذُ بكَ منْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطين وأعُوذُ بكَ ربِّ أنْ يحْضرُون ﴾ (١) . الهمزات : جمع همزة كتمرات وتمرة ، وأصل الهمز الدفع .

قال الكسائي : همزته ولمزته ولهزته ونهزته إذا دفعته ، والتحقيق أنه دفع بغمز يشبه الطعن ، فهو دفع خاص ، فهمزات الشياطين : دفعهم الوسواس في الوساوس ، والاغواء إلى القلب .

قال ابن عباس : همزات الشياطين : نزغاتهم ووساوسهم ، وفسر مجاهد همزاتهم بنفخهم ونفثهم ، وظاهر الحديث أن الهمز نوع غير النفخ ، والنفث : والأظهر أن يقال : همزات الشياطين إذا أفردت دخل فيها جميع إصابتهم لابن آدم ، وإذا قرنت بالنفخ والنفث كانت نوعاً خاصاً أن يقال القرآن إستعاذة من همزات الشياطين ، وهي مقتضيات الإغواء والإضلال ، والسنة : الاستعاذة من ذلك ، ومن الآثار الناشئة عن ذلك من الكبر والشعر ، كما في قوله ﷺ : « ونعوذُ باللهِ منْ شُرور أنْفُسنا وسيئاتِ أعمالنا » . ثم قال : « وأعوذ بك رب أن يحضرون » . قال ابن زيد في أموري ، وقال الكلبي : في تلاوة القرآن ، وقال عكرمة : عند النزع والسياق ، فأمره أن يستعيذ من نوعي شرهم ، اصابتهم له بالهمز وقربهم ودنوّهم منه ، فتضمنت الاستعاذة أن لا يمسوه ولا يقربوه .

وفي صحيح مسلم : عن جابر قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إنّ الشّيْطانَ يحضرُ أحدَكُم عندَ كلِّ شيء من شأنه حتى يحضره عندَ طعامه ، فإذا سَقَطتْ من أحدكم اللقمة ، فليمط ما كان بها من الأذى ، ثم ليأكلها ولا يدعها للشيطان ، فإذا فرغ فليلعق أصابعه فإنه لا يدري في أي طعامه البركة » .

---

(١) سورة المؤمنون ، الآية : ٩٧ .

وقال الامام أحمد في المسند : حدثنا محمد بن إسحاق ، عن عمرو ابن شعيب ، عن أبيه ، عن جده قال : كان رسول الله ﷺ يعلمنا كلمات نقولها عند النوم من الفزع : « بسم الله أعوذُ بكلمات الله التّامة من غضبه وعقابه وشر عباده ، ومن هَمَزات الشياطين وأن يحضرون ». وكان عبد الله بن عمرو يعلمها من بلغ من ولده أن يقولها عند نومه ، ومن كان منهم صغيراً لا يعقل أن يحفظها كتبها له ، فعلقها في عنقه ،

ورواه أبو داود والترمذي وقال : حديث حسن ، وعن سفيان ، عن أيوب ، عن محمد بن يحيى بن حبان : أن خالد بن الوليد أصابه أرق ، فشكا ذلك للنبي ﷺ فأمره أن يتعوذ بكلمات الله التامة من غضبه وعقابه وشر عباده ، ومن همزات الشياطين وأن يحضرون .رواه ابن السني .

فإن قيل : استعاذ النبي ﷺ أن يحضره الشياطين ، وقد جاء الشيطان ليقطع عليه صلاته وحضره ليلة الوادي .

قلنا : لعل هذا هو الحامل لمن فسر قوله تعالى : ﴿ وأعوذ بك رب أن يحضرون ﴾ بحالة قراءة القرآن ، وأما حالة النزع والسياق ، وقول ابن زيد في أموري كلها لا يرد أيضاً ، بل يقال معناه وأن يحضرون للاغواء ونحو ذلك ، فهو نفي للحضور على وجه خاص لا نفي للحضور مطلقاً ، وسيأتي تمام الكلام في ذلك في الفصل الثامن عشر إن شاء الله تعالى.

تنبيه آخر :

قال سبحانه في سورة الأعراف : ﴿ فأمّا ينزَغَنّك منَ الشّيْطانِ نَزْغٌ فاسْتعِذْ بالله إنّه سميعٌ عليم ﴾ (١) . وقال في سورة فصلت ﴿ ولاَ تستَوي الحَسَنَةُ ولاَ السّيِّئةُ ادْفَعْ بالّتي هيَ أحْسَنُ فإذا الذي بيْنكَ وبيْنه عَدَاوةٌ كأنّه وليٌّ حميمٌ ﴾(٢) . ثم قال : ﴿ وأمّا ينزَغَنّك منَ الشّيْطانِ نَزْغٌ فاستعِذْ باللهِ إنّه هُو السّميعُ العليم ﴾ (٣) .

(١) سورة الأعراف ، الآية : ٢٠٠ .
(٢) سورة فصلت ، الآية : ٨٤ .
(٣) سورة فصلت ، الآية : ٣٦ .

فأكد سبحانه هنا بـ « أن » وبضمير الفصل ، وأتى باللام في السميع العليم وفيه وجوه :

الوجه الأول : أنه حيث اقتصر على مجرد الاسم ولم يؤكده أريد اثبات الوصف الكافي في الاستعاذة ، والاخبار أنه سبحانه وتعالى يسمع ويعلم ، فيسمع استعاذتك ، فيجيبك ويعلم ما تستعيذ منه فيدفعه عنك ، فالسميع : لكلام المستعيذ ، والعليم : لفعل المستعاذ منه ، وهذا المعنى شامل للموضعين ، وامتاز المذكور في فصلت بالتأكيد والتخصيص والتعريف ، لأنه ساق ذلك بعد انكاره على الذين شكوا في سمعه ، كما في الصحيح عن ابن مسعود . قال : اجتمع عند البيت ثلاثة نفر قرشيان وثقفي ، أو ثقفيان وقرشي . كثير شحم بطونهم . قيل : فقه قلوبهم . قالوا : أترون أن الله يسمع ما نقول ؟ قال أحدهم : يسمع إن جهرنا ، ولا يسمع إن أخفينا . فقال الآخر : إن سمع بعضه سمعه كله ، فأنزل الله تعالى : ﴿ وما كُنْتم تَسْتَتِرونَ أنْ يشْهدَ عليْكُم سَمْعكم ولا أبْصاركُم ولا جُلُودكُم ولكنْ ظَنَنْتُم أنَّ اللهَ لا يعْلَمُ كثيراً مما تعملون ﴾ إلى قوله : ﴿ منَ الخاسرينَ ﴾ [1] . فجاء التأكيد أنه هو السميع العليم في سياق هذا الإنكار إنه هو الذي وحده له كمال قوة السمع ، وإحاطة العلم لا كما يظن الجهال أنه لا يسمع أن اخفوا ، وأنه لا يعلم كثيراً مما يعملون .

الوجه الثاني : أن المأمور به في فصلت دفع اساءتهم إليه بإحسانه إليهم ، وذلك أشق على النفوس من مجرد الاعراض عنهم ولهذا عقبه بقوله : ﴿ ومَا يُلَقّاها إلاَّ الّذينَ صَبَروا ، ومَا يُلَقّاها إلاَّ ذو حظٍّ عظيم ﴾ [2] . فحسن التأكيد لحاجة المستعيذ .

والوجه الثالث : أن السياق ههنا لإثبات كمال صفاته ، وأدلة ثبوتها ، وآيات ربوبيته ، وشواهد توحيده ، ولهذا أعقب ذلك بقوله : ﴿ ومنْ آياتهِ اللّيْلُ والنّهارُ والشّمسُ والقَمَرُ ﴾ إلى قوله : ﴿ ومنْ

---

(١) سورة فصلت ، الآيتان : ٢٢ ، ٢٣ .

(٢) سورة فصلت ، الآية : ٣٥ .

آياته أنّك تَرى الأرضَ خاشِعةً ﴾ [1] . فأتى بأداة التعريف الدالة على أن من اسمائه السميع العليم ، كما جاءت الأسماء الحسنى كلها معرفة ، والذي في الأعراف سياق وعيد المشركين وإخوانهم من الشياطين ، ووعد المستعيذ بأن له رباً يسمع ويعلم ، وآلهة المشركين الذين عبدوها من دونه ليس لهم أعين يبصرون بها ولا آذان يسمعون بها ، فالله سميع عليم وآلهتهم لا تسمع ولا تبصر ولا تعلم ، فكيف تسوونها به في العبادة ، فعلمت أنه لا يليق بهذا السياق غير التنكير كما لا يليق بذلك غير التعريف ، والله أعلم بأسرار كلامه .

فإن قيل : قال سبحانه في سورة حم المؤمن : ﴿ فاستعِذْ بالله إنّه هُوَ السّميعُ البصير ﴾ [2] .

قلنا : لما كان المستعاذ منه شر مجادلة الكفار في آياته ، وما يترتب عليها من أفعالهم المرئية بالبصر قال : ﴿ إنّ الّذينَ يُجَادلُونَ في آيات الله بغير سُلْطانٍ أتاهُم إنْ في صُدُورهم إلاّ كِبْرٌ ما هُم ببَالغيه فاسْتعِذْ بالله إنّه هو السّميعُ البصير ﴾ [3] . فإنه لما كان المستعاذ منه كلامهم وأفعالهم المشاهدة عياناً قال : إنه هو السميع البصير ، وهناك فالمستعاذ منه غير مشاهد لنا ، فإنه يرانا هو وقبيله من حيث لا نراهم ، بل هو معلوم بالايمان ، وأخبار الله ورسوله ، وفي الجملة : جاء في الاستعاذة من الشيطان الذي يعلم وجوده ولا يراه بلفظ السميع العليم في الأعراف ، وحم السجدة ، وجاءت الاستعاذة من شر الانس الذين يفتنون ويرون بالأبصار بلفظ السميع البصير في سورة حم المؤمن ، لأن أفعال هؤلاء أفعال معاينة ترى بالبصر ، وأما نزغ الشيطان فوسواس وخطرات يلقيها في القلب ، والله أعلم .

---

(١) سورة فصلت ، الآيات : ٣٧ – ٣٩ .
(٢) سورة غافر ، الآية : ٥٦ .
(٣) سورة غافر ، الآية : ٥٦ .

الفصل الثاني :

في وسوسة الشيطان للأبوين

قال تعالى : ﴿ وإذْ قالَ ربُّك للملائكة إنّي جاعِلٌ في الأرض خليفةً ﴾ [1] . الخليفة الذي يخلف الذاهب ، ويجيء بعده وأصله : خليف بغير هاء . فعيل بمعنى فاعل ، كالعليم والسميع دخلت الهاء للمبالغة بهذا الوصف ، كما قالوا : راوية وعلامة ، وجمعه خلفاء كما يجمع فعيل ، ومن أنّث أراد تأنيث اللفظ . وقال في الجمع : خلائف . وقد ورد التنزيل بهما . قال الله تعالى : ﴿ خُلفاء منْ بعْدِ قومِ نُوحٍ ﴾ [2] . وقال : ﴿ خَلائِفَ في الأرضِ ﴾ [3] . وأراد بالخليفة : آدم في قول جميع المفسرين جعله خليفة عن الملائكة الذين كانوا سكان الأرض بعد الجن ، وذلك أن الله تعالى خلق السماء والأرض وخلق الملائكة والجن ، فأسكن الملائكة السماء ، وأسكن الجن الأرض ، فعبدوا دهراً طويلا في الأرض ، ثم ظهر فيهم الحسد والبغي ، فاقتتلوا وأفسدوا ، فبعث إليهم جنداً من الملائكة يقال لهم : الجن رأسهم إبليس ، وهم خزان الجنان اشتق لهم اسم من الجنة ، فهبطوا إلى الأرض وطردوا الجن إلى شعرب الجبال وجزائر البحور ، وسكنوا الأرض وكانوا أخف الملائكة عبادة لأن أهل سماء الدنيا أخف عبادة من الذين فوقهم ، وكذا أهل كل سماء وهؤلاء الملائكة لما كانوا سكان الأرض خفف الله عنهم العبادة ، فأحبوا البقاء في الأرض . وكان الله قد أعطى إبليس ملك الأرض ، وملك السماء ، وخزانة الجنان ، وكان يعبد الله تعالى

---

(١) سورة البقرة ، الآية : ٣٠ .

(٢) سورة الأعراف ، الآية : ٦٩ .

(٣) سورة فاطر ، الآية : ٣٩ . وسورة الأنعام ، الآية : ١٦٥ .

تارة في الأرض ، وتارة في السماء ، وتارة في الجنة ، فأعجب بنفسه وداخله الكبر ، فاطلع الله على ما انطوى عليه من الكبر ، فقال الله سبحانه له ولجنده : ﴿ إنّي جاعِلٌ في الأرض خليفةً ﴾ [1] . هذا المشهور في التفسير .

فإن قيل : ما وجه استخلاف الله تعالى ، والخلافة إنما تكون للنيابة عن الغير إما لغيبته أو لعجزه ، وذلك لا يجوز على الله تعالى .

قلنا : إنما كان خليفة لأنه كان بعد غيره ، ولأن الاستخلاف لغير ما ذكر ، وهو أن يستخلف المستخلف غيره امتحاناً للمستخلف ، أو تهذيباً له ، أو يستخلفه لقصور المستخلف عليه عن قبول التأثير من المستخلف لا لعجزه ، وذلك ظاهر ، فإن السلطان جعل الوزير بينه وبين رعيته ، وكذا الواعظ جعل بين العامة والحكماء ، فإن العامة يقبلون من الواعظ ما لا يقبلون من الحكيم ، وليس ذلك لعجز الحكيم بل لعجز العامة عن القبول منه ، وعلى هذا اللحم والعظم لما تباعد ما بينهما عجز العظم عن قبول الغذاء من اللحم ، فجعل الله بحكمته بينهما الغضاريف التي بينهما ولها مناسبة إليهما لتأخذ من ذلك اللحم وتعطيه العظم ، وكذلك جعل الله تعالى الرسل بين الملك الذي هو من قبله تعالى ، وبين العباد لفضل قوة اعطائهم ليأخذوا منه الحكمة ويوصلوها إلى الناس ، وبهذا الوجه قال تعالى : ﴿ ولو جَعَلْناه مَلَكاً لجعلناه رجُلاً ﴾ [2] . وقد قيل : إن الخليفة يقال للواحد وللجمع ، وهنا هو جمع فإن الخليفة أريد به آدم وأولاده . قال تعالى : ﴿ وهُو الّذي جَعَلَكُم خلائفَ في الأرضِ ورفَعَ بعضَكُم فوقَ بعْضٍ درجاتٍ ﴾ [3] .

قال ابن جرير : خليفة ، من يخلفني في الحكم بين خلقي ، وأن ذلك الخليفة آدم ، ومن قام مقامه في طاعة الله ، والحكم بالعدل بين خلقه ، وأما الإفساد فمن غير خلفائه .

---

(١) سورة البقرة ، الآية : ٣٠ .
(٢) سورة الأنعام ، الآية : ٩ .
(٣) سورة الأنعام ، الآية : ١٦٥ .

قال بعض الملاحدة وابن العربي : الخليفة : هو خليفة عن الله مثل : نائب الله ، وفسروا تعليم آدم الأسماء بالصفات التي جمع معانيها الانسان ، وخلق آدم على صورته وأريد به هذا المعنى ، وأخذوا عن الفلاسفة أن الإنسان عالم صغير ، وهذا قريب وضموا إليه أن الله تعالى هو العالم الكبير بناء على أصلهم الكفري في وحدة الوجود ، وأن الله هو عين المخلوقات ، فالانسان من بين الظاهر هو الخلافة الجامعة بين الأسماء والصفات ، ويتفرع على هذا دعوى الربوبية والالهية المخرجة إلى الفرعونية ، وزعموا على ذلك أن الرسول والولي يعطى « كن » أي يقول للشيء كن فيكون ، وأن سائر الناس أعطوا « بسم الله الرحمن الرحيم » عوضاً عن قول « كن » ، وهذا باطل ، ولا يجوز أن يكون لله خليفة بهذا المعنى ، ولهذا لما قالوا لأبي بكر الصديق رضي الله عنه يا خليفة الله ! قال : لست بخليفة الله ، ولكن خليفة رسول الله ﷺ حسبي ذلك ، وهو سبحانه وتعالى يكون خليفة لغيره ، كما قال رسول الله ﷺ : « اللهم أنتَ الصَّاحب في السّفر والخليفة في الأهل » ، لأن الله سبحانه حي قيوم شهيد لا يموت ولا يغيب ، فلا يجوز أن يكون أحد منه خلفاً ، فإنه لا يقوم مقامه ، فمن جعل له خليفة فهو مشرك به ، وقوله تعالى : ﴿ قالُوا أتجْعلُ فيها مَنْ يُفْسدُ فيها ويسْفكُ الدِّماء ونحنُ نُسبِّحُ بحَمْدكَ ونُقدِّس لكَ ﴾ (١) .قال الله تعالى لهم : إني خالق بشراً وإنهم يتحاسدون ويقتل بعضهم بعضاً ، فلذلك قالوا : (أتجعل فيها من يفسد فيها) ، وصححه الراغب وغيره ، وكذا قال أكثر المفسرين : إنهم قاسوا على الفائت فقالوا : (أتجعل فيها من يفسد فيها) كما فعل بنو الجان ، فهو أول قياس فاسد قيس به الشاهد على الغائب . ورجّح أكثر المفسرين والواقدي وجماعة هذا القول ،وأنهم قالوا قياساً على من سكن الأرض قبل من الجان فافسدوا فيها ، فإذا قال القائل : من أين حكمت الملائكة على الإنسان بالإفساد وسفك الدماء ؟ وذلك إما ادعاء علم الغيب أو الحكم بالظن والتخمين ، وهم منزهون عن ذلك كان جوابه ما قلناه .

---

(١) سورة البقرة ، الآية : ٣٠ .

قالت طائفة قوله : (أتجعل فيها من يفسد فيها) ليس بإنكار إنما هو استخبار ليعرفهم ما تسكن نفوسهم إليه ، ويرشدهم إلى ما يزيل شبههم ولم يسألوا عن ذلك إلا وهم قد أذن لهم في السؤال . قال يحيى ابن أبي كثير في قوله (أتجعل فيها من يفسد فيها) كانوا عشرة آلاف من الملائكة ، فأرسل الله عليهم ناراً فأحرقتهم . رواه ابن أبي حاتم ، وهذا خبر اسرائيلي منكر . وله أيضاً عن أبي جعفر محمد بن الحسين أنه كان يقول : السجل ملك ، وكان هاروت وماروت من أعوانه ، وكان كل يوم له ثلاث لمحات ينظرهن في أم الكتاب نظرة لم تكن له فأبصر فيها خلق آدم وما فيه من الأمور ، فأسر ذلك لهاروت وماروت ، وكانا من أعوانه ، فلما قال الله تعالى : ﴿ إني جاعل في الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ﴾ . قالا ذلك استطالة على الملائكة ، وهذا أثر غريب مقتضاه : أن الذين قالوا ذلك إنما كانوا اثنين فقط ، وهو خلاف السياق .

وقد ورد عن أبيه خلافه ، والظاهر أن جميع ذلك من الاسرائيليات ، وقال علي بن الحسين ، وقد سئل عن بدء الطواف أن الله لما قال للملائكة ﴿ إني جاعل في الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ﴾ . ظنوا أن هذا رد على ربهم ، وقد أسخطه ذلك ، فطافوا بالعرش ولاذوا به يتضرعون ويبكون ، فنزلت الرحمة ووضع الله تحت العرش بيتاً من زبرجد على أربع أساطين ، وغشاؤه ياقوتة حمراء ، وأمر الملائكة أن يطوفوا به ، وسمى ذلك البيت الضراح .قوله تعالى : ﴿ إنِّي أعْلَمُ ما لا تَعْلَمُونَ ﴾ [1] . قال ابن عباس : علم الله أن في نفس إبليس بغياً ، وعن مجاهد قال : علم من ابليس كتمان الكبر ، وأنه لا يسجد لآدم ، وقال قتادة : علم الله أنه سيكون من تلك الخليفة أنبياء ورسل وصالحون .

وقال الحكماء : لما خلق الله الانسان جسماً روحانياً ، وجعله مركباً

---

(١) سورة البقرة ، الآية : ٣٠ .

من قوى ثلاث : قوة شهوية ، وقوة غضبية ، وقوة ملكية ، فبقوته الشهوية يفسد في الأرض ، وبقوته الغضبية يسفك الدماء التي لم تكن تحل له ، ويتولى خلافة الله تعالى بقوته الملكية التي هي العقل ، فلما سمع الملائكة أن هذا الانسان مركب هذه التراكيب ، ورأوا القوة التي بها تصلح خلافته القوة التي خصوا بها ، ونظروا إلى زيادة القوتين ، ولم يعرفوا فضيلتهما ، فاستكبروا وراجعوا أمر الله وقالوا : أما العبادة التي هي التسبيح والتقديس المختصة بالقوة الملكية ، فنحن نقيمها . فما معنى الإنسان المركب تركيباً لا ينفك من فساد وقتل ؟ وقال تعالى في جوابهم : ﴿إني أعلم ما لا تعلمون﴾ ، فعرض ولم يصرح ليريهم تفضيل الإنسان وما خص به من العلم والعمل اللذين يقصر الملك عنهما وللإجمال في قوله تعالى : ﴿ إني أعلم ما لا تعلمون ﴾ بيّن في قوله، ﴿وعلم آدم الأسماء كلها ﴾ .

قال مسلم في صحيحه : أخبرنا ابن أبي شيبة ، عن يونس بن محمد، عن حماد بن سلمة ، عن ثابت ، عن أنس ، عن النبي ﷺ قال : « لمّا خَلَقَ اللهُ آدمَ جعلَ إبْليسُ يطيف به فلمّا نظرَ إليْه أجوف قال ظَفرْتُ به خلقاً لا يتمالك » .

وروي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : لما أراد الله أن يخلق آدم بعث ملكاً من الملائكة من حملة العرش أن يأتي بتراب من الأرض ، فلما أهوى ليأخذ منها قالت : إني أسألك بالذي أرسلك إليّ أن لا تأخذ مني اليوم شيئاً يكرن للنار فيه نصيب غداً . قال : فتركها ، فلما رجع إلى ربه قال : ما منعك أن تأتيني بما أمرتك به ؟ قال : يارب! سألتني بك أن لاآخذ شيئاً يكون للنار فيه نصيب غداً ، فأعظمت أن أرد شيئاً سألني بك . قال : ثم أرسل آخر من حملة العرش ، فلما أهوى ليأخذ منها قالت له مثل ذلك ، فتركها ورجع إلى ربه ، فقال له مثل ما قال الأول ، حتى أرسل حملة العرش كلهم كل ذلك يقول لهم مثل ذلك ، فيرجعون إلى ربهم ، فيقول لهم مثل ذلك ، حتى أرسل ملك الموت ، فلما أهوى ليأخذ منها قالت له الأرض : أسألك بالذي أرسلك إليّ

ألاّ تأخذ مني اليوم شيئاً يكون للنار منه نصيب غداً ، فقال ملك الموت : الذي أرسلني إليك أحق بالطاعة منك ، فأخذ من وجه الأرض كلها طيبها وخبيثها ، حتى كانت قبضته عند موضع الكعبة ، فجاء بهم إلى ربه ، فصب عليها من ماء الجنة حتى كانت حمأ مسنوناً ، فخلق منها آدم بيده ، فقال : تبارك الله أحسن الخالقين ، وهذا في صحته نظر .

قال أبو داود في السنن : حدثنا مسدد ، ثنا زيد بن زريع ويحيى ابن سعيد ، قالا : حدثنا عوف ، عن قسامة بن زهير ، حدثنا أبو موسى الأشعري قال : قال رسول الله ﷺ : « إنّ اللهَ خلَقَ آدمَ من قبضةٍ قبضها من جميع الأرضِ ، فجاء بنُو آدمَ على قدر الأرض . منهم الأبيض والأحمر والأسود ، والحسن والطيب ، والسهل والخبيث ». فهذا الحديث يدل على أن الله سبحانه وتعالى قبض قبضة من جميع الأرض خلق منها آدم ، وفيما سبق أنه أرسل ملكاً يقبض منها ، وهذا ينافي ما سبق .

وفي هذا الحديث ما يشعر بأنه فضّل من تلك القبضة بقية ، ولعله سبحانه وتعالى خلق منها تلك النخلة ، فإنه قد جاء في حديث علي بن أبي طالب قال : قال رسول الله ﷺ : « اكرموا عمتكم النخلة ، فإنها خُلقت من فضل طين آدم ، ليس من الشجرة شجرة أكرم على الله من شجرة ولدت تحتها مريم بنت عمران » . لكن ذكر ابن الجوزي هذا الحديث في الموضوعات وقال : لا يصح لأن فيه مسرور بن سعيد التميمي يروى عن الأوزاعي المناكير التي لا يجوز الاحتجاج بها .

وعن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « خلَقَ اللهُ آدمَ من تُراب الجابية وعجنه بماء الجنة » . قال ابن الجوزي : لا يصح هذا الحديث فيه الوليد بن مسلم ، وهو مدلس عن إسماعيل بن رافع ضعفه الإمام أحمد ، فسماها عمتنا لأنها خلقت من فضل طينة آدم ، وقيل : معنى قوله عمتكم شبيهتكم ، ووجه تشبيهها بالإنسان أنها أقرب النبات مرتبة من الحيوان .

قال الحكماء : كل نبات إذا قطع رأسه انجبر إذا سلم أصله إلا النخلة ، فإنه إذا قطع رأسها بطلت ، **وقيل** : إن النخلة ربما يقابلها الحمار فتصبو كما تصبو المرأة إلى الرجل ، فلا ينفعها تلقيح إلا منه .

وروى الامام أحمد في مسنده عن ابن عمر سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إنَّ آدمَ عليه السلام لما أهبطه الله إلى الأرض قالت الملائكة : أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ؟ قال : (إني أعلم ما لا تعلمون) قالوا : ربنا نحن أطوع لك من بني آدم . قال الله تعالى : هلموا ملكين حتى نهبطهما إلى الأرض ، فننظر كيف يعملان .قالوا ربنا هاروت وماروت ، فاهبطا إلى الأرض فمثلت لهما الزهرة من أحسن البشر ، فجاآها فسألاها نفسها ، فقالت : لا والله حتى تتكلما بهذه الكلمة من الاشراك ، فقالا : لا والله لا نشرك بالله شيئاً ، فذهبت عنهما ، ثم رجعت بصبي تحمله فسألاها نفسها ، فقالت : لا والله حتى تقتلا هذا الصبي ، فقالا : لا ، والله لا نقتله أبداً . فذهبت عنهما ، ثم رجعت بقدح خمر تحمله فسألاها نفسها ، فقالت : لا والله حتى تشربا هذا الخمر ، فشربا فسكرا فوقعا عليها ، وقتلا الصبي ، فلما أفاقا قالت المرأة : والله ما تركتما شيئاً مما أبيتماه عليَّ إلاَّ قد فعلتماه حين سكرتما ، فخيرا عند ذلك بين عذاب الدنيا والآخرة ، فاختارا عذاب الدنيا .وهذا الحديث لا يصح ، لأنه ذكر فيه أن الملائكة قالت لله : (أتجعل فيها من يفسد فيها) لما أهبط آدم إلى الأرض ، وهو مخالف للقرآن.

قوله : ﴿ وعلّمَ آدمَ الأسْماء كلّها ﴾ [1] . قال أهل التفسير : خلق في قلبه علماً بالاسماء وألهمه العلم بها ، وعلمه أسماء كل شيء حتى القدر والمعرفة . قال الواقدي : قال أهل التأويل : إن الله سبحانه وتعالى علم آدم جميع اللغات ، ثم إن أولاده تكلم كل واحد بلغة أخرى ، ولما تفرقوا اختص كل فرقة بلغة ، فاللغات كلها إنما سمعت من آدم وأخذت عنه ، انتهى .

---

(١) سورة البقرة ، الآية : ٣١ .

وقد اختلف في واضع اللغات هل هو الباري سبحانه كما هو المشهور ، أو البشر واحد أو جماعة ، وهي مسألة مشهورة وقوله : ﴿ ثمّ عَرَضَهُم على الملائكة ﴾ [1] . العرض : الاظهار . قال أهل التفسير : إن الله خلق كل شيء الحيوان والجماد ، ثم علّم آدم اسماءها ، ثم عرض تلك الشخوص الموجودات على الملائكة ، ولذلك قال : (ثم عرضهم على الملائكة) لأنه انباء عن المسمى والمسميات ، وكان فيهم من يعقل من الملائكة والجن : ﴿ فقالَ انْبئوني بأسْماء هؤلاء ﴾ [1] أخبروني . والنبأ : الخبر ، وهذا أمر تعجيز أراد الله تعالى أن يبين عجزهم عن علم ما يرون ويشاهدون ، فلا يظنون أنهم أعلم من الخليفة الذي يجعل الله في الأرض .

قوله : ﴿ إن كنتم صادقين ﴾ [1] . قال الحسن : إن كنتم صادقين إني لا أخلق خلقاً إلا كنتم أعلم منه وأفضل . قال أبو العالية : لما عرفوا أنه جاعل في الأرض خليفة قالوا : لن يخلق الله خلقاً إلا كنا نحن أعلم منه وأفضل ، فأحب الله أن يعلمهم أنه قد فضل آدم عليهم ، فعلمه الأسماء كلها ، ثم ﴿ قال يا آدمُ انْبئهم بأسمائهم ﴾ [2] . قالت الملائكة سبحانك : ﴿ لا عِلْمَ لنا إلاّ ما عَلّمتنا ﴾ [3] . فأقروا بالعجز . واعتذروا . قال ابن عباس : « سبحانك » تنزيهاً لك وتعظيماً عن أن يعلم الغيب أحد سواك ، وقيل : تنزيهاً لك عن الاعتراض عليك في حكمك لا علم لنا إلا ما علمتنا ، وهذا ليس مما علمتنا أنك أنت العليم الحكيم . وفيه تنبيه على استعمال الأدب عند سؤال العلم .

قال بعض الحكماء : الافتخار مدرجة للسقوط انظر كيف قالت الملائكة : ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك إلى أن اعترفوا بعدم العلم ، فمن استكثر على الله طاعته فالجهل موطنه . (قال يا آدم أنبئهم أسمائهم) فسمى كل شيء باسمه وألحق كل شيء بجنسه . ﴿ قالَ ألَمْ أقُلْ لكُم إنّي أعْلَمُ غيْبَ السّموات والأرض ﴾ [4] . أي أعلم ما غاب

---

(١) سورة البقرة ، الآية : ٣١ .
(٢) سورة البقرة ، الآية : ٣٢ .
(٣) سورة البقرة ، الآية : ٣٣ .
(٤) سورة البقرة ، الآية : ٣٣ .

فيهما عنكم لقوله : ﴿ ولله غيبُ السّموات والأرْض ﴾ [1] . له ما غاب فيهما ملكاً وخلقاً . ﴿ واعْلمُ ما تُبدونَ وما كنْتم تكْتمون ﴾ [2] من قولكم : أتجعل فيها من يفسد فيها ، وما كنتم تكتمون من إضمار إبليس الكفر ، وقال الحسن : معنى قولهم : (لن يخلق الله خلقاً أفضل ولا أعلم منا). وفي الآية حجة على أن العلم أفضل من العبادة ، فإن الملائكة أذعنوا لآدم بالعلم .

قوله تعالى : ﴿ وإذْ قُلْنا للملائكة اسْجُدوا لآدمَ ﴾ [3] . أخبر سبحانه عن نفسه المقدسة بالجمع لأنه ملك الملوك ، واختلفوا في الملائكة الذين أُمروا بالسجود ، فقيل : هم الذين كانوا مع إبليس في الأرض .

قال شيخ الإسلام تقي الدين ابن تيمية : هذا القول ليس من أقوال المسلمين ، بل من أقوال اليهود والنصارى ، وقيل : هم جميع الملائكة حتى جبريل وميكائيل . وهذا قول العامة من أهل العلم بالكتاب والسنّة .

قال شيخ الإسلام تقي الدين ابن تيمية : ومن قال خلافه ، فقد رد القرآن بالكذب والبهتان لأنه سبحانه قال : ﴿ فَسَجدَ الملائكة كُلّهم أجْمَعونَ ﴾ [4] . وهذا تأكيد للعموم .

وقد روى ابن جرير من حديث شعيب بن بشر ، عن عكرمة ، عن ابن عباس قال : لما خلق الله الملائكة قال : ﴿ إنّي خَالقٌ بَشَراً من طين ﴾ [5] . فإذا خلقته فاسجدوا له . قالوا : لا نفعل ، فأرسل سبحانه عليهم ناراً فأحرقتهم ، ثم خلق ملائكة ، فقال لهم مثل ذلك ، فقالوا : سمعنا وأطعنا إلا إبليس كان من الكافرين . وفي صحة هذا نظر ، والظاهر أنه إسرائيلي .

---

(١) سورة النحل ، الآية : ٧٧

(٢) سورة البقرة ، الآية : ٣٣ .

(٣) سورة البقرة ، الآية : ٣٤ ، وسورة الأعراف ، الآية : ١١ الإسراء ، الآية ٦١ .

(٤) سورة الحجر ، الآية : ٣٠ .

(٥) سورة ص ، الآية : ٧١ .

وأصل السجود في اللغة : الخضوع والتذلل . واختلف الناس في هذا السجود على قولين ، أحدهما : أنه تكريم لآدم وطاعة لله ولم يكن عبادة لآدم . وقيل : السجود لله وآدم قبلة ، أو السجود لآدم تحية أو السجود لآدم عبادة بأمر الله وفرضه عليهم .

ذكر ابن الأنباري عن الفراء وجماعة من الأئمة : أن سجود الملائكة لآدم كان تحية ولم يكن عبادة وكان ذلك تحية الناس ، ولم يكن وضع الوجه على الأرض ، فلما جاء الإسلام أبطل ذلك بالسلام ، ولو كان آدم قبلة في سجدة واحدة لكانت الكعبة وبيت المقدس أفضل منه بألوف كثيرة ، إذ جعلت قبلة أئمة في جميع أنواع الصلوات ، فهذه القضية الكبيرة التي جعلت من أعظم النعم عليه ، وأمن الله عليه بها ليس فيها إلا أنه جعله كالكعبة في وقت في ركن من أركان الصلاة مع أن ما أوتيه من العلم والايمان والقرب من الرحمن أفضل من الكعبة بكثير .

قال أهل العلم : السجود كان لآدم بأمر الله وفرضه .

قال شيخ الإسلام تقي الدين ابن تيمية : على هذا إجماع كل من يسمع قوله : فإن الله قال : (اسجدوا لآدم) ولم يقل إلى « آدم » ، وكل حرف له معنى وفرق بين سجدت له ، وبين سجدت إليه ، قال تعالى : ﴿ لا تَسْجُدُوا للشَّمْسِ ولا للقَمَرِ واسْجُدُوا للهِ الَّذي خَلَقَهنَّ ﴾ (١) ﴿ ولله يسْجُدُ مَنْ في السّموات والأرض ﴾ (٢) . أجمع المسلمون على أن السجود للاحجار والأشجار والدواب محرم ، وأما الكعبة فيقال : كان النبي ﷺ يصلي إلى بيت المقدس ، ثم صلى إلى الكعبة ، ولا يقال صلى لبيت المقدس ولا للكعبة . والصواب أن الخضوع بالقلوب ، والاعتراف بالعبودية لا يصلح على الإطلاق إلا لله سبحانه وتعالى ، وأما السجود فشريعة من الشرائع يتبع الأمر ، فلو أمرنا سبحانه أن نسجد لأحد من خلقه لسجدنا طاعة واتباعاً لأمره ، فسجود الملائكة لآدم

---

(١) سورة فصلت ، الآية : ٣٧ .
(٢) سورة الرعد ، الآية : ١٥ .

عبادة لله وطاعة وقربة يتقربون بها إليه ، وهو لآدم تشريف وتعظيم وتكريم . وسجود أخوة يوسف له تحية وسلام ، ولم يأت أن آدم سجد للملائكة بل لم يؤمر بالسجود إلا لله رب العالمين .

وبالجملة : أهل السنة قالوا : إنه سجود تعظيم وتكريم وتحية له .

وقالت المعتزلة : كان آدم كالقبلة يسجد إليه ولم يسجدوا له . قالوا ذلك هرباً من أن تكون الآية الكريمة حجة عليهم ، فإن أهل السنة قالوا إبليس من الملائكة ، وصالح البشر أفضل من الملائكة ، واحتجوا بسجود الملائكة لآدم ، وخالفت المعتزلة في ذلك وقالت : الملائكة أفضل من البشر وسجود الملائكة لآدم كان كالقبلة ويبطله ما حكى الله سبحانه عن ابليس : ﴿ أرأيتك هذا الّذي كرّمتَ عليَّ ﴾ ﴿ لأحْتنِكنّ ذُريّتَه إلاّ قليلاً ﴾ [1] .

فصل

في معصية إبليس وعدم سجوده لآدم :

قوله تعالى : ﴿ إلاّ إبْليسَ أبى واسْتكبرَ وكانَ منَ الكافرينَ ﴾ [2] . وفيه قولان : أحدهما : أنه وقت العبادة كان منافقاً ، والقول الثاني : أنه كان مؤمناً ثم كفر . وهذا قول الأكثرين فقيل في معنى الآية : وكان من الكافرين في علم الله . أي كان عالماً في الأزل أنه سيكفر . والذي عليه الأكثرون : أن إبليس أول كافر بالله إلى ماهية تقتضي وجودها . أو يقال معنى الآية أنه صار من الذين وافقوه في الكفر بعد ذلك .

واختلف الناس بأي سبب كفر إبليس لعنه الله ، فقالت الخوارج : إنما كفر بمعصية الله وكل معصية كفر ،وهذا قول باطل بالكتاب والسنة وإجماع الأمة .

---

(١) سورة الاسراء ، الآية : ٦٢ .
(٢) سورة البقرة ، الآية : ٣٤ .

وقال آخرون : كفر بترك السجود لآدم ومخالفته أمر الله . وقال : السجود في الصلاة ركن واحتج به طائفة على كفر تارك الصلاة ، كما هو مذهب أحمد . وحكى إجماع الصحابة ، وقال أبو هريرة : كان أصحاب رسول الله ﷺ لا يرون من الأعمال شيئاً من تركه ، فقد كفر إلا الصلاة رواه الحاكم ، وقد جاء تكفير تارك الصلاة عن أحد عشر نفساً من الصحابة ، وسبعة من التابعين وعامة فقهاء الحديث .

وقال آخرون : كفر إبليس لأنه خالف الأمر الشفاهي من الله ، فإن الله خاطب الملائكة وأمرهم بالسجود ومخالفة الأمر الشفاهي أشد قبحاً .

وقال جمهور الناس : كفر إبليس لأنه أبى السجود واستكبر وعاند وطعن ، واعتقد أنه محق في تمرده واسندل بأنا خير منه كما يأتي ، فكأنه ترك السجود لآدم تسفيهاً لأمر الله وحكمته ، وهذا الكبر عبر رسول الله ﷺ بقوله : « لا يدخلُ الجنّة مَنْ كانَ في قلْبه مِثقال ذرّة من كِبر » .

وقال الميموني : ذكر أبو عبد الله ابن حنبل إبليس ، فقال : إنما أُمر بالسجود فاستكبر وكان من الكافرين والاستكبار هو كفر ،وقد حكى الشهرستاني في أول كتابه « الملل والنحل » عن شارح الأناجيل الأربعة . قال : اعلم أن أول شبهة وقعت في الخليقة شبهة إبليس ومصدرها استمراره بالرأي في مقابلة النص ، واختياره الهوى ، واستكباره بالمادة التي خلق منها وهي النار على الطين ، وتشعبت عن هذه الشبهة سبع شبهات ، وسارت في الخليقة ، وتلك الشبهات مسطورة في شرح الأناجيل الأربعة ، ومذكورة في التوراة متفرقة على شكل المناظرة بينه وبين الملائكة بعد الأمر بالسجود والامتناع منه .

وقال إبليس لعنه الله للملائكة يتوجه على مساق حكمته سبحانه أسئلة سبعة . قال شارح الأناجيل الأربعة : فأوحى الله من سرادقات الجلال والكبرياء : يا إبليس! ما عرفتني ولو عرفتني لعلمت أنه لا اعتراض عليَّ في شيء من أفعالي ، فإنني أنا الله لا إله إلا أنا لا أسأل عما أفعل انتهى.

وهذه القصة والمناظرة هي من نقل أهل الكتاب ، ونحن لا نصدقها ولا نكذبها ، وكأنها والله أعلم مناظرة وضعت على لسان إبليس ولا ريب أنها من كيده ، وقد أخبر الله سبحانه أن كيد الشيطان كان ضعيفاً ، وأسئلته وشهادته من أضعف الأسئلة عند أهل الايمان ، وأن ضعف موقعها عند من أصل أصولا فاسدة كانت سداً بينه وبين ردها وفي ذلك كلام طويل لا يسعه هذا الموضع .

فصل

في ندم آدم لأكله من الشجرة :

قوله سبحانه وتعالى : ﴿ وقُلْنا يا آدمُ اسْكُنْ أنتَ وزوجُك الجنّة ﴾ (١) . أكثر الناس على أن المراد بالجنة التي أسكنها آدم جنة الخلد دار الثواب .

قال شيخ الإسلام تقي الدين ابن تيمية : وهذا قول أهل السنة والجماعة . قال الشيخ تقي الدين : من قال أنها جنة في الهند أوجدت أو غير ذلك ، فهو من الملحدة المبتدعين ، والكتاب والسنة يرد هذا القول.

وقالت طائفة : في الأرض ليست جنة الخلد ، وقد استوفى الكلام فيها في مفتاح دار السعادة وكتاب « حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح » . وهذا مشهور في كتب التفسير في قوله : « اسكن أنت » هل هو أمر إيجاب أو إباحة ، فعن قتادة إن الله تعالى ابتلى آدم بإسكان الجنة ، كما ابتلى الملائكة بالسجود لآدم ، لأنه أسكن فيها آدم يأكل حيث شاء ، ونهاه عن أكل شجرة واحدة فما زال به البلاء حتى وقع فيما نهي عنه ، فإسكانه موضعاً فيه مشتهاه ، ثم منعه منه من أشد التكاليف فقيل : هو إباحة لأن الاستقرار في المواضع المنزهة لا يدخل تحت التعبد كأكل

---

(١) سورة البقرة ، الآية : ٣٥ .

الطيبات ، والأصح أنه مشتمل عليها . أما الاباحة فالإذن في الانتفاع بنعيم الجنة ، وأما التكليف فنهي مع حضور ما نهى عنه قوله تعالى : ﴿ وكُلا منْها رَغَداً ﴾ (١) . قال في الأعراف : « فكلا » وهنا بالواو لأن كل فعل عطف عليه شيء ، وكان ذلك الفعل كالشرط ، وذكر الشيء كالجزاء عطف بالفاء دون الواو كقوله تعالى : ﴿ وإذْ قُلْنا ادْخُلوا هذه القرْية فكُلُوا منْها حيْثُ شئْتُم رغداً ﴾ (٢) لما كان وجود الأكل منها متعلقاً بدخولها ذكر بالفاء ، كأنه إن دخلتموها أكلتم منها ، فالأكل يتعلق وجوده بوجود الدخول وقوله في الأعراف : ﴿ اسْكُنُوا هذهِ القَرْية وكُلُوا منها ﴾ (٣) . بالواو دون الفاء لأنه من السكنى ، وهو المقام مع اللبث الطويل ، والأكل لا يختص وجوده بوجوده ، لأن من دخل بستاناً قد يأكل منها وإن مجازاً ، فلما لم يتعلق الثاني بالأول تعلق الجزاء بالشرط عطف بالواو إذا ثبت هذا ، فنقول قد يراد بـ « اسكن » الزم مكاناً دخلته ، ولا تنتقل عنه وقد يراد ادخله واسكن فيه ، ففي البقرة ورد الأمر بعد أن كان آدم في الجنة ، فكان المراد المكث والأكل لا يتعلق به فجيء بالواو ، وفي الأعراف ورد قبل أن دخل الجنة والمراد الدخول والأكل متعلق به فورد بالفاء . قوله تعالى : ﴿ ولاَ تَقْربا هذهِ الشّجرة فتَكونا منَ الظّالمين ﴾ (٤) .

قد اختلفوا في تعيين الشجرة فقال ابن مسعود : هي شجرة العنب . وقال ابن عباس : هي السنبلة ، وجاء مرفوعاً إلى النبي ﷺ : « مثل كلا البقر أحلى من العسل وألين من الزبد » . قال وهب بن منبه . وقال ابن جريج : شجرة التين . ولذلك تعبر في الرؤيا بالندامة لآكلها لأجل ندم آدم على أكلها . وقال علي : شجرة الكافور .

قوله تعالى : (ولا تقربا) لقصد النهي عن قرب الشجرة المبالغة في النهي عنها ، لأن القرب من الشيء مقتضى الإلفة والإلفة داعية للمحبة ومحبة الشيء تعمي وتصم ، فلا يرى قبيحاً ولا يسمع نهياً فيقع ،

---

(١) سورة البقرة ، الآية : ٣٥ .
(٢) سورة البقرة ، الآية : ٥٨ .
(٣) سورة الأعراف ، الآية : ١٦١ .
(٤) سورة البقرة ، الآية : ٣٥ .

والسبب الداعي إلى الشيء منهي عنه ، كما أن السبب الموصل إلى الخير مأمور به ، وعلى ذلك قوله ﷺ « العينان تزنيان » . لما كان النظر داعياً إلى الألفة ، والالفة إلى المحبة ، وذلك مقتضٍ لارتكابه ، فصار النظر مبدأ الزنا وعلى هذا قال تعالى : ﴿ ولاَ تَقْربوا الزِّنا ﴾ إلى قوله : ﴿ ولاَ تَقْربوا مالَ اليتيم إلاَّ بالّتي هيَ أحْسَنُ ﴾[1] . وهذا أولى . ٥٨

مما حكاه البغوي ، عن بعض الحكماء أنه قال : ولا تقربا هذه الشجرة للأكل منها ، وقال بعضهم : حرمة الأكل على آدم وحواء عرفت من قوله تعالى : ﴿ فَلمّا ذَاقَا الشّجرة ﴾ [2] . ومن تصدير الكلام بإباحة الأكل من قوله : ﴿ فَكُلاَ منْ حيْثُ شِئْتُما ﴾ [3] . فدل ذلك على أنه نهاهما عن أكل تلك الشجرة ، لكن النهي بـ (لا تقربا) يعم الأكل ، وسائر الانتفاعات ، قال ابن العربي : سمعت الشاشي في مجلس النظر يقول : إذا قيل : لا تقرب بفتح الراء كان معناه : لا تلبس بالفعل ، وإذا كان بضم الراء معناه لا تدن .

فصل

في غواية إبليس لآدم :

قوله تعالى : ﴿ فأزَلّهُما الشّيْطانُ عنْها فأخْرجَهُما ممّا كانا فيه ﴾[4] . قرأ الجماعة (فأزلهما الشيطان) بغير ألف من الزلة ، وهي الخطيئة ، أي استزلهما وأوقعهما فيها . وقرأ حمزة (فأزالهما) بالألف من التنحية يقال : أزلته فزال ، واتفق الناس أن الشيطان كان متول إغواء آدم ، واختلف في الكيفية ، فقال ابن مسعود ، وابن عباس ،

---

(١) سورة الاسراء ، الآيات : ٣٢ – ٣٤ .
(٢) سورة الأعراف ، الآية : ٢٢ .
(٣) سورة الأعراف ، الآية : ١٩ .
(٤) سورة البقرة ، الآية : ٣٦ .

وجمهور العلماء : أغواهما مشافهة ، ودليل ذلك قوله : ﴿ وقاسَمَهُما إنِّي لَكُما لمنَ النّاصحينَ ﴾ (١) . والمقاسمة : ظاهرها المشافهة .

قال بعضهم ، وذكر عبد الرزاق ، عن وهب بن منبه : دخل الجنة في فم الحية وهي ذات قوائم أربع كالبختية ، وهي من أحسن دابة خلقها الله بعد أن عرض نفسه على كثير من الحيوانات ، فلم يدخله إلا الحية ، فلما دخلت به خرج من جوفها إبليس ، فأخذ من الشجرة التي نهى الله عنها ، فجاء بها إلى حواء ، فقال لها : انظري إلى هذه الشجرة ما أطيب ريحها ، وأطيب طعمها وأحسن لونها ، فلم يزل يغويها حتى أخذتها حواء فأكلتها ، ثم أغوى آدم وقالت له حواء : كُلْ فإني قد أكلت منها ، فلم يضرني ، فبدت لهما سوآتهما وحصلا في حكم الذنب ، فدخل آدم في جوف الشجرة ، فناداه ربه : أين أنت ؟ قال : أنا هنا يارب ! قال : ألا تخرج ؟ قال : أستحي منك يارب . قال : اهبط إلى الأرض التي خلقت منها ، ولعنت الحية وردت قوائمها في بطنها ، وجعلت العداوة بينها وبين آدم ، ولذلك أمر بقتلها . وقيل لحواء : كما أدميت الشجرة فكذلك يصيبك الدم كل شهر وتحملين وتضعين كرهاً تشرفين به على الموت مراراً ، وتكوني سفيهة ، وقد كنت حليمة . وقيل : كانت الحية خادم آدم عليه السلام في الجنة فخانته بأن مكّنت عدو الله من نفسها ، وأظهرت له العداوة هناك ، فلما أهبطوا تأكدت العداوة وفي الحديث : « ما سالمناهم منذ عاديناهم » .

قال صفوان : حدثنا ابن عجلان ، عن أبيه ، عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : في الحيات : « ما سالمناهُم منذ عاديناهُم ومن ترك شيئاً منهم خيفة فليس منّا » .

سُئِلَ أحمد بن صالح عن قوله : « ما سالمناهم منذ عاديناهم » متى كانت هذه العداوة ؟ قال : حين أخرج آدم من الجنة : ﴿ اهْبِطُوا بعْضُكُم لبَعْضٍ عَدوٌّ ﴾ (٢) .

---

(١) سورة الأعراف ، الآية : ٢١ .
(٢) سورة البقرة ، الآية : ٣٦ .

وقالت طائفة : إن إبليس لم يدخل الجنة إلى آدم بعدما خرج منها ، وإنما أغوى بشيطانه ووسواسه وسلطانه الذي أعطاه الله ، كما قال ﷺ : « إنَّ الشَّيْطانَ يجري من إبن آدمَ مجْرى الدَّمِ » . والله أعلم .

وبكل حال : فإزلال إبليس آدم هو قوله : ﴿ هلْ أدُلُّكَ على شَجَرَةِ الخُلْدِ ومُلْكٍ لا يَبْلى ﴾ [1] . وقوله : ﴿ ما نهاكُما ربُّكُما عنْ هذهِ الشَّجَرَة إلاَّ أن تكُونا مَلَكَيْنِ أوْ تكُونا منَ الخالدينَ ﴾ [2] . ومقاسمته إياهما بقوله : ﴿ إنِّي لَكُما لمنَ النَّاصحين ﴾ [3] قال : فالأكثرون على أن ذلك كان بالمشاهدة ، ومنهم من قال : كان كما قال : ﴿ فَوَسْوسَ لهُما الشَّيْطانُ ليُبْدي لهُما ما وُوريا ﴾ [4] . وأيدوا ذلك بأنه كيف يقبل آدم مع كمال عقله من إبليس ومعرفته بعداوته . وقال سبحانه حكاية عنه في وسوسته لهما في سورة الأعراف : (فوسوس لهما الشيطان) قيل : دخل الجنة بإدخال الحية إياه ، وقيل : من خارج بالسلطنة التي جعلت له ليبدي لهما ما ووري ، أي : ستر عنهما من سوآتهما ، والمراد الفرج . فقيل : إنما بدت سوآتهما لهما لا لغيرهما كان عليهما نور لا ترى عوراتهما ، فزال النور ، وقيل الثوب ، فتهافت قوله تعالى : وقال ﴿ ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين ﴾ . ذكر إبليس للنهي أمرين :

أحدهما : أن الله إنما نهاهما عن أكل الشجرة إلا كراهية أن يكونا ملكين يعلمان الخير والشر ، أو ملكين لا يكون لهما شهوة للطعام والشراب ، أو ملكين في الصورة والأجنحة والكرامة .

وقرأ ابن عباس وجماعة : « ملكين » بكسر اللام . وأنكر أبو عمرو بن العلاء هذه القراءة وقال : لم يكن قبل آدم ملك فيصيرا ملكين . قال ابن عباس : أتاهما الملعون من جهة الملك ولهذا قال : (هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى) . وزعم أبو عبيدة أن الاحتجاج بقوله (وملك لا يبلى) حجة بيِّنة ولكن الناس على تركها فلهذا تركناها .

---

(١) سورة طه ، الآية : ١٢٠ .
(٢) سورة الأعراف ، الآية : ٢٠ .
(٣) سورة الأعراف ، الآية : ٢١ .
(٤) سورة الأعراف ، الآية : ٢٠ .

قلت : ويمكن الجمع بأن آدم رأى أن الملائكة لها ملك التدبير ، فإن الله سبحانه جعل للملائكة تصرفاً في العالم ، وكذا رأى لها تصرفاً في أمور الجنة فأراد ذلك ، فدخل عليه إبليس من هذه الجهة .

الأمر الثاني : أنه غرهما بالخلد وأن الله إنما نهاهما عن الأكل من الشجرة مخافة الخلد ، فإنها شجرة الخلد ولعل آدم عليه السلام فهم من قوله تعالى : ﴿ اسكن أنت وزوجك الجنة﴾ . أن الاسكان لا يقتضي الدوام ، فاما أسكنها ورأى ما فيها تمنى الخلد ، فقال له إبليس : هذه شجرة الخلد إن أكلت منها خلدت في الجنة ، فدخل عليه من الشهوة والحرص .

وقد قال بعض الحكماء ، فيما نقل عن ابن عباس أو غيره من السلف : أن إبليس عرض نفسه على دواب الأرض أن تحمله فتدخله الجنة ليكلم آدم ، فأبت عليه الدواب حتى كلّم الحية ، فجعلته بين نابين من أنيابها ، فأدخلته الجنة ليكلم آدم ، من فيها ، فلذلك أمر الانسان بقتلها فقوله : عرض نفسه على دواب الأرض ؟ أي استعان بقوى الانسان ، فلم يجد قوة يستعين بها حتى أتى الحية . أي الشهوة ، وكني بالحية عن الشهوة ، كأنها حية لا يبرأ سليمها ، وذلك أن الشيطان لا يأتي ابن آدم إلا من قبل هواه ، فجعلته بين نابيها : كناية عن الأكل إذ هو أعظم شهوة يتمكن بها الشيطان من الانسان . وقوله : فلذلك أمر الانسان بقتلها . أي أُمر أن يقهر الشهوة ويذللها ، وهذا الذي ذكره هذا الحكيم ، وإن كان صحيحاً إلا أنه ترك لظاهر الخبر ، وفتح باب التأويلات . واعلم أن الحية مناسبة لما غر به إبليس لآدم ، فإن الحية لا تموت .

قال الأصمعي : الحية لا تموت لأنها حية . أبداً لا تموت حتى يشدخ رأسها . ذكره أبو الشيخ الحافظ في كتاب النوادر ، فلما جاءه بالحية يذكره بالحياة ، ومعنى الحية مخلدة لا تموت .

فصل

في كيفية خروج آدم من الجنة :

آدم عليه السلام لم يخرج من الجنة إلا بالتأويل ، فالتأويل لنص الله أخرجه ، وإلا فهو لم يقصد المعصية والمخالفة ، وأن يكون ظالماً مستحقاً للشقاء . واختلف الناس في وجه تأويله ، وكيف أكل من الشجرة مع اقتران النهي بالوعيد . ﴿ لا تأكلا منْ هذه الشّجرة فتكُونا منَ الظّالمينَ ﴾ (١) . فقالت طائفة : أكلا من غير المشار اليه ولم يريا النهي واقعاً على الجنس ، وعبر إبليس بالظاهر ، فإن لفظة هذا يشار بها إلى الشخص ، ويشار بها إلى الجنس كقوله ﷺ : « هذان حرامان على ذكور أُمّتي » . مشيراً إلى الذهب وإلى الحرير أراد الجنس ، فتأول آدم عليه السلام ، وحمل النهي المطلق على الشجرة المعينة ، وغره إبليس بأن تلك الشجرة شجرة الخلد ، كما لو قال الطبيب للمريض : لا تأكل هذا اللحم يشير إلى لحم بين يديه ، فأكل المريض من جنسه . ٧٨

قال ابن العربي : اتباع الظاهر أول معصية عصى الله بها على هذا القول . قال القرطبي . وهذا قول حسن ، وظنا أن المراد العين . أي الشجرة المعينة وكان المراد الجنس ، وهذا القول مشهور عن المعتزلة وفيه نظر ظاهر ، فإن الله تعالى أخبر عن إبليس قال : ﴿ ما نهاكُما ربُّكُما عنْ هذه الشّجرة إلاّ أن تكُونا ملكين أو تكُونا منَ الخالدينَ ﴾ (٢) . فذكر لهما عدو الله الشجرة التي نهيا عنها ، إما بعينها وإما بجنسها ، وصرح لهما بأنها المنهي عنها ، ولو كان عند آدم أن المنهي عنه تلك الشجرة المعينة دون سائر النوع لم يكن عاصياً بأكله من غيرها ، ولا أُخرج من الجنة .

وقال ابن العربي : في هذا القول دليل على أن من حلف لا يأكل من هذا الخبز ، فأكل من جنسه حنث ، وأكثر العلماء قالوا : لا يحنث .

---

(١) سورة البقرة ، الآية : ٣٥ . الأعراف ، الآية : ١٩ .
(٢) سورة الأعراف ، الآية : ٢٠ .

وقال مالك وأصحابه : إذا اقتضى بساط اليمين تعين المشار اليه لم يحنث بأكل جنسه ، وإن اقتضى بساط اليمين أو سببها أو نيتها إليه حمل عليه وحنث بأكل غيره ، وعليه حملت قصة آدم عليه السلام لأنه نهي عن أكل شجرة معينة له وأريد به جنسها ، فحمل القول على اللفظ دون المعنى .

٧٩ - وقالت طائفة : تأول النهي على الندب كما في الحديث نهى النبي ﷺ عن الشرب قائماً . قال ابن العربي : وهذا وإن كان مسألة أصولية من أصول الفقه ، فقد سقط ذلك هنا لقوله : (فتكونا من الظالمين) فقرن النهي بالوعيد ، وكذلك قوله : ﴿ فلا يُخْرِجَنَّكُما منَ الجنّة فتَشْقى ﴾ (١) . وقال الراغب : نسي الوعيد المقترن به ، فلذلك حمله على الندب وهو معنى قوله : فنسي ، وحيث نهى الله عن الشيء . وقرّ بأنه لم يكن إلا للتحريم كقوله تعالى : ﴿ ولا تَقْربوا الزّنا ﴾ (٢) ، ﴿ ولا تَقْربوهنّ حتّى يَطْهُرنَ ﴾ (٣) . وقال ابن حزم : حمل الأمر على الندب والنهي على الكراهة يقع فيه الفقهاء والأفاضل كثيراً ، وهو الذي يقع من الأنبياء عليهم السلام ويؤاخذون به ، وعلى هذا السبيل أكل آدم من الشجرة ، ومعنى قوله : (فتكونا من الظالمين) أي ظالمين لأنفسكما ، والظلم في اللغة : وضع الشيء في غير موضعه فمن وضع الأمر والنهي في موضع الندب والكراهة فقد وضع الشيء في غير موضعه .

وقالت طائفة : كان سكران . قاله سعيد بن المسيب ويزيد بن قسيط وكانا يحلفان بالله أنه ما أكل من هذه الشجرة وهو يعقل. قال ابن العربي وهذا فاسد عقلاً ، لأن الأنبياء عليهم السلام بعد النبوة معصومون عما يؤدي إلى الاخلال بالفرائض واقتحام الجرائم .

وقالت طائفة : أكلها ناسياً ، ومن الممكن أنهما نسيا الوعيد على الأكل . قال القرطبي وهذا هو الصحيح . قال لاخبار الله تعالى حيث

---

(١) سورة طه ، الآية : ١١٧ .
(٢) سورة الاسراء ، الآية : ٣٢ .
(٣) سورة البقرة ، الآية : ٢٢٢ .

قال : ﴿ ولَقَدْ عَهِدْنا إلى آدمَ منْ قَبْلُ فَنَسِيَ ولَمْ نجدْ لَهُ عَزماً ﴾ [1] . ولكن لما كان الأنبياء عليهم السلام يلزمهم التيقظ والتحفظ لكثرة معارفهم وعلو منازلهم ، كان تشاغله عن تذكر النهي تضييعاً صار به مخالفاً .

قال أبو أُمامة : لو أن أحلام بني آدم منذ خلق الله الخلق إلى يوم القيامة وضعت في كفة ميزان ، ووضع حلم آدم في كفة أخرى لرجحهم ، وقد قال الله تعالى : ﴿ ولم نجد له عزماً ﴾ ، ويحتمل أن يخص من عموم كلام أبي أُمامة نبينا ﷺ فأنه كان أوفر الناس حلماً وعقلا . قال القرطبي : ويحتمل أن يخص منه الأنبياء عليهم السلام .

وقالت طائفة : تأول النهي على قربانهما معاً ، وعن أكلهما معاً لا عن أكل كل واحد منهما على انفراده ، وهذا ضعيف ، فإنه لا يفهم من قوله : ﴿ ولا تَقْربوا مالَ اليتيم ﴾ [2] . ﴿ ولا تَقْربوا الزِّنا ﴾ [3] . ونظيره النهي عن الاجتماع على ذلك دون الانفراد ، ويقال : أول من أكل من الشجرة حواء بإغراء إبليس لها وأن أول كلامه كان معها ، لأنها وسواس المخدة وهي أول فتنة دخلت على الرجال من النساء فقال : ما منعتما عن هذه الشجرة إلا أنها شجرة الخلد ، فلما قالت حواء لآدم أنكر عليها ، وذكر العهد فألح على حواء وألحت حواء على آدم إلى أن قالت : أنا آكل قبلك حتى إن أصابني شيء سلمت أنت ، فأكلت فلم يضرها ، فأتت آدم وقالت : كُلْ ، فإني أكلت فلم يضرني ، فأكل فبدت لهما سوآتهما ، وحصل في حكم الذنب لقوله تعالى : (ولا تقربا هذه الشجرة) فجمعهما في النهي فلذلك لم تنزل بهما العقوبة ، حتى وجد المنهي عنه منهما جميعاً ، وخفيت على آدم هذه المسألة ، ولهذا قال بعض العلماء : من قال لزوجتيه ، أو أمتيه : إن دخلتما الدار فأنتما طالقتان أو حرتان ، فأن الطلاق والعتق لا يقع بدخول إحداهما في أحد قولي العلماء ، واختاره بعض أصحابنا وابن القاسم المالكي .

---

(١) سورة طه ، الآية : ١١٥ .
(٢) سورة الاسراء ، الآية : ٣٤ .
(٣) سورة الاسراء ، الآية : ٣٢ .

قال بعض أصحابنا : لو قال : إن حضتما فأنتما طالقتان ، فحاضت إحداهما لم تطلق واحدة منهما ، وإن حاضتا طلقتا .

والقول الثاني في المسألة تعتق وتطلق التي دخلت وحدها ، لأن دخول كل واحدة منهما شرط في طلاقها أو عتقها ، واختاره أشهب المالكي ، وهو نظير ما قاله أصحابنا في التدبير .

قال أحمد في عبد بين رجلين قالا له : إذا متنا فأنت حر ، ثم مات أحدهما عتقت حصته فقط ، فجعل أحمد موت كل واحد منهما شرطاً في عتق حصته .

قال القرطبي : الصحيح القول الأول ، فأن النهي إذا كان معلقاً على فعلين لا تتحقق المخالفة إلا بهما ، فإنك إذا قلت : لا تدخلا الدار ، فدخل أحدهما ما وجدت الصفة فيهما لأن قوله تعالى : (ولا تقربا هذه الشجرة) نهي لهما . (فتكونا من الظالمين) جوابه ، فلا تكونا من الظالمين حتى تفعلا ، فلما أكلت لم يصبها شيء ، لأن المنهي عنه ما وجد كاملا وخفي هذا المعنى على آدم ، فطمع ونسي هذا الحكم وهو معنى قوله تعالى : ﴿ ولَقَدْ عَهِدنا إلى آدمَ منْ قَبْلُ فَنَسِيَ ﴾[1] وقيل : نسي . قوله : ﴿ إنّ هذا عَدُوٌّ لكَ ولزَوجك فَلا يُخْرجنّكما مِنَ الجنّةِ فَتَشْقى ﴾[2] .

قال بعض السلف ، قال آدم عليه السلام : مما يفضل به ابنه صاحب البعير ﷺ أن زوجته كانت له عوناً على تبليغ أمر الله ، وأن زوجتي كانت عوناً لي على المعصية .

وقال أبو محمد ابن حزم في الملل والنحل : لا براءة من المعصية أعظم من حال من ظن أن أحداً لا يحلف حانثاً ، وهكذا فعل آدم عليه السلام ، فإنه أكل من الشجرة التي نهاه الله عنها ناسياً لنص القرآن ومتأولا وقاصداً إلى الخير ، لأنه قدر أنه يزداد حظوة عند الله فيكون ملكاً مقرباً أو خالداً فيما هو فيه أبداً ، فأداه ذلك إلى خلاف ما أمر الله

---

(١) سورة طه ، الآية : ١١٥ . (٢) سورة طه ، الآية : ١١٧ .

به ، وكان الواجب أن يحمل أمر ربه على ظاهره ، ولكن تأول وأراد الخير فلم يصبه ، ولو فعل هذا عالم من علماء المسلمين لكان مأجوراً ، ولكن آدم لما فعل وأخرج عن الجنة إلى الدنيا كان بذلك ظالماً لنفسه ، وقد سمى الله قاتل الخطأ قاتلا كما سمى العامد والمخطىء يتعمد معصية ، وجعل في قتل الخطأ عتق رقبة ، وهو لم يعمد ذنباً انتهى . فلعله يشير إلى ما قاله بعض المتقدمين ، إن حسنات الأبرار سيئات المقربين ، فالنص وإن شهد عليه لم يخل بماضيه بل قد تلافاه واجتباه وهداه ومدحه وزكاه واختاره واصطفاه .

قال شيخ الإسلام تقي الدين ابن تيمية ، وجماعة من المتأخرين : الصواب أن آدم عليه السلام لما قاسمه عدو الله أنه ناصح ، وأكد كلامه بأنواع من التأكيدات . أحدهما : القَسَم ، والثاني : الاتيان بجملة اسمية لا فعلية ، والثالث : تصديرها بأداة التأكيد ، والرابع : الإتيان بلام التأكيد في الخبر ، والخامس : الاتيان به اسم فاعل لا فعلاً دالاً على الحدث . والسادس : تقديم المعمول على القليل فيه ، ولم يظن آدم أن أحداً يحلف بالله كاذباً يمين غموس ، فظن صدقه ، وأنه أن أكل منها لم يخرج من الجنة ، ورأى أن الأكل منها لم يخرج من الجنة ، ورأى أن الأكل وإن كان فيه مفسدة فمصلحة الخلود أرجح ، ولعله يتأتى له استدراك مفسدة اليمين في أثناء ذلك باعتذار أو توبة كما تجد هذا التأويل في نفس كل مؤمن أقدم على معصية .

فصل

ولاَمَ موسى عليه السلام آدم على أكله من الشجرة وتحاجا في ذلك كما في الصحيحين وغيرهما قال النبي ﷺ : فحج آدم موسى وفيه كلام طويل . قال رقبة بن مصقلة : مررت بقصَّار يلوي ثوباً في يوم شديد البرد ، فقلت ما صنعت بكم الشجرة ؟ فقال لي : ليتها لم تخلق . فما رأيت أحداً أسرع جواباً منه .

فصل

ونظير هذه القصة وتأويل الناس لها قصته مع داود عليهما السلام ولم نجد من تأولها ووجهها . قال أبو داود الطيالسي في مسنده : حدثنا حماد بن سلمة ، عن علي بن زيد ، عن يوسف بن مهران ، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ في قول الله عز وجل: ﴿يا أيُّها الّذينَ آمنُوا إذا تَداينْتُم بدينٍ إلى أجلٍ مُسمّى فاكْتبوه﴾ [1] . أن أول ما جحد آدم عليه السلام أن الله تعالى أراه ذريته ، فرأى رجلاً أزهر ساطعاً نوره ، فقال يارب ! من هذا ؟ قال : هذا ابنك داود . قال يارب ! فما عمره ؟ قال : ستون سنة . قال يارب ! زد في عمره . قال : لا . إلا أن تزيده من عمرك . قال : وما عمري ؟ قال : ألف سنة . قال آدم : قد وهبت له أربعين سنة . قال : وكتب الله سبحانه وتعالى كتاباً وأشهد عليه ملائكته ، فلما حضره الموت وجاءته الملائكة قال : إنه قد بقي من عمري أربعون سنة . قالوا : إنك قد وهبته لابنك داود قال: ما وهبت لأحد شيئاً . قال : فأخرج الله تعالى الكتاب وشهد عليه ملائكته .

ورواه الإمام أحمد في مسنده : حدثنا أسود بن عامر ، عن حماد ابن سلمة ، فذكره ، وزاد فيه ، فأتمها الله لداود مائة سنة ، وأتمها لآدم ألف سنة . ورواه الحاكم بنحوه من حديث أبي هريرة وخطر لي فيه تأويلان :

أحدهما : أن يقال قد ينزل هذا على الرجوع في الهبة ، فإن قوله ﷺ : « لا يحل لواهبٍ أن يرجعَ في هبته إلا الوالد » . قد ذهب طائفة من العلماء إلى الجد له الرجوع في هبته من ولد ولده وآدم جد داود ، فله أن يرجع فيما وهب من ولد ولده . وبه قال الشافعي ، وابن عبد الحكم ، وأصحابنا في وجه أو رواية مخرجة عن الإمام أحمد وغيرهم .

التأويل الثاني : أكثر العلماء على أن القبض معتبر في باب الهبة ، ولكن هل هو ركن في صحة الهبة أو شرط في لزومها ؟ فيه خلاف .

---

(١) سورة البقرة ، الآية : ٢٨٢ .

وقد قال زفر ، والقاضي أبو يعلى ، والغزالي وغيرهم : أن القبض ركن في صحة الهبة ، فعلى قولهم لم يصدر هبة أصلا وعلى قول الآخرين صدرت هبة غير لازمة ، فساغ لآدم عليه السلام ما فعل بداود اتباعاً لما شرعه ولد ولده محمد ﷺ .

وقد اتفق الخلفاء الراشدون ، أبو بكر الصديق ، وعمر بن الخطاب ، وعثمان بن عفان ، وعلي بن أبي طالب رضي الله عنهم : على أن الهبة لا بد فيها من القبض ، فهذان وجهان حسنان في تأويل فعل آدم مع داود عليهما السلام ، ولهذا أعطى أكرم الأكرمين سبحانه آدم عليه السلام أجله كاملا ولم ينقص منه بهبته شيئاً ، لأنه لم يصدر منه أمر يقتضي نقصانه ، وأعطى داود مائة كاملة تفضلا وتكرماً كما دل على ذلك رواية أحمد الزائدة على ما في مسند الطيالسي .

فصل

في بكاء آدم لخروجه من الجنة :

قال تعالى : ﴿ فَتَلَقَّى آدمُ منْ ربِّه كَلِماتٍ فَتَابَ عليْهِ إنّه هُوَ التّوابُ الرّحيم ﴾ (١) .

وقد اختلف الناس في هذه الكلمات بعد اتفاقهم على أنها اعتذار من آدم ، فقال سعيد بن جبير ، ومجاهد ، والحسن هي قوله : ﴿ ربّنا ظَلَمْنا أنْفُسنا وإنْ لَمْ تغْفُرْ لنا وتَرْحَمْنا لنَكُونَنّ منَ الخاسرين ﴾ (٢) وقال محمد بن كعب القرظي قوله : لا إله إلا أنت سبحانك وبحمدك رب عملت سوءاً وظلمت نفسي فاغفر لي إنك أنت الغفور الرحيم . وقال عبيد بن عمير : هي أن آدم قال : يارب ! أرأيت ما أتيت شيء ابتدعته من تلقاء نفسي ، أم شيء قدرته علي قبل أن تخلقني ؟ قال : لا ، بل شيء قدرته عليك قبل أن أخلقك . قال يارب ! فكما قدرته عليّ فاغفر لي ، وقيل : هي ثلاثة أشياء : الحياء والبكاء والدعاء .

---

(١) سورة البقرة ، الآية : ٣٧ .
(٢) سورة الأعراف ، الآية : ٢٣ .

قال ابن عباس : بكى آدم وحواء على ما فاتهما من نعيم الجنة مائتي سنة ، ولم يأكلا ولم يشربا أربعين يوماً ، ولم يقرب آدم حواء مائة سنة ، وقال علقمة بن مرثد وغيره : لو أن دموع أهل الأرض جمعت لكانت دموع داود أكثر منهم . ولو أن دموع داود ودموع أهل الأرض جمعت لكانت دموع آدم أكثر حين أخرجه الله من الجنة .

قال شهر بن حوشب : بلغني أن آدم لما هبط إلى الأرض بقي ثلاثمائة سنة لا يرفع رأسه إلى السماء حياء من الله سبحانه وتعالى ، وقيل : هذه الكلمات هي المذكورة في قصة إبراهيم : ﴿ وإذِ ابْتَلى إبراهيمَ ربُّهُ بكَلِماتٍ فأتمّهُنّ ﴾ (١) . وهي خصال مذكورة في ثلاث مواضع من القرآن .

أحدها : في سورة التوبة : ﴿ التّائبونَ العَابدُونَ الحامدُونَ السّائحُونَ الرّاكعونَ السّاجدونَ الآمرُونَ بالمعْروف والنّاهونَ عَنِ المُنْكر والحافِظُونَ لحُدودِ الله وبشِّر المؤمنينَ ﴾ (٢) .

الثاني : في قوله تعالى : ﴿ قَدْ أفْلَحَ المُؤمنونَ * الّذينَ هُم في صلاتهم خَاشِعونَ * والّذينَ هُم عَنِ اللّغو مُعْرضُون ﴾ إلى قوله : ﴿ أولئكَ هُمُ الوارثونَ * الّذينَ يَرِثُونَ الفِرْدوْسَ هُمْ فيها خالدونَ ﴾ (٣) .

والثالث : في سورة سأل سائل ، وهي قوله : ﴿ إلاّ المُصلّينَ * الّذينَ هُمْ على صَلاتهم دائمُون ﴾ إلى قوله : ﴿ أولئك في جنّات مكرمون ﴾ (٤) . فهذه خصال لثلاث فرق من العلماء والحكماء والكبراء المرادين بقوله ﷺ : « سَائِلِ العُلماء وخالِط الحكماء وجالس الكبراء » . قال : ولكل فرقة مقامات معدودة يترتب بعضها على بعض .

---

(١) سورة البقرة ، الآية : ١٢٤ .
(٢) سورة التوبة ، الآية : ١١٢ .
(٣) سورة المؤمنون ، الآيات : ١ — ١١ .
(٤) سورة المعارج ، الآيتان : ٢٢ ، ٢٣ .

فصل

في توبة آدم عليه السلام ودعائه إلى الله سبحانه وتعالى :

واختلف الناس . هل تلقى آدم هذه الكلمات في الأرض أو تلقاها في الجنة على قولين :

أحدهما : أنه تلقاها من الله سبحانه وهو في الجنة ، وقَبِلَ الله سبحانه توبته وهو في الجنة . قال القرطبي لم يكن إخراج آدم من الجنة وإهباطه منها عقوبة له لأنه أهبطه بعد أن تاب عليه وقَبِلَ توبته ، وإنما أهبطه تائباً إظهاراً للخلافة التي خلقه لها ، وليكلف أولاده ، ويترتب على ذلك ثوابهم وعقابهم ، والجنة والنار ليستا بدار تكليف .

والقول الثاني : أن تلقيه الكلمات وتوبته واعتذاره كان في الدنيا ، وهذا هو المشهور .

وعن عائشة رضي الله عنها قالت : لما أراد الله أن يتوب على آدم طاف بالبيت سبعاً ، والبيت يومئذ ربوة حمراء ، فلما صلى ركعتين استقبل البيت وقال : « اللهم إنك تعلم سري وعلانيتي فاقبل معذرتي ، وتعلم حاجتي فاعطني سؤالي ، وتعلم ما في نفسي ، فاغفر لي ذنوبي . اللهم إني أسألك إيماناً يباشر قلبي ، ويقيناً صادقاً ، حتى أعلم أنه لن يصيبني إلا ما كتبت لي والرضا بما قضيت عليَّ » ، فأوحى الله اليه . يا آدم ! قد دعوتني بدعوات ، فاستجبت لك ولن يدعوني بها أحد من ولدك إلا كشفت همومه وغمومه وكففت عليه ضيعته ،ونزعت الفقر من قلبه ، وجعلت الغنى بين عينيه ، وأتجرت له من وراء تجارة كل تاجر ، وأتته الدنيا وهي راغمة وإن كان لا يريدها .

وذكر الأزرقي في تاريخ مكة شرفها الله نحوه، ولم يذكر عن عائشة . وكتب عمر بن عبد العزيزَ رحمه الله إلى البلدان يأمرهم أن يقولوا كما قال أبوهم آدم عليه السلام : ﴿ ربّنا ظَلَمْنا أنْفُسَنا وإنْ لَمْ تَغْفِرْ

لنا وتَرْحَمْنا لَنَكونَنّ منَ الخاسرينَ ﴾ [1] . وكما قال نوح عليه السلام : ﴿ وإلاّ تَغْفِرْ لي وترْحمْني أكُنْ منَ الخاسرين ﴾ [2] ، وكما قال يونس عليه السلام : ﴿ فَنَادى في الظُّلماتِ أنْ لا إله إلاّ أنْتَ سُبْحانك إنّي كُنْتُ منَ الظّالمينَ ﴾ [3] . وكما قال موسى عليه السلام : ﴿ ربِّ إنّي ظَلَمْتُ نفْسي فاغْفِرْ لي فَغَفَرَ لَهُ إنّه هوَ الغفور الرّحيم ﴾ [4] .

وذكر أبو القاسم ابن عساكر ، عن ابن مسعود أن إدريس عليه السلام كان يدعو بدعوة يأمر أن لا يعلموها السفهاء : « ياذا الجلال والإكرام ، ياذا الطول لا إله إلا أنت ظهر اللاجين وجار المستجيرين وأنيس الخائفين إني أسألك إن كنت في أم الكتاب شقياً أن تمحو من الكتاب شقائي وتكتبني عندك سعيداً » .

قالت زينب بنت عقيل :

ماذا تقولون إن قال النبي لكم ... ماذا فعلتم وأنتم آخر الأمم ؟
بأهل بيتي وأنْصاري وذريّتي ... منهم أسارى وقتلى ضُرِّجوا بدمِ
ما كان هذا جزائي إذ نصحْتُ لكم ... أنْ تخلفوني بسوء في ذوي رحمي

فقال أبو الأسود الديلي : نقول : ﴿ ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين ﴾ .

فصل

في وسوسة إبليس لآدم وحواء في تسمية ولدهما :

وأما قصة الأبوين مع إبليس في تسمية الولد ، فأعجب من الأكل من الشجرة . قال تعالى : ﴿ هُوَ الذي خَلَقَكُم منْ نَفْسٍ واحدة وجَعَلَ منْها زوجها ليَسْكُنَ إليْها فلمّا تَغَشّاها حَمَلَتْ حَمْلاً خفيفاً فمرّتْ به فلمّا أثْقَلَتْ دعَوا الله ربّهُما لئِنْ آتَيْتنا صالحاً

---

(١) سورة الأعراف ، الآية : ٢٣ .
(٢) سورة هود ، الآية : ٤٧ .
(٣) سورة الأنبياء ، الآية : ٨٧ .
(٤) سورة القصص ، الآية : ١٦ .

لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ * فلمّا آتاهُما صالحاً جَعَلا له شُركاء فيما آتاهُما فتعالى اللهُ عمّا يُشْرِكون ﴾ (١) .

وقد قال المفسرون : أن حواء لما حملت من آدم أتاهما الشيطان ، فقال : هل تدريان ما يولد لكما بهيمة ؟ إن لم تسمياه بي لم يخرج سوياً فسميا ولدهما عبد الحرث ، وكان سميا ولديهما عبد الله وعبيد الله ، فقبضهما الموت ، فقال لهما إبليس : لو سميتماه بغير هذا الاسم لعاش فسمياه عبد الحرث ، وهذا الأثر : قاله ابن عباس وتلقاه عنه أصحابه مجاهد ، وسعيد بن جبير ، وعكرمة ، وتبعهم المفسرون .

والجواب عن ذلك : أن هذا المعنى مأخوذ عن أهل الكتاب ، وابن عباس أخذه عن أبيّ بن كعب ، وأخبار أهل الكتاب ثلاثة أقسام : ما علم صحته ، وما علم كذبه ، ومسكوت عنه في الكتاب والسنة . وقوله ﷺ : « حدّثوا عنْ بني إسْرائيل ولا حَرَج » هو المسكوت عنه . وهذا الأثر المنقول عن ابن عباس هو من القسم الثاني الذي قد علم كذبه ، والمفسرون يرون أنه من القسم الثالث ، وفيه نظر ، والمختار عندنا أن المراد من سياق الآية . المشركون من ذرية آدم لا آدم وحواء ولهذا قال تعالى : ﴿ فتَعالى اللهُ عمّا يُشْرِكون ﴾ (٢) .

وقد صح هذا التفسير صريحاً عن الحسن . قال الحسن : جعلا له شركاء فيما آتاهما . قال : كان هذا في بعض أهل الملل ، ولم يكن لآدم . وفي رواية عنه ، كأنهم اليهود والنصارى رزقهم الله أولاداً فهودوا ونصّروا ، وعلى هذا تكون الآية الكريمة على حذف مضاف وإقامة المضاف اليه مقامه ، والتقدير شركاء فيما أتى أولادهما واعترض على هذا بأن قوله : ﴿ فلمّا آتاهُما صالحاً جَعَلا له شركاء ﴾ (٢) . يقتضي أنه جعل الشركاء حين آتاهما صالحاً ، ولا شك أن جعل الأولاد ليس في ذلك الحين ، ولصحة هذا التفسير عن الحسن علمنا أن الحديث المرفوع في هذا الباب ليس بصحيح .

---

(١) سورة الأعراف ، الآيتين : ١٨٩ ، ١٩٠ .
(٢) سورة الأعراف ، الآية : ١٩٠ .

قال الامام أحمد : حدثنا عبد الصمد ، حدثنا عمر بن إبراهيم ، حدثنا قتادة ، عن الحسن ، عن سمرة أن النبي ﷺ قال : « لما ولدت حوّاء طافَ بها الشّيطان وكانَ لا يعيشُ لها ولد فقال : سمّيه عبد الحارث فإنّه يعيش ، فسمته عبد الحارث ، فعاش وكان ذلك من وحي الشيطان ». رواه الترمذي والحاكم ، وقال صحيح الإسناد . قلنا : معلول لأن عمر بن إبراهيم فيه نظر ، ولأنه جاء موقوفاً على سمرة وهو أصح ، ولأن الحسن قرأ الآية لغير ذلك ، ولو كان عنده مرفوعاً لما عدل عنه وهذا مخالف للقرآن في قوله تعالى : ﴿ فَبَعَثَ اللهُ غُراباً يَبْحثُ في الأرضِ ليُريَه كيْفَ يُواري سوأةَ أخيه ﴾ (١) ، فلو صح هذا الحديث لكان قد علم كيف يواري سوأة أخيه ، ولم يحتج إلى الغراب ،

ولما تكلم في الآية طائفة من المتكلمين أجابوا عنها بجواب فيه نظر. قالوا : هذه الآية مشكلة لأن هذه الفتن أقدمت على الشرك كما قال: ﴿ فلمّا آتاهُما صالحاً جعَلاَ لهُ شُركاء فيما آتاهُما فتَعالى اللهُ عمّا يُشْركونَ ﴾ (٢) . والشرك لا يليق بآدم ، فقال المحققون منهم الواحدي: المراد من هذه الفتن قصي بن كلاب ، والشرك الصادر منه هو أنه سمى أولاده عبد مناف ، وعبد العزي ، وعبد قصي ، وعبد الدار ، والله أعلم، فيكون الخطاب في الآية الكريمة لقريش الذين كانوا في عهد رسول الله ﷺ وهم آل قصي إلى قوله في قصة أم معبد .

فيَا لِقصيَ ما زوى اللهُ عنْكُمُ بهِ منْ فخارٍ لا يُبارى وسؤدُد

وكيف يصح التفسير الأول ، وهو سبحانه وتعالى حكى عنهما التوبة من أكل الشجرة ، ولم يحكِ عنهما في هذا توبة ، فلو كان صدر ذلك من آدم وحواء ، لكانا قد تابا ، وكيف يجري لهما مع إبليس ماجرى، ثم يعود لهما ويطلب منهما هذا المعنى الذي هو أعظم ويطيعانه في ذلك . وفي ألفاظ المفسرين هنا عجائب ، كقولهم : أن إبليس قال لحواء :

---

(١) سورة المائدة ، الآية : ٣١ .
(٢) سورة الأعراف ، الآية : ١٩٠ .

إن لم تطيعيني لأجعلن له قرني إيل ، فإذا خرج شقك ، وقال الثعلبي ، قال المفسرون : المراد بالشرك المضاف اليهما الشرك في التسمية والصفة لا في العبادة والربوبية ، وقيل : قصد أن الحارث كان سبب نجاة الولد وسلامة أمه ، كقولهم : عبد الضيف على جهة الخضوع . قال حاتم :

وإنِّي لَعَبْد الضيف ما كان ثاوياً وما فيَّ إلاَّ تيك من شيمة العبدِ

الفصل الثالث :

هل للشيطان سلطان على بني آدم أم لا

قال الله تعالى في سورة الحجر : ﴿ إنَّ عبادي ليْسَ لكَ عَلَيْهم سُلْطانٌ إلاَّ مَنِ اتّبعكَ منَ الغاوين ﴾ (١) .وقد فسروا العباد هنا بالمطيعين وبالمعصومين ، والسلطان هنا : الحجة . أي ليس لك حجة في إغوائهم ، وقال أبو سليمان الدمشقي : هو القهر و الغلبة إنما له أن يغوي ويزين . قال تعالى في سورة النحل : ﴿ إنّه ليْسَ لهُ سُلْطانٌ على الّذينَ آمنُوا وعلى ربهم يتوكّلُون * إنما سُلْطانُه على الّذينَ يتولّونهُ والّذينَ هُم به مُشْركون ﴾ (٢) . فتضمن ذلك أمرين : أحدهما : نفي سلطانه وإبطاله على أهل التوحيد والاخلاص ، والثاني : إثبات سلطانه على أهل الشرك وعلى من تولاه .

فإن قيل : هذا يشكل بقوله تعالى في سورة سبأ : ﴿ ولَقَدْ صَدّقَ عَلَيْهم إبْليسُ ظنّهُ فاتّبعُوه إلاَّ فريقاً منَ المؤمنينَ * وما كانَ عَلَيْهم منْ سُلْطانٍ إلاَّ لنَعْلمَ منْ يؤمنُ بالآخرة ممّنْ هوَ منْها في شكٍّ وربُّك على كلِّ شيء حفيظ ﴾ (٣) . فقد نفى هنا أن يكون له سلطان عليهم ، وهو ينافي قوله إنما سلطانه على الذين يتولونه ، فما الجامع ؟

قلنا : إن كان الضمير في قوله : وما كان له عليهم من سلطان عائداً على المؤمنين ، فالسؤال ساقط ، ويكون الاستثناء منقطعاً . أي لكن

---

(١) سورة الحجر ، الآية : ٤٢ .
(٢) سورة النحل ، الآيتان : ٩٩ ، ١٠٠ .
(٣) سورة سبأ ، الآيتان ، ٢٠ ، ٢١ .

امتحانهم بإبليس لنعلم من يؤمن بالآخرة ممن هو منها في شك، وإن كان عائداً على ما عاد عليه في قوله ، ولقد صدق عليهم إبليس ظنه فاتبعوه ويكون المعنى وما سلطانه عليهم إلا لنعلم من يؤمن بالآخرة .

قال ابن قتيبة : إن إبليس لما سأل الله النظرة فأنظره قال لأغوينهم ولأضلنهم ولآمرنهم . ﴿ ولاتّخذنّ منْ عبادكَ نصيباً مفْروضاً ﴾ (١) وليس هو في وقت هذه المقالة يتيقن أن ذلك يتم له ، وإنما قاله ظاناً ، فلما اتبعوه وصدق عليهم ما ظنه فيهم ، فقال : ما كان تسليطنا إياه إلا لنعلم المؤمنين يعني نعلمهم موجودين ظاهرين ، فيحق القول ويقع الجزاء ، وحينئذ يكون السلطان ههنا على من لم يؤمن بالآخرة وشك فيها وهم الذين تولوه وأشركوا به ، فيكون السلطان ثابتاً لا منفياً ، فاتفقت الآيات .

قال ابن عقيل في الفنون : كانت قرائح للسلف موزعة بين توصل إلى علم أو جلب مال أو نفع أو دفع ضرر ، وأرى قرائح علماء زماننا ذوي أنساب وشباب ومشايخ لا تنصرف قرائحهم إلا في الأذى ، وفتح أبواب الشر ، فنعوذ بالله من هذا الزمان وأهله ، ولقد صدق عليهم إبليس ظنه فاتبعوه إلا فريقاً من المؤمنين وظنه قوله : ﴿ لأقْعدنّ لهم صراطَكَ المُستقيم ﴾ إلى قوله : ﴿ ولا تَجدْ أكثرهُم شاكرين ﴾ (٢) فهذا قاله ظناً ولا طريق إلى القطع ، وإنما ظن ذلك لأنه رأى أنه قد تم له على الأب الأول مع التزام الحق له فيه باسجاد المسبحين ووصية الله له . إن هذا عدو لك ولزوجك ، ثم أخرجهما فظن أنه يتملك نواصي الأولاد فاستدل بالأول .

فإن قيل : فما تصنع بقوله في سورة إبراهيم عن الشيطان حيث يقول لأهل النار : ﴿ وما كانَ لي عَلَيْكُم منْ سُلْطان إلاّ أنْ دَعَوتكُم فاسْتجَبْتُم لي ﴾ (٣) . وإن كان هذا قول الشيطان ، فقد أخبر الله عنه مقرراً لا منكراً ، فدل على أنه كذلك .

---

(١) سورة النساء ، الآية : ١١٨ .
(٢) سورة الأعراف ، الآية : ١٦ ، ١٧ .
(٣) سورة ابراهيم ، الآية : ٢٢ .

قلنا : السلطان المنفي في هذا الموضع هو الحجة والبرهان ، أي ما كان لي من حجة وبرهان احتج به عليكم ، كذا قال ابن عباس : إني ما أظهرت لكم حجة إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي وصدقتم مقالتي واتبعتموني بلا برهان ولا حجة ، وأما السلطان الذي أثبته في قوله : (إنما سلطانه على الذين يتولونه) ، فهو تسليطه عليهم بالاغواء والاضلال وتمكنه منهم بحيث يؤزهم إلى الكفر والشرك ويزعجهم إليه ، كما قال : ﴿ ألَمْ تَرَ إنّا أرسَلْنا الشّيَاطينَ على الكافرينَ تَؤُزُّهُمْ أزّاً ﴾[1] .

قال ابن عباس : تغريهم إغراء وتشليهم إشلاء ، وذلك أن الأز هو التحريك والتهييج ، ومنه يقال لغليان القدر أز ، لأن الماء يتحرك عند الغليان ، وقد جعل أبو عبيدة للأز على معنيين : أحدهما : التحرك ، والثاني : الإيقاد والالتهاب ، فهذا من السلطان الذي له على أوليائه ، وليس له ذلك سلطان وحجة وبرهان ، بل استجابوا له لما دعاهم لما وافق هواهم ، فهم الذين مكّنوا عدوّهم من سلطانه عليهم بمتابعتهم إياه ، فسلّط عليهم عقوبة لهم ، وبهذا يظهر معنى قوله : ﴿ ولنْ يجْعلَ اللهُ للكافرينَ على المؤمنين سبيلاً ﴾[2] . فالآية على عمومها وظاهرها ، وإنما المؤمنون يصدر منهم من المعصية والمخالفة التي تضاد الايمان ما يصير للكافرين سبيلا عليهم بحسب تلك المخالفة ، وهم الذين تسببوا إلى جعل السبيل عليهم كما تسببوا يوم أُحد بمعصية الرسول ﷺ ومخالفته ، والله سبحانه وتعالى لم يجعل للشيطان على العبد سلطاناً حتى جعل له العبد سبيلا بطاعته ، فجعل الله حينئذ له عليه سلطاناً وقهراً ، فمن وجد خيراً فليحمد الله ، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه ، واسم العبد يتناول معنيين .

أحدهما : بمعنى العابد كرهاً ، كما قال : ﴿ إنْ كلُ مَنْ في السّمواتِ والأرضِ إلاّ أتي الرّحمن عبْداً ﴾[3] . وقال : ﴿ وله أسْلمَ مَنْ في السّمواتِ والأرضِ طوْعاً وكَرْهاً ﴾[4] .

---

(١) سورة مريم ، الآية : ٨٣ .
(٢) سورة النساء ، الآية : ١٤١ .
(٣) سورة مريم ، الآية : ٩٣ .
(٤) سورة آل عمران ، الآية : ٨٣ .

والثاني : بمعنى العابد وهو الذي يعبده ويستعينه ، وهو المذكور في قوله تعالى : ﴿ وعبادُ الرّحمن الّذينَ يمْشُونَ على الأرضِ هوناً ﴾[1] وقوله : ﴿ إنّ عبادي ليسَ لكَ عليْهم سُلْطان ﴾[2] . وهذه العبودية قد يخلو الإنسان منها تارة فيتسلط عليه الشيطان ، وأما الأولى فوصف لازم ، فإن جريان القدر عليه وتصريف الخالق له وفقر المخلوق وحاجته أمر ذاتي لا وجود له بدون ذلك ، فالتوكل والتوحيد والإخلاص يمنع سلطانه ، لكن قد يخلو الانسان من هذه العبودية والشرك وفروعه ، وما يوجب سلطانه والجميع بقضاء من أزمة الأمور بيديه ومردها إليه ، وله الحجة البالغة ، ولو شاء لجعل الناس أمة واحدة ، ولكن أبت حكمته وحمده وملكه إلا ذلك . ﴿ فللّه الحمدُ ربِّ السّموات وربِّ الأرض ربِّ العالمين * ولَهُ الكبرياء في السّموات والأرْضِ وهُو العزيزُ الحكيم ﴾[3] قال عمر بن عبد العزيز : لو أراد الله أن لا يعصى لما خلق إبليس .

فإن قيل : إذا لم يكن للشيطان سلطان على المطيعين ولا المؤمنين ولا أهل العصمة ، فكيف تنزيل قصة آدم وحواء وتنزيل قصة موسى ؟ قال الإمام أحمد في الرد على الجهمية ، قال الزنادقة : هذا تناقض لقوله عن موسى حين قتل النفس ، هذا من عمل الشيطان ، وحديث الوادي الذي نام فيه النبي ﷺ عن زيد بن أسلم قال : عرّس رسول الله ﷺ ليلة بطريق مكة ووكّل بلالاً يوقظهم للصلاة ، فرقد بلال ورقدوا حتى استيقظوا ، وقد طلعت عليهم الشمس ، فاستيقظ القوم وقد فزعوا ، فأمرهم رسول الله ﷺ أن يركبوا حتى يخرجوا من ذلك الوادي ، وقال : هذا واد فيه الشيطان ، فركبوا حتى خرجوا من ذلك الوادي ، ثم أمرهم النبي ﷺ أن ينزلوا وأن يتوضؤا ، وأمر بلالاً أن ينادي بالصلاة ، فصلى رسول الله ﷺ بالناس ، ثم انصرف وقد رأى من فزعهم فقال أيها الناس : « إن الله قبض أرواحنا ولو شاء لردها إلينا في حين غير هذا ، فإذا رقد أحدكم عن الصلاة أو نسيها ثم فزع إليها

---

(١) سورة الفرقان ، الآية : ٦٣ .
(٢) سورة الحجر ، الآية : ٤٢ . الإسراء ، الآية : ٦٥ .
(٣) سورة الجاثية ، الآيتان : ٣٦ ، ٣٧ .

فليصلها كما كان يصليها في وقتها » .ثم التفت رسول الله ﷺ إلى أبي بكر الصديق فقال : « إن الشيطان أتى بلالاً وهو قائم يصلي فأجمعه ثم لم يزل يهديه كما يهدي الصبي حتى نام » ثم دعا رسول الله ﷺ بلالا فأخبر بلال رسول الله ﷺ مثل الذي أخبر رسول الله ﷺ أبا بكر ، فقال له أبو بكر رضي الله عنه : أشهد أنك رسول الله .

رواه مالك في الموطأ مرسلا ، وقد جاء في المسند والصحيحين والسنن حديث الوادي هذا على وجوه ، وهذا لفظ يناسب لمعنى الآية الكريمة ، وقال تعالى عن نفر من أصحاب رسول الله ﷺ : ﴿ إنما استزلهم الشّيطان ببعضِ ما كَسَبُوا ﴾ [1] .

قلنا : معنى الآية عند أهل العلم : ليس له سلطان على قلوبهم ولا مواضع إيمانهم . قال الثعلبي قال أهل المعاني معنى قوله : (ليس لك عليهم سلطان) تلقيهم في ريب يضيق عنه عفوي .قال القرطبي : ويحتمل أن قوله (ليس لك عليهم سلطان) خاص بمن حفظ الله ويحتمل أن يكون في أكثر الأوقات والأحوال ، وقد يكون في تسليطه تفريج كربة وإزالة غمة كما فعل ببلال رضي الله عنه ، فأتاه يهديه كما يهدي الصبي حتى نام ونام النبي ﷺ وأصحابه ، فلم يستيقظوا وفزعوا وقالوا : ما كفارة ما صنعنا ؟ فقال : ليس في النوم تفريط ففرج عنهم .

قال الامام أحمد في الرد على الجهمية : معنى الآية ليس لإبليس عليهم سلطان أن يضلهم في دينهم ، أو في عبادة ربهم ، ولكن يصيب منهم من قبل الذنوب لا في الشرك انتهى .

وقد سبق تفسير السلطان في الآية بالحجة وبالقدرة والصواب أن يقال : ليس له طريق يتسلط به عليهم لا من جهة الحجة ولا من جهة القدرة ، والقدرة داخلة في مسمى السلطان ، وإنما سميت الحجة سلطاناً ، لأن صاحبها يتسلط بها تسلط صاحب القدرة بيده وقوله : ﴿ إنّ عبادي

---

(١) سورة آل عمران ، الآية : ١٥٥ .

ليسَ لكَ عليْهم سُلْطانٌ ﴾ [1] . أخبار بتأييده تعالى عباده المؤمنين وحفظه إياهم وحراسته لهم من الشيطان الرجيم ، ولهذا قال : ﴿ وكفى بربِّك وكيلاً ﴾ [1] . أي حافظاً ومؤيداً وناصراً ونصيراً .

قال الإمام أحمد : حدثنا قتيبة ، حدثنا ابن لهيعة ، عن موسى بن وردان ، عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « إنّ المؤمنَ لينصي شيطانَهُ كما ينصي أحدكم بعيرَه في السفر » . قوله ينصي : أي يأخذ بناصيته ويقره . قوله : ﴿ إلاّ من اتّبعك منَ الغاوينَ ﴾ والغي : اتباع الهوى ، وقال تعالى في حق يوسف : ﴿ كذلك لنَصرفَ عنْهُ السُّوء والفَحْشاء إنّه منْ عبادنا المُخْلصينَ ﴾ [2] . فامرأة العزيز كانت مشركة ، فوقعت مع أنها متزوجة فيما وقعت فيه من السوء ، ويوسف عليه السلام مع غربته ومراودتها له واستعانتها عليه بالنسوة وعقوبتها له بالحبس على المعصية عصمه الله بإخلاصه لله تحقيقاً لقوله تعالى : ﴿ يُوسْوسُ في صدور النّاس ﴾ [3] . ولم يقل في قلوبهم. والصدر : هو ساحة القلب وبيته ، فمنه تدخل الواردات إليه فتجتمع في الصدر ، ثم تلج في القلب فهو بمنزلة الدهليز ، ومن القلب تخرج الأوامر والارادات إلى الصدر ثم تتفرق على الجنود ، ومن فهم هذا فهم قوله تعالى : ﴿ وليَبْتليَ اللهُ ما في صُدُوركُم ولِيُمحّصَ ما في قُلُوبكم ﴾ [4] . فالشيطان يدخل إلى ساحة القلب وبيته ، فيلقي ما يريد إلى القلب ، فهو يوسوس في الصدور ويوصله إلى القلب ، ولهذا قال : فوسوس له الشيطان ولم يقل فيه ، لأن المعنى أنه ألقى ذلك وأوصله إليه ، فدخل في قلبه ، والله أعلم .

---

(١) سورة الحجر ، الآية : ٤٢ ، الإسراء ، الآية : ٦٥ .
(٢) سورة يوسف ، الآية : ٢٤ .
(٣) سورة الناس ، الآية : ٥ .
(٤) سورة آل عمران ، الآية : ١٥٤ .

الفصل الرابع :

في التحصن من الشيطان بذكر الله تعالى

قال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ ﴾ (١) . وفي هذه الآية فوائد :

منها : أن أصل أمر المتقين السلامة منه ، وإن عرض طيف بعض الأحيان .

ومنها : (إذا مسهم) والمس : ملامسة من غير تمكن كالكفار ، فإن الشيطان يتجرأ عليهم ويختلس من قلوب المتقين المؤمنين حين تنام العقول الحارسة للقلوب ، فإذا استيقظوا انبعث من قلوبهم جيوش الاستغفار والذلة إلى الله تعالى والافتقار ، فاسترجعوا من الشيطان ما اختلسه وأخذوا منه ما افترسه .

ومنها : أنه أشار بالطيف إلى أنه لا يمكنه أن يأتي القلوب الدائمة المتيقظة ، إنما يأتي القلوب في حين منامها يرجو غفلتها ، ومن لا نوم له فلا طيف يرد عليه .

ومنها : أن الطيف لا ثبوت له بخلاف الوارد ، وذلك لا يضر لأنه شبه الطيف الذي في منامك فإذا استيقظت فلا وجود له .

ومنها : إنه قال (تذكروا) ولم يقل ذكروا إشارة إلى أن الغفلة لا يطردها الذكر من غفله القلب ، إنما يطرد التذكر والاعتبار لأن الذكر ميدانه اللسان ، والتذكر ميدانه القلب .

---

(١) سورة الأعراف ، الآية : ٢٠١ .

ومنها : أنه قال تذكروا حذف متعلقه ، ولم يقل تذكروا الجنة والنار والعقوبة لأن التذكر الماحي لطيف الهوى من قلوب المتقين على حسب مراتب المتقين ، ومرتبة التقوى يدخل فيها الأنبياء والرسل والصديقون والأولياء والصالحون والمسلمون ، فتقوى كل واحد على حسب مقامه ، فلو ذكر قسماً من أقسام التذكر لم يدخل فيه إلا أهل ذلك القسم .

ومنها : قوله سبحانه : (فإذا هم مبصرون) كأنه لم يذكر أعلى من ذلك منأ منه سبحانه عليهم ، كأنهم لما استيقظوا ذهبت سحابة الغفلة ، فأشرقت شمس البصيرة .

ومنها : التوسيع على المتقين لأنه لو قال : إن الذين اتقوا لا يمسهم طيف من الشيطان خرج كل أحد إلا أهل العصمة ، فأراد سبحانه أن يوسع دوائر رحمته .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « مَنْ قالَ لا إله إلاَّ الله وحْدَه لا شريكَ لَهُ لَهُ المُلك وله الحمد وهُوَ على كل شيء قدير في يوم وليلة مائة مرة كانت له عدل عشر رقاب وكُتِبَ له مائة حسنة ومُحِيَت عنه مائة سيئة وكانت له حرزاً من الشيطان يومه ذلك حتى يمسي ولم يأتِ أحدٌ بأفضل مما جاء به إلا رجل عمل أكثر منه » متفق عليه .

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « مَنْ قالَ إذا أصْبحَ لا إله إلاَّ الله وحده لا شريك له ، له المُلك ، وله الحمد وهو على كل شيء قدير مائة مرة كانت له عدل رقبة من وُلْدِ اسماعيل عليه السلام ، وكُتِبت له عَشْرُ حسناتٍ وحُطّ عنه عشر خطيئاتٍ ، وكان في حرزٍ من الشّيطان حتى يمسي وإنْ قالها إذا أمسى كان مثل ذلك حتى يصبح » . رواه أبو داود وابن ماجه باسناد جيد .

٢١ — وعن عطية ، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا خَرَجَ الرّجل من بيته ، فقال : بسم الله يقول الملك هديت ، فإذا قال لا حول ولا قوة إلاَّ بالله يقول الملك وقيت ،

فإذا قال : توكلت على الله يقول الملك : كفيت ، قال ، فيقول الشيطان عند ذلك كيف لنا بمن هدى ووقى وكفى » .

وعن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا خرج الرجلُ من منزله فقال بسم الله ، توكلت على الله ، ولا حول ولا قوة إلا بالله . قال الله تبارك وتعالى : هديت ووقيت وكفيت . قال ، فيلقى الشيطان الشيطان فيقول له : كيف لك برجل قد هدي وكفي ووقي » ؟ رواه الدينوري في كتاب المجالسة ، ومعناه رواه أبو داود ، والحديث رواه الخمسة إلا ابن ماجه ، ولفظهم يقال فعل ما لم يسم فاعله ، وفي حديث أبي سعيد قال الملك ، وفي هذا اللفظ قال الله عزوجل .

وقال أحمد : حدثنا هاشم بن القاسم ، حدثنا أبو جعفر الرازي ، عن عبد العزيز بن عمر بن عبد العزيز ، عن صالح بن كيسان ، عن عثمان رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « ما من خارجٍ يخرجُ من بيته يريدُ السّفر أو غيره ، فقال حين يخرج : بسم الله ، آمنتُ بالله اعتصمتُ بالله ، توكلتُ على الله ، لا حول ولا قوّة إلا بالله ، إلاّ رُزِقَ خير ذلك المخرج وصُرفَ عنه شر ذلك المخرج » .

وقد روى أحمد ، وأبو داود ، والترمذي وقال : حسن صحيح .

عن أبي مالك الأشعري رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إنّ اللهَ أمرَ يحيى بن زكريا بخمس كلماتٍ أنْ يعملَ بها ويأمرَ بني إسرائيل أن يعملوا بها » ، فذكر التوحيد والصلاة والصيام والصدقة ، ثم قال : « وآمركم أن تذكروا الله ، فإن مثل ذلك كمثل رجلٍ خرجَ العدو في أثره سراعاً حتى إذا أتى على حصن حصين ، فأحرز نفسه منهم كذلك العبد لا يحرز نفسه من الشيطان إلا بذكر الله » .

قال البخاري في الصحيح : قال عثمان بن الهيثم ، يعني : المؤذن ، حدثنا عوف ، عن محمد بن سيرين ، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : أمرني رسول الله ﷺ أن أحفظ زكاة رمضان ، فأتاني آتٍ في جوف الليل ، فجعل يحثو من الطعام ، فأخذته فقلت : لارفعنك إلى رسول

الله ﷺ فقال : دعني ، فإني محتاج ، فخليت سبيله ، فقال النبي ﷺ بعدما صلى الغداة : يا أبا هريرة ! ما فعل أسيرك البارحة أو الليلة ؟ فقلت : يارسول الله ! شكا حاجة فخليت سبيله ، وزعم أنه لا يعود قال : أما أنه قد كذبك وسيعود . قال : فرصدته وعلمت أنه سيعود لقول رسول الله ﷺ قال : ثم أتى فجعل يحثو من الطعام ، فأخذته، فشكا حاجة ، فخليت عنه ، وزعم أنه لا يعود، فقال : أما إنه قد كذبك وسيعود ، وعلمت أنه سيعود لقول رسول الله ﷺ ، فجاء، فجعل يحثو من الطعام ، فأخذته فقلت لأرفعنك إلى رسول الله ﷺ ، فقال : دعني ، حتى أعلمك كلمات ينفعك الله بهن ، وكانوا أحرص شيء على الخير ، فقال : إذا آويت إلى فراشك ، فاقرأ آية الكرسي : ﴿ اللهُ لا إله إلاّ هوَ الحيُّ القَيّومُ ﴾ (١) . فإنه لن يزال معك من الله حافظ ، ولا يقربك شيطان ، فخليت سبيله ، فقال رسول الله ﷺ ما فعل أسيرك يا أبا هريرة ؟ فأخبرته ، فقال : صدقك ،وإنه لكاذب. تدري من تخاطب منذ ثلاث ؟ ذاك الشيطان . ذكره البخاري في كتاب الوكالة ، وفي صفة إبليس ، وفي فضائل القرآن تعليقاً عن عثمان ، ولم يذكر أنه سمعه ، ورواه النسائي ، وابن خزيمة .

وقد روي نحو هذا الحديث ، عن أبي كعب ، وأبي أيوب ، ومعاذ بن جبل ، وزيد بن ثابت ، وأبي أسيد ، ومالك بن ربيعة الأنصاري رضي الله عنهم . وقد جمع الحافظ ضياء الدين في ذلك جزءاً .

وقال أبو عبيدة في كتاب الغريب : حدثنا أبو معاوية ، عن أبي عاصم الثقفي ، عن الشعبي ، عن عبد الله بن مسعود قال : خرج رجل من الإنس ، فلقيه رجل من الجن فقال : هل لك أن تصارعني ، فإن صرعتني علمتك آية إذا قرأتها حين تدخل بيتك لم يدخله شيطان ، فصارعه فصرعه فقال : إني أراك ضئيلا كأن ذراعيك ذراعا كلب ، أهكذا أنتم أيها الجن ، أم أنت من بينهم ؟ قال : إني فيهم لضليع ، فعاودني ،فعاوده فصرعه الانسي قال : أتقرأ آية الكرسي؟ فإنه لا يقرأها

---

(١) سورة البقرة ، الآية : ٢٥٥ .

أحد إذا دخل بيته إلا خرج الشيطان وله خبج كخبج الحمار ، فقيل لابن مسعود أهو عمر ؟ فقال : من عسى أن يكون إلا عمر رضي الله عنه . الخبج : بالخاء المعجمة والباء الموحدة ، وهو الضراط .

وفي رواية عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : لقي رجل من أصحاب رسول الله ﷺ الشيطان في زقاق من أزقة المدينة ، فدعاه الجني إلى الصراع فصرعه الانسي ، فقال : دعني . قال : فهل لك في المعاودة ؟ ففعل وجلس على صدره وقال : أراك نحيفاً ضئيلا كأن ذراعيك ذراعا كلب ، أهكذا أنتم أيها الجن ، أو أنت من بينهم ؟ كذلك قال والله إني فيهم لضليع . فقال : ما أنا بالذي أدعك حتى تخبرني ما يعيذنا منكم . قال : آية الكرسي ، فقال رجل لعبد الله بن مسعود : ومن ذاك الرجل ، أهو عمر ؟ فعبس وبسر ، فقال : ومن عسى أن يكون الرجل إلا عمر النحيف الرقيق والضئيل المهزول .

وقال عباس الدوري : سمعت يحيى بن معين يقول : كنت إذا دخلت منزلي قرأت آية الكرسي مرة ، فبينا أنا ذات ليلة أقرؤها ، فإذا هاتف يقول : كم تقرأ هذه ليس أحد يحسن يقرؤها غيرك ؟ فقلت مجيباً له : وأرى هذا يسؤوك والله لأزيدنك ، فصرت أقرأها في الليلة خمسين أو ستين مرة .

قال عباس ، فحدثت بهذا محمد بن سهل ، فقال كان جريئاً على الإنس والجن ، أو كما قال . وعن عبد الله بن حبيب الجهني قال : خرجنا في ليلة مطيرة مظلمة شديدة ، فطلبت رسول الله ﷺ ليصلي لنا ، فأدركته فقال : قل ، فلم أقل شيئاً . قال : قل فلم أقل شيئاً ، قال : قل . قلت يارسول الله ! وما أقول ؟ قال : قل هو الله أحد والمعوذتين حين تمسي وحين تصبح ثلاث مرات تكفيك من كل شيء .رواه عبد الله ابن الامام أحمد ، وأبو داود ، والنسائي ، والترمذي ، وقال: حسن صحيح ، غريب من هذا الوجه ، والضياء في المختارة .

وعن أبي بكر رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « عليكم

بلا إله إلا الله والاستغفار فأكثروا منهما ، فإن إبليس قال : أهلكت بني آدم بالذنوب وأهلكوني بلا إله إلا الله والاستغفار ، فلما رأيت ذلك أهلكتهم بالأهواء وهم يحسبون أنهم مهتدون » .رواه الحافظ أبو يعلى الموصلي ، وقال مجاهد : ما من شيء أكسر لظهر إبليس من لا إله إلا الله .

عن أبي مسعود الأنصاري رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « مَنْ قرأ الآيتين من آخر سورة البقرة في ليلة كفتاه » متفق عليه . قيل : كفتاه من قيام الليل .

وفي حديث مرفوع : من قرأهما بعد العشاء مرتين أجزأتاه من قيام الليل . ﴿ آمَنَ الرَّسُولُ ﴾ [1] . إلى آخر البقرة . وقيل : كفتاه من شر الشيطان ، فلا يكون له عليه سلطان .

وفي حديث مرفوع : إن الله كتب كتاباً قبل أن يخلق السموات والأرض بألفي عام ، فأنزل منه هذه الثلاث آيات التي ختم بهن البقرة . من قرأهن في بيته لم يقرب الشيطان بيته ثلاث ليال .

قال الشيخ محي الدين : ويجوز أن يراد القولان معاً كفتاه من الآفات . ومن قيام الليل . وقال ابن عباس : الشيطان جاثم على قلب إبن آدم ، فإذا سها وغفل وسوس ، وإذا ذكر الله خنس .

وجاء مرفوعاً من حديث أنس قال : سري السقطي : بلغني أن امرأة كانت إذا قامت من الليل قالت : اللهم إن إبليس عبد من عبيدك ناصيته بيدك يراني من حيث لا أراه وأنت تراه من حيث لا يراك . اللهم إنك تقدر على أمره كله وهو لا يقدر من أمرك على شيء . اللهم إن أرادني بشرٍّ فارددْه ، وإن كادني فكده أدرأ بك في نحره وأعوذ بك من شره ، ثم بكت حتى ذهبت إحدى عينيها ، فقيل لها : اتقي الله لئلا تذهب الأخرى . فقالت : إن كانت عيني من عيون أهل الجنة

---

(١) سورة البقرة ، الآيتان ، ٢٨٥ ، ٢٨٦ .

فسيبدلني الله ما هو أحسن منها ، وإن كانت من عيون أهل النار فابعدها الله .

وقال أبو عبد الرحمن الحبـــلي : إذا اجتمع قوم على ذكر الله خرج الشيطان وشيعته على باب المسجد يقول لهم : انظروا هل قاموا ؟ فيقولون : لا . فيضرب كبده ، فيقولون له : ما بالك تضرب كبدك ؟ فيقول : إنما أخشى عليهم الرحمة فلا يعذبون أبداً .

وقال ابن مسعود : قعد قوم يذكرون الله عز وجل ، فأتاهم الشيطان ليقيمهم من مجلسهم ، فيفرق بينهم فلم يستطع ، فأتى رفقة أخرى يتحدثون بحديث الدنيا ، فأفسد بينهم وقاموا يقتتلون وليس يريدهم ، فقام الذين يذكرون الله يفصلون بينهم ، فتفرقوا عن مجلسهم . رواه ابن أبي الدنيا .

وقال بشر بن منصور عن وهيب بن الورد : خرج رجل إلى الجبانة بعد ساعة من الليل ، فسمع حساً وأصواتاً شديدة وجيء بسرير ، وجاء شيء جلس عليه ، واجتمع اليه جنوده ، ثم صرخ : مَن لي بعروة بن الزبير ، فلم يجبه أحد حتى تابع ما شاء الله من الأصوات ، فقال واحد منهم : أنا أكفيكه . قال : فتوجه نحو المدينة وأنا أنظر ، ثم أوشك الرجعة ، فقال : لا سبيل إلى عروة . قال : ويلك لِمَ ؟ قال : وجدته يقول كلمات إذا أصبح وإذا أمسى فلا يخلص اليه . قال الرجل : فلما أصبحت قلت لأهلي جهزوني فأتيت المدينة ، فسألت عنه حتى دللت عليه ، فإذا شيخ كبير ، فقلت : شيء تقوله إذا أصبحت وإذا أمسيت ، فأبى أن يخبرني ، فأخبرته بما رأيت وبما سمعت ، فقال : ما أدري غير أني أقول إذا أصبحت : آمنت بالله العظيم وكفرت بالجبت والطاغوت واستمسكت بالعروة الوثقى لا انفصام لها ، والله سميع عليم . إذا أصبحت قلت ثلاث مرات ، وإذا أمسيت ثلاث مرات .

وقيل لبعض العارفين : كيف مجاهدتك الشيطان ؟ قال : وما الشيطان ؟ نحن قوم صرفنا همنا إلى الله تعالى فكفانا شره .

وقال بعضهم : لما قال الله تعالى : ﴿ إنَّ الشَّيْطانَ لَكُمْ عَدُوٌ فاتَّخذوه عَدُوّاً ﴾ [1] . فقوم فهموا من هذا الخطاب أن الله طالبهم بعداوة الشيطان فصرفوا همهم إلى عداوته ، فشغلهم ذلك عن محبة الحبيب ، وقوم فهموا من ذلك أن الشيطان لكم عدو وإني لكم حبيب ، فاشتغلوا بمحبة الله فكفلهم من دونه . قيل : الحكمة في إيجاد الشيطان أن يكون مظهراً ينسب اليه أسباب العصيان والغفلة والنسيان . قال تعالى: ﴿ وما أنْسانيهُ إلاَّ الشَّيْطانُ ﴾ [2] . هذا من عمل الشيطان ، فكان سر إيجاده ليمسح بسببه أوساخ النسب .

قال بعض العارفين : هو منديل هذا الدار ، والشيطان كالذكر والنفس كالأنثى ، وحدوث الذنب بينهم كحدوث الولد من الأم والأب لأنهما أوجداه ، ولكن مهما كان ظهوره ، فكما لا يشك عاقل أن الولد ليس من خلق الأبوين ولا من إيجادهما ، فنسب اليهما بظهوره عنهما ، كذلك المعصية ليست من خلق الشيطان والنفس ، فكانت عنهما لا منهما فلظهورهما عنهما نسبت اليهما ، فنسبة المعصية إلى الشيطان والنفس نسبة إضافة وإسناد ، ونسبتها إلى الله نسبة خلق وإيجاد ، كما أنه خلق الطاعة بفضله كذلك هو خالق المعصية بعدله : ﴿ قُلْ كلٌّ منْ عندِ الله فَمَا لهؤلاء القوم لا يكادون يفْقَهُون حديثاً ﴾ [3] . قال عمر بن عبد العزيز : لو أراد الله أن لا يعصى لما خلق إبليس .

وقال الامام أحمد في المسند : حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة ، حدثنا عفان ، حدثنا جعفر بن سليمان الضبعي ، عن أبي التياح يزيد بن حميد قال : سأل رجل عبد الرحمن بن حبيش ، وكان شيخاً أدرك النبي ﷺ كيف صنع النبي ﷺ حين كادته الشياطين ؟ قال : تحادرت عليه الشياطين من الأودية والجبال يريدون رسول الله ﷺ ، وفيهم شيطان معه شعلة نار .

---

(١) سورة فاطر ، الآية : ٦ .
(٢) سورة الكهف ، الآية : ٦٣ .
(٣) سورة النساء ، الآية : ٧٨ .

وفي رواية ذكرها ابن أبي الدنيا شمعة من نار ، وفي آخره طفئت شمعته وخر على وجهه يريد أن يحرقه بها ، فلما رآهم وجل ، وجاء جبريل عليه السلام ، فقال يا محمد ! قل . قال : وما أقول ؟ قال : قل أعوذ بكلمات الله التامات التي لا يجاوزهن بر ولا فاجر من شر ماخلق وذرأ وبرأ ، ومن شر ما ينزل من السماء ، ومن شر ما يعرج فيها ، ومن شر ما ذرأ في الأرض ، ومن شر ما يخرج منها ، ومن شر فتن الليل والنهار ، ومن شر كل طارق إلا طارقاً بخير ، يارحمن . فطفئت نار الشياطين وهزمهم الله تعالى .

ورواه البزار : حدثنا ابراهيم بن مرزوق ، حدثنا جعفر . قال البزار : لم يروه غير عبد الرحمن بن حبيش فيما علمت .

قلت : قد جاء من حديث خالد بن الوليد ، وسيأتي ، فلله سبحانه وبحمده الكلمات الكونية المذكورة في قوله تعالى : ﴿ إنّما أمْرُهُ إذا أرادَ شيْئاً أنْ يقولَ لَه كنْ فيَكُونُ ﴾[1] . وهي التي كان النبي ﷺ يستعيذ بها في هذا ، ورغب فيها كما روت خولة بنت حكيم رضي الله عنها قالت : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « مَنْ نزلَ منزلاً ثم قال : أعوذ بكلمات الله التّامات من شر ما خلق لم يضره شيء حتى يرتحل من منزله » . رواه مسلم .

وقالت طائفة : المراد بالكلمات التامات هذه : هي القرآن وهو ما ذكره الخطابي ، وقال وصفه بالتمام تنزيهاً له أن يلحقه نقص ، وكان في زمن الوالد والجد رحمة الله عليهما يوردان ذلك في الجامع مؤكداً ، ويقولون : أعوذ بكلمات الله التامات كلها من شر ما خلق ، فبعد ذلك بيسير زعم ابن المحب رحمه الله وتبعه من صنّف في أذكار المساء والصباح أن لفظ « كلها » لم ترد في حديث ، وأنكروا ذلك ، فراجعت أبا بكر بن المحب الحافظ ، فرجع ، وقال : بل صحت هذه اللفظة ، وراجعت من تبعه ونهيته على ذلك ، فلم يرجع ، واعتمدوا

---

(١) سورة يس ، الآية : ٨٢ .

على أن كلمات الله تعالى لا نهاية لها وما لا نهاية له لا ينحصر وما لا ينحصر لا يقبل التأكيد وبأنه لم يرد .

قلت : المستعاذ به هي الكلمات الكونية عند طائفة ، أو القرآن عند آخرين ، وكلاهما يقبل التأكيد ، فتقول : قرأت القرآن كله ، ولا سيما وقد صحت الرواية بذلك .

قال الامام أحمد في المسند : حدثنا أبو معاوية ، حدثنا حجاج ، عن الربيع بن مالك،عن خولة بنت حكيم قالت : قال رسول الله ﷺ : « مَنْ نَزل منزلاً فقال : أعُوذُ بكلماتِ الله التّامات كلّها من شرِّ ما خلق لم يضره في منزله ذلك شيء حتى يظعن عنه » .صحيح .

وجاء من وجوه أخر قيل : في حديث أبي هريرة : أن رجلا قال: يارسول الله ! لدغت البارحة ، فلم أنم حتى أصبحت ، فقال رسول الله ﷺ : « أمَا أنّك لو قلت حين أمْسيت أعوذُ بكلمات الله التامات من شر ما خلق لم يصبك لدغة عقرب حتى تصبح » . فاختلفت العبارتان في حديث خولة ، وحديث أبي هريرة .

قلنا : لا اختلاف ولا تعارض . فحديث أبي هريرة في المقيم ، وحديث خولة في المسافر تخفيفاً ورحمةوتوسعة عليه شأن المسافر التخفيف عنه في الصيام والصلاة .

وعن أبي العالية ، عن خالد بن الوليد أنه شكا إلى النبي ﷺ ، فقال : إني أجد فزعاً بالليل فقال : أعلمك كلمات علمنيهن جبريل عليه السلام ، وزعم أن عفريتاً من الجن يكيدني . « قل أعوذ بكلمات الله التامات التي لا يجاوزهن بر ولا فاجر من شر ما ينزل من السماء ، وما يعرج فيها ، ومن شر ما ذرأ في الأرض وما يخرج منها ، ومن شر فتن الليل والنهار ، ومن شر طوارق الليل والنهار إلا طارقاً يطرق بخير يارحمن » . رواه الطبراني ، والحافظ الضياء في المختارة ، وهذا يشهد لحديث عبد الرحمن بن حبيش السابق .

وذكر مالك في الموطأ ، عن كعب الأحبار قال : لولا كلمات أقولها لجعلتني اليهود حماراً . قيل له : وما هن ؟ قال : أعوذ بوجه الله العظيم أي ليس شيء أعظم منه ، وبكلمات الله التامات التي لا يجاوزهن بر ولا فاجر ، وبأسمائه الحسنى ما علمت منها وما لم أعلم من شر ما خلق وذرأ وبرأ .

عن بريدة رضي الله عنه قال : شكى خالد بن الوليد إلى النبي ﷺ فقال : ما أنام من الأرق ، فقال رسول الله ﷺ : « إذا أويت إلى فراشك فقُلْ اللهم ربّ السموات السبع وما أظلّت وربّ الأرضين السبع وما أقلّت ورب الشياطين وما أضلت كن لي جاراً من شر خلقك كلهم جميعاً أن يفرّط عليّ أحد منهم أو أن يبغى عليّ . عزّ جارك وجل ثناؤك ولا إله غيرك » . رواه الترمذي بإسناد ضعيف .

وقال سعيد بن منصور : حدثنا سفيان ، عن الأعمش ، عن ثمامة ابن عقبة ، عن الحرث بن سويد ، عن عبد الله بن مسعود قال : إذا كان إما ما تخاف عترسته[1] فقل : اللهم رب السموات السبع ورب العرش العظيم كن لي جاراً من فلان .

---

(١) العترسة الغضب قاله ابن فارس ويقال العترسة الأخذ بشدة ورجل عتريس بكسر العين شديد غليظ أو غضبان جبار ا ه مصباح .

الفصل الخامس :

في عقد الشيطان على قافية ابن آدم كل ليلة

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « يعقدُ الشّيْطان على قافيةِ رأسِ أحدكم إذا هو نام ثلاث عُقَد يضرب كل عقدة مكانها عليك ليلٌ طويلٌ فارقد فإن استيقظ فذكر الله انحلت عقدة فإن توضأ انحلت عقدة ، فإن صلى انحلت عقده فأصبح نشيطاً طيب النفس وإلا أصبح خبيث النفس كسلان » متفق عليه .

وعن جابر رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « ما مِنْ مُسْلم ذكر ولا أُنثى ينام إلا وعليه جرير معقود ، فإن استيقظ فذكر الله انحلت عقدة ، وإن هو توضأ ثم قام إلى الصلاة أصبح نشيطاً قد أصاب خيراً ، وقد انحلت عقده كلها ، وإذا أصبح لم يذكر الله أصبح وعقده عليه وأصبح ثقيلا كسلان لم يصب خيراً » .

وعن عقبة بن عامر قال : قال رسول الله ﷺ : « رجل من أُمتي يقوم من الليل يعالج نفسه إلى الطهور ، فإذا وضأ يديه انحلت عقدة ، ووجهه انحلت عقدة ، وإذا مسح رأسه انحلت عقدة ، فإذا وضأ رجليه انحلت عقدة فيقول الله عز وجل للذين وراء الحجاب : انظروا إلى عبدي هذا يعالج نفسه ما سألني عبدي فهو له » . رواهما ابن حبان في صحيحه .

وقال في حديث عقبة : إن الشيطان قد يعقد على مواضع الوضوء من المسلم العقد على قافية رأسه عند النوم .وقد اختلف الناس في هذه العقد هل هي حقيقة أو مجاز على قولين :

أحدهما : أنه مجاز واستعارة لأن عقد بني آدم يمنع المعقود عليه من التصرف ، فكذلك ما يفعله الشيطان بالنائم مما يمنع ما ينبغي له من ذكر الله والصلاة ، وهذا قول الطحاوي .

الثاني : أن ذلك عقد من الشيطان حقيقة جرياً على ظواهر الأحاديث ويؤيده قوله ﷺ (١) ثلاث عقد ، ولو كان على وجه المجاز لما كان في العقد فائدة ، ولقوله جرير معقود ، فذكر العقد في الجرير ، والجرير بالجيم المعجمة الحبل قاله أهل اللغة ، ولأنه قال : إذا ذكر الله انحلت عقدة ، وإذا توضأ انحلت عقدة ، وإن صلى انحلت عقدة ، فانحلت العقد كلها ، وهذا مما يمنع المجاز وأحاديث هذا الباب يحتمل أن يقال أنها على عمومها ، وأن من لم يذكر الله بعد منامه ولم يتوضأ ولم يصلِّ يصبح خبيث النفس كسلان ، وأن من فعل ذلك نشط وأصبح قوي الهمة عملا بظواهر الأخبار ، ويحتمل أن يقال هذا يخص منه من ذكر الله تعالى عند المنام وأتى بالأذكار والأوراد المشروعة والتعوذات المأثورة ، وأن من فعل ذلك لا يدخل في هذا الحديث ويدل على ذلك أن أبا هريرة نفسه راوي الحديث ، وقد صح عنه أنه قال : أوصاني خليلي بصوم ثلاثة أيام

---

(١) قال الحافظ في شرح البخاري : وقد اختلف في هذه العقد فقيل هو الحقيقة وإنه كما يعقد الساحر على من يسحره وأكثر من يفعله النساء تأخذ إحداهن الخيط فتعقد عقدة وتتكلم عليه بالسحر فيتأثر المسحور عند ذلك ومنه قوله تعالى « ومن شر النفاثات في العقد » وعلى هذا شيء معقود عند قافية الرأس لا قافية الرأس نفسها وهل العقد في شعر الرأس أو في غيره الأقرب الثاني . إذ ليس لكل أحد شعر ويؤيده ما ورد في بعض طرقه أن على رأس كل آدمي حبلا ، ففي رواية ابن ماجه ، ومحمد بن نصر من طريق أبي صالح ، عن أبي هريرة مرفوعاً : « على قافية رأس أحدكم حبل فيه ثلاث عقد » ، ولأحمد من طريق الحسن عن أبي هريرة بلفظ : « إذا نام أحدكم عقد على رأسه حريرة » . ولابن خزيمة وابن حبان من حديث جابر مرفوعاً : « ما من ذكر ولا أنثى إلا وعلى رأسه حرير معقود » . الحديث . وفي الثواب لآدم بن أبي إياس من مرسل الحسن نحوه . وفهم بعضهم من هذا أن العقد لازمة ، ويرده التصريح أنها تنحل بالصلاة فيلزم إعادة عقدها فأبهم فاعله في حديث جابر ، وفسر في حديث غيره ، وقيل هو على المجاز كأنه شبه فعل الشيطان بالنائم بفعل الساحر بالمسحور ، فلما كان الساحر يمنع بعقده ذلك تصرف من يحاول عقده كأن هذا مثله من الشيطان للنائم ، وقيل المراد به عقد القلب وتصميمه على الشيء كأنه يوسوس له بأنه بقي من الليل قطعة طويلة فيستأخر عن القيام . انتهى .

من كل شهر ، وركعتي الضحى كل يوم ، وأن أوتر قبل أن أنام ، فكان يفعل ذلك ، ولو كان حديث عقد الشيطان على رأس كل أحد عاماً لما ترك أبو هريرة الوضوء والذكر والصلاة ، فدل على أنه مخصوص بمن لم يأت بالأذكار المشروعة ، وأبو هريرة راوي حديث آية الكرسي لا يقربك شيطان كما سبق .

وفي الصحيحين : « من قرأ أواخر البقرة في ليلة كفتاه » وغير ذلك مما ورد به التحصن من الشيطان .

وعن عبادة بن الصامت قال : قال رسول الله ﷺ : « من تعار من الليل فقال : لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك ، وله الحمد يحيي ويميت وهو على كل شيء قدير . سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر ، ولا حول ولا قوة إلا بالله ، ثم قال رب اغفر لي غفر له ، أو قال فدعا استجيب له ، فإن توضأ وصلى قبلت صلاته » .

رواه أبو نعيم وهو في صحيح البخاري بقريب من هذا اللفظ ، وقد قيل إن النبي ﷺ إنما أوصى أبا هريرة بذلك ، لأنه قد روي أن أبا هريرة كان يختار درس الحديث بالليل على الصلاة ، فأمره بالضحى بدلا من قيام الليل ، ولهذا أمره أن لا ينام حتى يوتر ، ولم يأمر بذلك أبا بكر وعمر وسائر الصحابة ، لكن جاء في صحيح البخاري أن أبا هريرة هو وامرأته وخادمه اعتقبوا الليل أثلاثاً ، فيقوم هذا ، ثم هذا ، ثم هذا ، فيحتمل أن أبا هريرة فعل ذلك في أواخر الأمر جمعاً بين الكل ، وقال بعض الناس إنما أمر أبا هريرة بالوتر قبل النوم لأنه لم يكن له دنيا ولا كسب ، فقنع منه باليسير من العمل بأخذه اليسير من الدنيا ، وهذا معروف عند الصوفية من انقطع منهم قنعوا منه بانقطاعه مع شيء ما من العمل ، ومن تسبب أمروه بكثرة الأعمال والمبادرة إلى الخيرات لأنه بالانقطاع يبقى قلبه مقبلا على ربه ، والمطلوب من ابن آدم الحضور في كل أوقاته ، وقد هتف ببعضهم فقيل له ادخل الدار يسكنها صاحبها .

وقد ذكر ابن أبي حاتم في كتاب الجرح والتعديل ، عن بكر بن محمد العابد ، قال سفيان الثوري : القراءة لا تلمح إلا بالزهد فازهد ونم وصل الخمس .

وقال الامام أحمد في المسند : حدثنا عبد الرزاق ، حدثنا معمر ، عن الزهري ، عن أنس قال : كنا جلوساً عند النبي ﷺ فقال : « يطلع الآن عليكم رجل من أهل الجنة فطلع رجل من الأنصار تنطف لحيته من وضوئه فعلق نعليه بيده الشمال ، فلما كان الغد قال النبي ﷺ مثل ذلك ، فطلع ذلك الرجل مثل المرة الأولى ، فلما كان اليوم الثالث قال النبي ﷺ مثل مقالته أيضاً ، فطلع ذلك الرجل على مثل حالته الأولى ، فلما قام النبي ﷺ تبعه عبد الله أي تبع الرجل ابن عمرو بن العاص فقال : إني لاحيت أبي ، فأقسمت أن لا أدخل عليه ثلاثاً ، فإن رأيت أن تأويني ثلاثاً حتى تمضي فعلت . قال : نعم . قال أنس ، فكان عبد الله يحدث أنه بات معه الثلاث ، فلم يره يقوم من الليل شيئاً غير أنه إذا تعار وانقلب على فراشه ذكر الله تعالى وكبر حتى يقوم لصلاة الفجر غير إني لم أسمعه يقول إلا خيراً ، فلما مضت الثلاث ليال ، وكدت أحتقر عمله ، فقلت : يا عبد الله ! لم يكن بيني وبين أبي غضب ولا هجرة ، ولكن سمعت رسول الله ﷺ يقول : ثلاث مرات يطلع عليكم الآن رجل من أهل الجنة ، فطلعت أنت الثلاث مرات ، فأردت أن آوي لأنظر عملك لأقتدي به ، فلم أرك تعمل كثير عمل ، فما الذي بلغ بك ما قال رسول الله ﷺ ؟ قال : ما هو إلا ما رأيت غير أني لا أجد في نفسي لأحد من المسلمين غشاً ولا حسداً أحداً على خير أعطاه الله إياه ، فقال عبد الله : هذا الذي بلغ بك وهي التي لا نطيق » حديث حسن .

الفصل السادس :

في أكل الشيطان وقيئه وبوله

عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : ذكر رجل عند النبي ﷺ نام حتى أصبح فقال : « ذاك رجل بال الشيطان في أذنيه أو قال أذنه ». متفق عليه . قال الطحاوي : بال ، ليس على حقيقة البول بل على المثل والاستعارة . أي فعل به أقبح ما يفعل بالنائم ، ثم قال : وهذا لتضييع عشاء الآخرة ، وفعل المكروه من النوم قبلها . انتهى .

وعن علي رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « مررتُ ليلةَ أُسريَ بي فإذا بقوم تضرب رؤوسهم بالصخر ، فقلت يا جبريل ! ما هؤلاء ؟ قال : هؤلاء من أمتك . قلت : وما حالهم ؟ قال : كانوا ينامون عن العشاء الآخرة » . قال ابن عبد البر : هذا الحديث مع ضعفه معناه أنهم ينامون عنها ولا يصلونها . قال : وعلى ذلك حمل الطحاوي حديث ابن مسعود : من نام حتى أصبح بال الشيطان في أذنه .

وقال ابن الجوزي في كشف المشكل فيه وجهان :

أحدهما : أنه على ظاهره ، وفي القرآن أن الشيطان ينكح . قال تعالى : ﴿ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ ﴾[1] . وقال : ﴿ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي ﴾[2] . قال الأصمعي : خرج رجل بحضرموت وإذا بنت الغول وهي ساحرة الجن ، فهرب فدخل بئراً ، فبالت عليه ، فخرج من البئر وقد تمعط شعره ، ولم يبق

(١) سورة الرحمن ، الآية : ٥٦ .
(٢) سورة الكهف ، الآية : ٥٠ .

عليه شيء . وفي الحديث أنه يأكل ويشرب فلا يمتنع أن يكون له بول وإن لم يظهر في الحس .

الثاني : أنه مثل شبه الغافل عن الصلاة بالنوم بمن وقع البول في أذنيه فثقل سمعه وفسد حسه ، والعرب تضرب المثل بمثل هذا .

قال الراجز :

بالَ سهيلٌ في الفضيح فَفَسُدْ وطابَ البانُ اللّقاح وبردْ

وأراد : طلع سهيل ، فجعل طلوعه في إفساد الفضيح بمنزلة البول فيه ، وقال الوالد يتوجه أن البول على ظاهره ، وقال بعض أصحابنا فيكون بوله وقيئه ظاهراً . وهذا غريب قد يعابا به .

قلت : وقد صح أنه يهرب من الآذان وله ضراط وقد يتأول ذلك من تأول البول ، والأظهر جرى ذلك على ظاهره .

وفي كتاب الألقاب للشيرازي عن الحافظ قال : سمعت يزيد بن هارون يقول : خلق الجوز من ضراط إبليس ، وقال الأعمش : تعبد رجل من بني إسرائيل في غار ، فبعث إبليس شيطاناً ، فدخل الغار فجعل يصلي معه ، فقال له العابد : من أنت ؟ قال : أتعبد معك ، ثم قال : هل أدلك على أفضل مما نحن فيه ؟ قال : وما هو ؟ قال : أخرج بنا إلى قرية تأمر بالمعروف ، فأطاعه فأقبل رجل اليهما عند باب القرية ، فجعل الشيطان حين رآه يضرط ، فأخذه الرجل ، فذبحه ، فقال له العابد : ما صنعت قتلت خير الناس ؟ قال : إنما هو شيطان وأنا رحمة رحمك بها ربك . ذكره أبو نعيم .

وفي سنن أبي داود والنسائي والحاكم كان النبي ﷺ جالساً ورجل يأكل فلم يسم الله ، حتى لم يبق من طعامه إلا لقمة ، فلما رفعها إلى فيه قال : بسم الله أوله وآخره ، فضحك رسول الله ﷺ ثم قال : « ما زال الشيطانُ يأكلُ معه فلما ذكر اسم الله استقاء ما في بطنه » .

وفي مسند الامام أحمد ، وسنن أبي داود ، وصحيح مسلم ، عن حذيفة رضي الله عنه قال : كنا إذا حضرنا مع رسول الله ﷺ على طعام لم نضع أيدينا حتى يبدأ رسول الله ﷺ فيضع يده . وإنا حضرنا معه طعاماً فجاءت جارية كأنها تدفع ، فذهبت تضع يدها في الطعام ، فأخذ رسول الله ﷺ بيدها ، وجاء أعرابي كأنما يدفع ، فذهب يضع يده في الطعام ، فأخذ رسول الله ﷺ بيده قال ، فقال رسول الله ﷺ : « إنَّ الشَّيْطانَ يستحل الطعام إذا لم يذكر الله عليه وإنه جاء بهذه الجارية ليستحل بها ، فأخذت بيدها ، وجاء بهذا الأعرابي ليستحل به ، فأخذت بيده ، والذي نفسي بيده إن يده في يدي مع يديهما يعني الشيطان » . رواه مسلم .

وعن جابر قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إذا دخل أحدكم بيته فذكر الله عند دخوله وعند طعامه قال الشيطان لا مبيت لكم ولا عشاء ، وإذا دخل فلم يذكر الله عند دخوله قال الشيطان أدركتم المبيت وإذا لم يذكر الله عند طعامه قال أدركتم المبيت والعشاء » .

وقال ابن مسعود : لقي شيطان المؤمن شيطان الكافر ، فإذا شيطان المؤمن مهزول ، وإذا شيطان الكافر سمين ، فقال : ما لك ؟ قال : مالي من شيء إذا دخل بيته ذكر الله ، وإذا طعم ذكر الله ، وإذا شرب ذكر الله . قال الآخر : لكني آكل معه و أشرب معه .

وعن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس قال النبي ﷺ : « قال إبليس يارب كل خلقك بينت رزقه ففيم رزقي ؟ قال : فيما لم يذكر اسم الله عليه » . رواه الضياء في المختارة ، وقد نصرنا في الكتاب الباهر أن الجن يأكلون حقيقة لأن النبي ﷺ قال : « إنَّ العظام منْ زادهم وأن البعر أزواد دوابهم فلولا أكلهم لم يحتاجوا إلى الزاد ولم يسألوه إياه » .

وفي صحيح مسلم ، عن ابن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : « أتاني الجن فقرأت عليهم القرآن قال ، فانطلق أي النبي فأرانا آثارهم وآثار نيرانهم وسألوه الزاد ، فقال : كل عظم ذكر اسم الله عليه يقع

في أيديكم أوفر ما يكون لحماً ، وكل بعرة علف لدوابكم ، وقال النبي ﷺ لا تستجمروا بهما فإنهما طعام إخوانكم » . وقال آخرون : إن عامة الجن يعيشون بالروائح ، وقال الغزالي في كتاب الاحياء : أكثر الجن يعيشون بالرائحة ، وقال ابن عقيل : يجوز أن يكون زادهم أو يلحسون زهائمها ويبقى أجسامها .

وسأل عمر رضي الله عنه رجلا أستأسرته الجن ما طعامهم ؟ قال : الفول وما لم يذكر اسم الله عليه . قال : فما شرابهم ؟ قال : الجدف بالتحريك نبات يكون باليمن لا يحتاج معه إلى شرب ماء . وقيل تأكله الإبل ، فلا يحتاج معه إلى شرب ماء ، وقيل : ما لا يغطي من الشراب وغيره ، وقيل : زبد الشراب ورغوة اللبن . قال الأعمش : تزوج الينا جني فقلت له : ما أحب الطعام اليكم ؟ فقال : الأرز ، فأتاهم ، فجعلت أرى اللقم ترفع ولا أرى أحداً ، فقلت : فيكم من هذه الأهواء التي فينا ؟ قال : نعم . قلت : فما الرافضة فيكم ؟ قال : شرنا . قال : الشيخ كمال الدين المزي الحافظ : هذا صحيح عن الأعمش .

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « إنّ الشّيطانَ أتى العراق فباضَ فيهم وأفرخَ ثم أتى مِصْرَ فبسط عبقريه وجلس ، ثم أتى الشام فطردوه حتى بلغ بيسان » .رواه ابن عساكر .

وعن يحيى بن أيوب ، وابن لهيعة ، عن عقيل ، عن الزهري ، عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : « إنّ إبليسَ دخل العراق فقضى حاجته منها ، ودخل الشام فطردوه حتى بلغ بيسان ، ثم دخل مصر فباض فيها وفرّخ وبسط عبقريه » . حديث حسن ذكره ابن الجوزي في الموضوعات بلا حجة ، وسئل الحسن : أينام إبليس ؟ قال : فتبسم الحسن ، فقال : لو نام لوجدنا راحة . ذكره ابن أبي الدنيا .

الفصل السابع :

في عقبات الشيطان السبع وقصة برصيصا العبد وحديث من خلق

اعلم أن الشيطان يقف للمؤمنين في سبع عقبات : عقبة الكفر ، فإن سلم منه وقف له في عقبة البدعة ، ثم في عقبة فعل الكبائر ، ثم في عقبة فعل الصغائر ، فإن سلم منه ففي عقبة فعل المباحات ، فيشغله بها عن الطاعات ، فإن غلبه شغله بالأعمال المفضولة عن الأعمال الفاضلة ، فإن سلم من ذلك وقف له في العقبة السابعة ولا يسلم منها المؤمن إذ لو سلم منها أحد لسلم منها رسول الله ﷺ وهي تسليط الأعداء الفجرة بأنواع الأذى ،

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قيل يارسول الله ! يجد أحدنا في نفسه الشيء لأن يكون كتمه أحب اليه من أن يتكلم به . فقال : « الله أكبر ، الحمد لله الذي رد كيده إلى الوسوسة » . رواه أبو داود وله أيضاً عن أبي زميل قال ، قلت لابن عباس : ما شيء أجده في صدري فقال : ما هو ؟ قلت : لا والله لا أتكلم به ، فقال الشيء من شك وضحك ، فقال : ما نجي منها أحد حتى أنزل الله تعالى : ﴿ فإن كنْتَ في شكٍّ ممّا أنزلْنا اليك فاسأل الّذينَ يقرؤنَ الكتاب منْ قبلك ﴾[1] . فإذا وجدت شيئاً من ذلك فقل : ﴿ هُوَ الأول والآخرُ والظّاهرُ والباطنُ وهوَ بكلِّ شيء عليم ﴾ [2] .

---

(١) سورة يونس ، الآية : ٩٤ .

(٢) سورة الحديد ، الآية : ٣ .

وفي لفظ : إن أحدنا يجد في نفسه لأن يخر من السماء إلى الأرض ، أو يحترق حتى يصير حممة أحب اليه من أن يتكلم به . قال : ذلك صريح الايمان . قال طائفة من العلماء : كأبي عبيد ، وأبي حاتم ، والخطابي وغيرهم : يعني كراهية ذلك واستعظامه ، وقال غيرهم : لا بد للمؤمن من كراهية ذلك واستعظامه قالوا : فالمؤمن إذا ذكر الله وعبده وتفكر : في عظمته فلا بد أن تقع هذه الوساوس على قلبه ضرورة كما قال : ﴿ أنزلَ منَ السّماء ماء فسَالتْ أوديةٌ بقدَرها فاحْتمَل السّيْل زَبَداً رابياً ﴾ (١) . الآية . فضرب مثل ما ينزله على القلوب من الايمان والقرآن بالماء الذي ينزله فتحمله الأودية ، وهي أمثلة القلوب صغار وكبار ، وضرب له مثلا بما يوقد عليه في النار من الحلية والحديد لا بد فيهما من زبد في طبع الأرض والمعدن من الزبد الذي يظهر عند وجود الماء والنار ، وكذلك ما يظهر في القلوب من الوساوس الباطلة التي تظهر عند نزول الإيمان ، والقرآن الذي هو سبب حياة القلوب وعند حرارة الحركة والطلب والإرادة ، وهذا أمر محسوس بالقلوب يجده المؤمن عند تصحيح إيمانه واعتقاده ، وعند تصحيح عبادته وإرادته ، والشيطان لعنه الله إنما يجتهد على الانسان حتى يؤول أمره إلى العقبة الأولى عقبة الكفر . قال تعالى : ﴿ كمَثَل الشّيْطان إذْ قالَ للإنسان اكْفُرْ فلمّا كفَرَ قالَ إنّي بريء منْك إنّي أخافُ الله ﴾ (٢) .

قال ابن عباس رضي الله عنه كان زاهد في الفترة يقال له برصيصا تعبد في صومعة له سبعين سنة لم يعص الله فيها طرفة عين ، وإن إبليس أعياه في أمر الحيل ، فجمع ذات يوم مردة الشياطين فقال : ألا أحد منكم يكفيني أمر برصيصا ؟ فقال الأبيض لإبليس : أنا أكفيك ، فانطلق فتزين بزينة الرهبان وحلق وسط رأسه وأتى صومعة برصيصا فناداه ، فلم يجبه ، وكان لا ينفتل عن صلاته إلا في كل عشرة أيام ، ولا يفطر إلا في عشرة أيام مرة ، فلما رأى الأبيض أنه لا يجيبه أقبل على صلاته وعلى العبادة في أصل صومعته ، فلما انفتل برصيصا اطلع من صومعته ،

---

(١) سورة الرعد ، الآية : ١٧ .
(٢) سورة الحشر ، الآية : ١٦ .

فرأى الأبيض قائماً يصلي في هيئة حسنة من الرهبان ، فلما رأى ذلك من حاله قال له : إنك ناديتني وكنت مشتغلا عنك ، فما حاجتك ؟ قال : حاجتي إني أحببت أن أكون معك وأتأدب بك وأقتبس من عملك ونجتمع على العبادة فتدعو لي وأدعو لك .

قال برصيصا : أنا في شغل عنك ، فإن كنت مؤمناً فإن الله سيجعل لك فيما أدعو للمؤمنين نصيباً ، ثم أقبل على صلاته وترك الأبيض ، وأقبل الأبيض يصلي ، فلم يلتفت إليه برصيصا أربعين يوماً بعدها ، فلما انفتل رآه قائماً يصلي ، فلما رأى شدة اجتهاده قال له : ما حاجتك ؟ قال : حاجتي أن تأذن لي فارتفع اليك . قال : فأذن له ، فارتفع اليه في صومعته وأقام معه حولاً يتعبد لا يفطر إلا في كل أربعين يوماً ، ولا ينفتل عن صلاته إلا في كل أربعين يوماً مرة وربما يزيد إلى الثمانين ، فلما رأى برصيصا شدة اجتهاده تقاصرت اليه نفسه ، وأعجبه شأن الأبيض ، فلما حال الحول قال الأبيض لبرصيصا : إني منطلق فإن لي صاحباً غيرك ظننت أنك أشد اجتهاداً مما أرى ، وكأنه بلغنا عنك غير الذي رأيت ، فدخل من ذلك على برصيصا أمر شديد وكره مفارقته لما رأى من شدة اجتهاده .

فلما ودّعه قال له الأبيض : إن عندي دعوات أعلمكها تدعو بهن ، فهن خير لك مما أنت فيه . يشفي الله بها السقيم ويعافي بها المبتلي والمجنون ، قال برصيصا : إني أكره هذه المنزلة لأن لي في نفسي شغلا ، وإني أخاف إن علم الناس به شغلوني عن العبادة ، فلم يزل به الأبيض حتى علمه .

ثم انطلق حتى أتى إبليس ، فقال : والله أهلكت الرجل . قال : فانطلق الأبيض ، فتعرض لرجل فخنقه ، ثم جاء في صورة رجل متطبب فقال لأهله : إن بصاحبكم جنوناً . أفأعالجه ؟ فقالوا : نعم ، فقال إني لا أقوى على جنيته ، ولكن سأرشدكم إلى مَن يدعو الله فيشفيه انطلقوا إلى برصيصا ، فإن عنده الاسم الذي إذا دعي الله به أجاب ، فانطلقوا اليه فسألوه ذلك ، فدعا بتلك الدعوات ، فذهب عنه الشيطان ،

وكان الأبيض يفعل مثل ذلك بالناس ويرشدهم إلى برصيصا فيدعو فيعافون ، فانطلق الأبيض فتعرض لجارية من بنات ملوك بني إسرائيل بين ثلاثة أخوة ، وكان أبوهم ملكهم ، فمات فاستخلف أخاه فكان عمها ملك بني إسرائيل فعذبها وخنقها ، ثم جاء اليهم في صورة متطبب فقال لهم : أعالجها ؟ قالوا : نعم . قال : إن الذي عرض لها مارد لا يطاق ، ولكن سأرشدكم إلى رجل تثقون به وتدعونها عنده إذا جاء شيطانها دعا لها ، حتى تعلموا أنها قد عوفيت تردونها صحيحة ، فقالوا : ومن هذا ؟ قال : برصيصا . قالوا : فكيف لنا أن يجيبنا إلى هذا وهو أعظم شأناً من ذلك ؟ قال : ابتنوا صومعة إلى جانب صومعته حتى تشرفوا عليه ، فإن قبلها وإلا فضعوها عنده في صومعته ، ثم قولوا له : هي أمانة عندك فاحتسب فيها قال : فانطلقوا اليه فسألوه فأبى عليهم فبنوا صومعة على ما أمرهم الأبيض ، ووضعوا الجارية في صومعته وقالوا : هذه أختنا ثم انصرفوا .

فلما التفت برصيصا من صلاته عاين الجارية وما بها من الجمال ، فأسقط في يده ودخل عليه أمر عظيم ، فجاءها الشيطان فخنقها فدعا برصيصا بتلك الدعوات ، فذهب عنها الشيطان ، ثم أقبل على صلاته ، ثم جاء الشيطان فخنقها ، وكانت تكشف عن نفسها ، فجاءه الشيطان وقال : واقعها فتتوب بعد ، فتدرك ما تريد من الأمر ، فلم يزل به حتى واقعها ، فلم يزل على ذلك يأتيها حتى حملت وظهر حملها ، فقال له الشيطان : ويحك يا برصيصا قد افتضحت ،فهل لك أن تقتلها فتتوب ، فإذا سألوك فقل ذهب بها شيطانها ، فلم أقو عليه ، فدخل برصيصا فقتلها ، ثم انطلق بها فدفنها إلى جانب الجبل ، فجاء الشيطان وهو يدفنها ليلاً فأخذ بطرف إزارها فبقي طرف إزارها خارجاً من التراب.

ثم رجع برصيصا إلى صومعته ، فأقبل على صلاته إذ جاء إخوتها يتعاهدون أختهم وكانوا يسألونه عنها ، فقالوا يا برصيصا ! ما فعلت أختنا ؟ فقال : جاء شيطانها فذهب بها فلم أطقه ، فصدقوه وانصرفوا ، فلما أمسوا وهم مكروبون جاء الشيطان أكبرهم في منامه ، فقال ويحك

إن برصيصا فعل بأختك كذا وكذا ودفنها في موضع كذا وكذا ، فقال الأخ : هذا حلم وهو من الشيطان . برصيصا خير من ذلك قال ، فتتابع عليه ثلاث ليال فلم يكترث ، فانطلق إلى الأوسط بمثل ذلك فقال مثل ما قال الأول ، فانطلق إلى أصغرهم بمثل ذلك ، فقال أصغرهم لأخوته : والله لقد رأيت كذا وكذا ، فقال الأوسط : رأيت مثله ، فقال الأكبر : وأنا رأيت مثله فانطلقوا إلى برصيصا ، فقالوا : ما فعلت بأختنا ؟ فقال : أليس قد علمتم فاستحيوا منه ، وقالوا : والله لا نتهمك ، فانصرفوا فجاءهم الشيطان فقال : ويحكم إنها لمدفونة في موضع كذا وكذا ، وإن طرف إزارها خارج من التراب ، فانطلقوا فرأوا أختهم على ما رأوا في النوم ، فمشوا إلى مواليهم وغلمانهم معهم الفؤوس والمساحي فهدموا صومعته وأنزلوه ، ثم كتفوه فانطلقوا به إلى الملك فأقر على نفسه ، وذلك أن الشيطان أتاه فقال : تقتلها ثم تنكر اعترف ، فلما اعترف أمر الملك بقتله وصلبه على خشبة .

فلما صلب أتاه الأبيض ، فقال : أتعرفني ؟ قال : لا . قال : أنا صاحبك الذي علمتك الدعوات فاستجيب لك . ويحك أما أستحييت في أمانة خنت أهلها ، وإنك زعمت أنك أعبد نبي إسرائيل ، أما استحييت؟ فلم يزل يغويه ، ثم قال في آخر ذلك : ألم يكفك ما صنعت حتى أقررت على نفسك ، وفضحت نفسك ، وفضحت أشباهك من الناس ، فإن مت على هذه الحال لم يفلح أحد من نظرائك . قال : فكيف أصنع ؟ قال : تعطيني خصلة واحدة حتى أنجيك مما أنت فيه ، فآخذ بأعينهم وأخرجك من مكانك . قال : وما هي ؟ قال : تسجد لي . قال : أفعل . فسجد له ، ثم قال : يا برصيصا ! هذا الذي أردت منك صارت عاقبة أمرك إليّ أن كفرت بربك إني بريء منك ، إني أخاف الله رب العالمين ، والشيطان كثيراً ما يدخل على الناس من قلة العلم .

قال ثابت : حججت فأتيت إلى حلقة فيها رجلان أخوان أدركا رسول الله ﷺ ، اسم أحدهما محمد . خرج رسول الله ﷺ ، وهما

يتذاكران أمر الوسواس ، فقال : ما تذكران ؟ قالا : يارسول الله ! نتذاكر الوسواس لأن يقع أحدنا من السماء إلى الأرض أحب اليه من أن يتكلم بما يوسوس اليه . قال : وقد أصابكم ذلك ؟ قالوا : نعم يارسول الله ! قال ، فإن ذلك محض الايمان . قال ثابت ، فقلت أنا ياليت أن الله أراحنا من ذلك المحض فانتهراني وقالا : نحدثك عن رسول الله ﷺ وتقول : ياليت إن الله أراحنا ؟ ذكره عبد الله البغوي في معجمه .

فصل

الفقه في الدين حرز من الشيطان :

قال الشيخ عبد القادر الكيلاني رحمه الله : اشتد عليَّ الحر في بعض الأسفار يوماً حتى كدت أن أموت عطشاً ، فظللتني سحابة سوداء وهب عليَّ منها هواء بارد حتى دار ريقي في فمي ، وإذا بصوت يناديني منها يا عبد القادر ! أنا ربك فقلت له : أنت الله الذي لا إله إلا هو ، فعدل الشيخ عن الإسم المشترك كما يقال : رب الدار ورب المال إلى الاسم المختص بالواحد الأحد سبحانه . قال : فناداني ثانياً . فقال ياعبد القادر ! أنا ربك ، وقد أحللت لك ما حرمت عليك . قال ، فقلت له : كذبت بل أنت الشيطان . قال : فتمزقت تلك السحابة وسمعت من ورائي قائلا ياعبد القادر ! نجوت مني بفقهك في دينك ، لقد فتنت بهذه الحيلة قبلك سبعين رجلاً ..

وقيل للشيخ عبد القادر : كيف عرفت أنه الشيطان ؟ قال : من حين قال : قد أحللت لك عرفته لأن بعد رسول الله ﷺ لا تحليل ولا تحريم ، فنفعه الله بالعلم النافع .

قال شيخ الاسلام تقي الدين ابن تيمية : ما عظمت عبد القادر إلا بكلامه في القدر وحكايته مع الشيطان . وقال ابن العربي في كتابه مواقع النجوم : ذكر لنا أن في بعض المنازل من يخاطب الولي بهذا ،

ويقال له : افعل ما حرمت عليك ، وهذا إنما يسمعه من الحق سبحانه لكنه سماع ابتلاء .

قلنا : حاشا لله من هذا ، وإنما هو خطاب من الشيطان ليفتنه ويغره إنه قد وصل ، وأن الحق خاطبه والشيطان كثيراً ما يدخل على الناس من قلة العلم .

وفي حديث الترمذي ، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « فقيه واحد أشدّ على الشيطان من ألف عابد » قال أبو هريرة : « لكل شيء دعامة ودعامة الاسلام الفقه في الدين ولفقيه أشد على الشيطان من ألف عابد » . رواه ابن عدي عنه مرفوعاً .

وعن ابن عباس أنه قال : إن الشياطين قالوا لإبليس : ياسيدنا ! إنّا نفرح بموت العالم ما لا نفرح بموت العابد ، والعالم لا نصيب منه ، والعابد نصيب منه . قال : انطلقوا فانطلقوا إلى عابد وأتوه في عبادته ، فقالوا : نريد أن نسألك ، فقال إبليس : هل يقدر ربك أن يجعل الدنيا في جوف بيضة ؟ قال : لا أدري . قال : أترونه كفر في جوابه ؟ ثم جاء إلى رجل عالم في حلقة يضاحك أصحابه ، فقالوا : إنا نريد أن نسألك ، فقال : سل . فقال : هل يقدر ربك أن يجعل الدنيا في جوف بيضه ؟ قال : نعم . قال : كيف يقول؟ قال : يقول : « كن فيكون » قال : أترون ذلك لا يعدو نفسه وهذا يفسد عليّ عالماً كثيراً .

وفي الصحيحين ، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « يأتي الشيطان أحدكم فيقول : من خلق كذا ، من خلق كذا ، حتى يقول : من خلق ربك ؟ فإذا بلغ ذلك فليستعذ ولينتبه » .

وفي رواية : « لا يزال الناس يتساءلون حتى يقولوا : هذا الله خلق الخلق ، فمن خلق الله ؟ فمن وجد ذلك فليقل آمنت بالله ورسوله » .

وقال الامام أحمد : حدثنا محمد بن اسماعيل بن أبي فديك ، حدثنا الضحاك . يعني : ابن عثمان ، عن هشام ، عن أبيه ، عن عائشة

أن النبي ﷺ قال : « إن أحدَكم يأتيه الشيطانُ فيقول : من خلقك ؟ فيقول : الله . فيقول : فمن خلق الله ؟ فإذا وجد ذلك أحدكم فليقل آمنت بالله ورسوله ، فإن ذلك يذهب عنه » .

وعن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « قال الله تعالى إنَّ أمتك لا يزالون يتساءلون ويقولون ما كذا ، ما كذا ؟ حتى يقولوا : هذا الله خلق الخلق ، فمن خلق الله » ؟ . رواه مسلم .

وللبخاري عنه : « لن يبرحَ الناس يتساءلون : هذا الله خلق كل شيء فمن خلق الله » ؟ .

وللإمام أحمد في المسند : حدثنا محمد بن فضيل ، عن المختار بن فلفل ، عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : « قال الله تعالى إنَّ أمتك لا يزالون يتساءلون فيما بينهم حتى يقول قائلهم : هذا الله تعالى خلق الناس ، فمن خلق الله » ؟ .

وقال ابن اسحاق في السيرة : حدثنا عقبة بن مسلم ، عن أبي هريرة قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « يوشكُ النّاس أن يتساءلون فيما بينهم حتى يقول قائلهم : هذا الله خلق الخلق ، فمن خلق الله ؟ فإذا قالوا ذلك ، فقولوا : قل هو الله أحد * الله الصمد إلى آخرها ، ثم ليتفل عن يساره ثلاثاً ، وليستعذ بالله من الشيطان الرجيم » .

وقال ابن اسحاق أيضاً : حدثت عن سعيد بن جبير أنه قال : أتى رهط من يهود رسول الله ﷺ فقالوا : يا محمد ! هذا الله خلق الخلق ، فمن خلقه ؟ فغضب رسول الله ﷺ حتى امتقع لونه ، فأتاه جبريل ، فسكنه فقال : خفِّض عليك يا محمد ، وأتاه من ربه بجواب ما سألوه عنه : ﴿ قُلْ هُوَ اللهُ أحدٌ * اللهُ الصَّمدُ ﴾ [1] . السورة كلها ، فلما تلاها عليهم قالوا يامحمد ! كيف خلقه ، كيف ذراعه ، كيف عضده ؟ فغضب رسول الله ﷺ ، فأتاه جبريل عليه السلام ،

---

(١) سورة الاخلاص ، الآيتين : ١ ، ٢ .

فقال له مثل ما قال أول مرة ، وجاء من ربه بجواب ما سألوه بقول الله تعالى : ﴿ ومَا قَدَروا اللهَ حقّ قدْره والأرْضُ جميعاً قَبْضتُهُ يوْمَ القيامةِ ﴾ إلى قوله : ﴿ سُبْحانَهُ وتَعالى عمّا يُشْركونَ ﴾ [1] . فالتسلسل في الفاعل والفاعلية قد أمر النبي ﷺ بالاستعاذة منه ، وليقل أعوذ بالله من الشيطان الرجيم وأمر بالايمان بأن يقول : آمنت بالله ورسله ، وأمر أن يقرأ : قل هو الله أحد ، وأن يقول : هو الأول والآخر ، وقد أبطل النبي ﷺ هذا التسلسل لما أورد عليه حيث قال : « لا عدوى ولا طيرة » ، فقيل يا رسول الله ! ما بال الإبل تكون كالظباء فيخالطها الجمل الأجرب فتجرب ؟ فيقول رسول الله ﷺ : فمن أعدى الأول يعني لو كان كل أجرب يستدعي الجرب للزم تسلسل الجرب لكنه باطل بالعيان ، إذ البعير الأول لم يستدع أجرب بعديه ، وانظر إلى قوله ﷺ : « فمن أعدى الأول » مع قوله تعالى : ﴿ أفَعَيِينا بالخلْقِ الأول ﴾ [2] . كيف كل منهما ثلاث كلمات تتضمن دليلا عظيماً ، بهت في تقديره المتكلمون والفلاسفة ، وذلك دليل على تشابه الكلام ، فالنبي ﷺ علم أن وسواس التسلسل في الفاعل يقع للنفوس وأنه معلوم الفساد بالضرورة فأمر ﷺ بالاستعاذة بالله منه والانتهاء منه .

وقد قيل للإمام فخر الدين الرازي : لِمَ لم يأمر النبي ﷺ عند هذا الوسواس بالبرهان المبين لفساد التسلسل والدور ، بل أمر بالاستعاذة ؟

فأجاب : بأن مثل هذا مثل من عرض له كلب ينبح عليه ليؤذيه ويقطع عليه طريقه ، فتارة يضربه بعصاه ، وتارة يأمر من صاحب الكلب أن يزجره . قال : فالبرهان هو الطريق الأول وفيه صعوبة ، والاستعاذة بالله هو الثاني وهذا سهل .

قال بعضهم : هذا يقتضي أن طريقة البرهان أقوى وأكمل ، وليس الأمر كذلك ، بل طريقة الاستعاذة أقوى وأكمل ، فإن دفع الله الوسواس من القلب أكمل من دفع الانسان ذلك عن نفسه .

---

(١) سورة الزمر ، الآية : ٦٧ . (٢) سورة ق ، الآية : ١٥ .

قلنا : هذا الكلام مبناه على أن الأسئلة الواردة على النفس تندفع بطريقين : أحدهما البرهان ، والآخر الاستعاذة ، والنبي ﷺ أمر بها وان طريقة البرهان تقطع الأسئلة الواردة على النفس بدون ما ذكره النبي ﷺ ، وأن النبي ﷺ لم يأمر بالبرهان وهذا خطأ ، بل النبي ﷺ أمر بالبرهان في محله ، وهذا الذي وصل إلى هذا المقام من الوسواس لا ينتفع بالبرهان ، لأن البرهان لا بد أن ينتهي إلى مقدمات ضرورية بديهية أولية يبتديها الله في قلبه ، ثم إن تلك العلوم الضرورية قد يعرض فيها شبهات ووسراس كالشبهات السوفسطائية والشبهات القادحة في تلك العلوم لا يمكن الجواب عنها بالبرهان ، فإذا وقع الشك فيها انقطع طريق النظر والبحث ، ولهذا من أنكر العلوم الضرورية والحسية لم يناظر ، بل إن كان جاحداً معانداً عوقب حتى يعترف بالحق ، وإن كان غالطاً إما لفساد عرض لحسه أو عقله فإنه يعالج ، فإن عجز عن ذلك لفساد في طبيعته عولج بالأدوية الطبيعية أو بالرقي والدعاء والتوجه ، وفي الجملة الوسوسة والشبهة القادحة في العلوم الضرورية لا تزول بالبرهان ، وإنما تزول بالاستعاذة بالله ، فإن الله تعالى هو الذي يعيذ العبد ويجيره من الشبهات المضلة والشهوات المغوية ، ولهذا أمر العبد أن يقول في كل صلاة : ﴿ اهْدنا الصّراط المُستقيم ﴾ [1] . وفي الحديث الإلهي « كلكم ضال إلا من هديته فاستهدوني أهدكم » . وقد شرعت الاستعاذة عند قراءة القرآن ، وعند الغضب ليصرف عنه شر الشيطان عند وجود سبب الخير وهو القراءة ، وعند وجود سبب الشر لمنع الشر الذي يحدثه عندذلك .

وفي الصحيح ، عن رسول الله ﷺ : « ما من قلب إلا وهو بين إصبعين من أصابع الرحمن إن شاء أن يقيمه أقامه ، وإن شاء أن يزيغه أزاغه » . وكانت يمين رسول الله ﷺ ومقلب القلوب وكان كثيراً ما يقول : لا ومقلب القلوب .وفي الحديث : لقلب أشد تقلباً من القدر إذا استجمعت غلياناً والواردات على القلب كثيرة فيها المحمود وفيها المذموم ، والله سبحانه هو القادر على صرف ذلك ، فالاستعاذة بالله طريق

---

(١) سورة الفاتحة ، الآية : ٦ .

مفضية إلى المقصود الذي لا يحصل بالنظر والاستدلال ، وأيضاً النبي ﷺ لم يأمر بالاستعاذة وحدها ، بل أمر العبد أن ينتهي عن ذلك مع الاستعاذة إعلاماً بأن هذا السؤال هو نهاية الوسواس ليس هو من البدايات الذي يزيله ما بعده ، فإن النفس تطلب سبب كل حادث وأول كل شيء حتى تنتهي الغاية والمنتهى . وقد قال تعالى : ﴿ وإنّ إلى ربِّك المُنْتهى ﴾ (١) .

وفي الدعاء المأثور الذي ذكره مالك في الموطأ : « حسبي الله وكفى سمع الله لمن دعا ليس وراء الله مرمى » ، فإذا وصل العبد إلى غاية الغايات ، ونهاية النهايات وجب وقوفه ، فإذا طلب بعد ذلك شيئاً آخر وجب أن ينتهي ، فأمر النبي ﷺ العبد أن ينتهي مع استجارته بالله من وسواس التسلسل ، وأيضاً النبي ﷺ أمر العبد أن يقول آمنت بالله وأن يستعيذ وأن يقول : (قل هو الله أحد) ، وأن يقول : (هو الأول والآخر) كما سبق ، وهذا من باب دفع الضد الضار بالضد النافع ، فإن هذا يدفع عن قلبه الوسواس الفاسد ، ولهذا كان الشيطان يخنس عند ذكر الله ، ويوسوس عند الغفلة عن ذكر الله تعالى . قال الله تعالى : ﴿ ومَنْ يعْشُ عنْ ذكرِ الرّحْمن نُقَيِّضْ لهُ شيْطاناً فهُوَ لهُ قَرينٌ ﴾ (٢) . وشبه هذا الوسواس الذي يعرض لكثير من الناس في العبادات حتى يشككه هل كبر أو لم يكبر ، وهل نوى العبادة أو لم ينوها ، فيشككه في علومه الحسية الضرورية ، فإن ذلك مما يعلمه بقلبه ويسمعه بأذنه ، وقصد الصلاة مثل قصد الأكل والشرب ، وعلم ذلك كله علم ضروري أولي لا يتوقف على البرهان ، بل هو مقدمات البرهان ، وهذا الوسواس يزول بالاستعاذة وانتهاء العبد وأن يقول إذا قال : لم تغسل وجهك بل غسلت وجهي ، وإذا خطر له أنه لم ينو بقلبه ، بل قد نويت فيثبت على الحق ويدفع ما يعارضه من الوسواس ، فيرى الشيطان وقوفه وثباته على الحق ، فيندفع عنه ، وإلا فمتى رآه قابلا للشكوك مستمعاً

---

(١) سورة النجم ، الآية : ٤٢ .
(٢) سورة الزخرف ، الآية : ٣٦ .

إلى الوسواس والخطرات أورد عليه من ذلك ما يعجز عن دفعه ، وصار قلبه مورداً لما يوحيه شياطين الإنس والجن من زخرف القول ، وانتقل من ذلك إلى غيره إلى أن يسوقه الشيطان إلى الهلكة : ﴿ فاللهُ وليُّ الّذينَ آمنُوا يُخْرجُهُم منَ الظُّلُماتِ إلى النُّور والّذينَ كَفَروا أولياؤهُم الطّاغوتُ يُخْرجُهُم من النُّورِ إلى الظُّلُمات﴾[1] ، ﴿ إنّ الّذينَ اتّقوا إذا مسّهُم طَائفٌ منَ الشّيْطانِ تَذَكّروا فإذا هُمْ مُبصرون* واخْوانهُم يمُدُّونهُم في الغيِّ ثمّ لا يُقْصرونَ ﴾[2] .

فصل

يشرع أن يستعيذ بالله من الشيطان الرجيم في مواضع :

منها : عند قراءة القرآن كما سبق .

ومنها : عند وسواس التسلسل كما سبق .

ومنها : عند الغضب .

عن سليمان بن صرد قال : رأيت رجلين اختصما عند النبي ﷺ ، فغضب أحدهما حتى أحمرّ وجهه فقال رسول الله ﷺ : « إني لأعلم كلمة لو قالها لذهب عنه ما يجد لو قال : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم » قال : وهل بي من جنون ؟ متفق عليه ، فالغضب سبب الشر فشرعت الاستعاذة عنده .

ومنها : عند الخلاء اجماعاً . عن أنس رضي الله عنه قال : كان النبي ﷺ إذا دخل الخلاء قال : « اللهم إني أعوذ بك من الخبث والخبائث » متفق عليه .

وقال ابن أبي شيبة : حدثنا هشيم ، عن أبي معشر ، عن عبد الله ابن أبي طلحة ، عن أنس قال : كان النبي ﷺ إذا دخل الخلاء قال :

---

(١) سورة البقرة ، الآية : ٢٥٧ .
(٢) سورة الأعراف ، الآية : ٢٠١ .

« بسم الله اللهم إني أعوذ بك من الخبث والخبائث » . أبو معشر اسمه نجيح ضعيف .

قال الامام أحمد في رواية أبي طالب يقول : أعوذ بالله من الخبث والخبائث وما دخلت قط ولم أقله إلا أصابني ما أكره فيه . الخُبُث بضم الخاء والباء جمع خبيث ، كرغيف ورغف ، وهو الذكر من الشياطين والخبائث : جمع خبيثة ، وهي الأنثى منهم . استعاذة من ذكران الشياطين وإناثهم ، وأكثر الروايات الخبث باسكان الباء .

قال الخطابي : هو قول المحدثين وهو غلط كذا قال ويحتمل تصويبه وأن يكون كالأول مخففاً منه كقولهم : في كُتُب ورُسُل كتب ورسل ، فقال أبو عبيدة : الخُبْث بسكون الباء الشر ، والخبائث الشياطين لأن فعيلا صفة يجمع على فعلا مثل : ظريف وظرفاً ، وكريم وكرماً ، وإنما تجمع على فعيل إذا كان اسماً مثل : رغيف ورغف ونذير ونذر ، لأنه أكثر معنى . وقيل : الخبث : الشياطين ، والخبائث : المعاصي .

وعن أبي أمامة قال : قال رسول الله ﷺ : « لا يعجز أحدكم إذا دخل مرفقه أن يقول : « اللهم إني أعوذ بك من الرجس النجس الخبيث المخبث الشيطان الرجيم » . رواه ابن ماجه بإسناد ضعيف .

فإن قيل : كان عليه السلام معصوماً من الشياطين ومردة الجن ومن كل طارق شر ، فما معنى استعاذته ؟

قلنا : فيه فائدتان : أحدهما ترجع إليه وهي لزوم الخضوع لربه واللجوء اليه وإنه سبحانه هو الذي عصمه ، وثانيها التشريع لأمته .

الفصل الثامن :

في بكاء الشيطان

قال ثابت البناني : بلغني أن إبليس بكى حين نزلت هذه الآية : ﴿ والّذينَ إذا فَعَلُوا فاحِشةً أوْ ظَلَمُوا أنْفُسَهُم ذكَروا الله فاسْتَغْفروا لذنوبهم ، ومَنْ يَغْفِرُ الذُّنوب إلاّ الله ، ولَمْ يُصرُّوا على ما فَعَلُوا وهُمْ يعْلَمُونَ * أولئكَ جَزَاؤهم مَغْفرةٌ منْ ربِّهم وجنّاتٌ تجْري منْ تحتها الأنْهار خالدينَ فيها ، ونِعْمَ أجْرُ العاملينَ ﴾ (١) .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «إذا قرأ ابنُ آدم السّجدة فسجدَ اعتزل الشيطان يبكي فيقول ياويله أمر ابن آدم بالسجود فسجد فله الجنّة وأُمرتُ بالسجود فأبيت فلي النار » . رواه مسلم . وقد احتج به من أوجب سجود التلاوة ، فذكر عنه الأمر بالسجود ، ولم يعقبه بإنكار ، فدل على أنه صحيح والأمر للوجوب ، وهذا قول سفيان الثوري ، وأبي حنيفة وأصحابه ، وأجيب عن هذا الاستدلال بأن تسمية هذا أمراً من كلام إبليس ولا حجة فيه .

فإن قالوا : حكاه النبي ﷺ ولم ينكره .

قلنا : قد حكى عن غيره من أقوال الكفار ، ولم يبطله حال الحكاية ثم المراد به أمر ندب لا إيجاب ، فإن السنّة قد دلت على عدم الايجاب وهو قول أكثر العلماء .

---

(١) سورة آل عمران ، الآيتان : ١٣٥ ، ١٣٦ .

وجاء عن أربعة من الصحابة : عمر وسلمان وابن عباس وعمران ابن حصين ، وقد احتج الامام أحمد على هذا بحديث زيد بن ثابت قرأت على النبي ﷺ (والنجم) فلم يسجد فيها متفق عليه ، وللدارقطني فلم يسجد منا أحد ، ولما لم يذكر زيد سبب ترك السجود علم أن تركه لأجل أنه مخير .

وعن عمر رضي الله عنه : أنه قرأ يوم الجمعة على المنبر سورة النحل ، حتى إذا جاء السجدة نزل فسجد وسجد الناس ، حتى إذا كانت الجمعة القابلة قرأ بها حتى إذا جاء السجدة قال : أيها الناس ! من سجد فقد أصاب ، ومن لم يسجد فلا إثم عليه ولم يسجد عمر . رواه البخاري ، وله في رواية . قال عمر رضي الله عنه : إن الله لم يفرض السجود إلا أن نشاء ، وهذا الفعل من عمر والقول بمحضر من الصحابة ولم ينكره أحد ، فكان دليلا ظاهراً على إجماعهم ، واعتذرت الحنفية عن قول عمر رضي الله عنه بأنه نفى الفريضة لا الوجوب ، وهم قد فرقوا بين الفرض والواجب .

قلنا : لو كان سجود التلاوة واجباً لما تركه لا سيما في ذلك المقام الذي يتأسى به الناس .

رعن أحمد رواية ثالثة : أن سجود التلاوة يجب في الصلاة خاصة قال : في رواية ثالثـــة – إن سجود التلاوة يجب في الصلاة خاصة ، وقال في رواية صالح : لا يجب سجود التلاوة ، واحتج بحديث زيد في النجم ، وبحديث عمر على المنبر ، ثم قال أحمد : إلا أنه إن قرأ بها في الصلاة فيجب أن لا يدع السجود ، وهو في الصلاة فإنه أوكد منه في غير الصلاة. وقال في رواية الأثرم وحنبل : إن كان في الصلاة فأحب أن يسجد لأنه أوكد ، فجعل من جعل من الأصحاب هذا رواية ثالثة ، ويحتمل أن يكون ذلك تأكيداً للاستحباب في الصلاة ، لأنه لو وجب في الصلاة لبطلت الصلاة بتركه لأنه بالتلاوة صار من أفعالها ولا تبطل بتركه إجماعاً ذكره الشيخ مجد الدين .

الفصل التاسع :

في رنة الشيطان وندائه ليلة البيعة

يندب المشركين واجتماع الشيطان بهم في دار الندوة في أمر النبي ﷺ ونداء الشيطان وصياحه بقتل النبي ﷺ يوم أُحُد .

ذكر بقي بن مخلد في تفسيره : أن إبليس رن أربع رنات : رنة حين لعن ، ورنة حين أهبط ، ورنة حين ولد رسول الله ﷺ ، ورنة حين أُنزلت فاتحة الكتاب .

قال سعيد بن جبير : « لما لعن الله إبليس حول صورته عن صورة الملائكة ورن رنة ، فكل رنة منها في الدنيا إلى يوم القيامة » . رواه ابن أبي حاتم ، وعن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس قال : « لما افتتح رسول الله ﷺ مكة رن إبليس رنة اجتمعت اليه جنوده ، فقال أيئسوا أن ترتد أمة محمد ﷺ على الشرك بعد يومكم هذا ، ولكن افتنوهم في دينهم ، وافشوا فيهم النوح » . رواه الطبراني والحافظ الضياء في كتاب المختارة . الرنين : الصوت ، وقد رن يرن رنيناً . ولم يتكلم على ذلك الحافظ أبو موسى ولا ابن الأثير في كتاب النهاية وهو مما يلزمهما .

وقال سعيد بن جبير : « لما رأى إبليس النبي ﷺ قائماً يصلي رن ، ولما افتتح مكة رن رنة أخرى اجتمعت اليه ذريته ، فقال : ايئسوا أن ترتد أمة محمد ﷺ إلى الشرك بعد يومكم هذا ، ولكن افتنوهم عن دينهم ، وأفشوا فيهم النوح والشعر » . رواه ابن أبي الدنيا .

وقال ابن أبي حاتم في تفسيره في قوله تعالى : ﴿ وأشْرقتِ الأرْضُ

بنُورِ ربِّها ﴾ [1] . حدثني أبو عبد الله الطبراني ، أخبرنا حفص بن عمر ، حدثنا الحكم بن أبان ، عن عكرمة قال : لما ولد رسول الله ﷺ أشرقت الأرض نوراً وقال إبليس : لقد ولِدَ الليلة زلد يفسد علينا أمرنا ، فقال له جنوده : فلو ذهبت اليه فخبلته ، فلما دنا من النبي ﷺ بعث الله جبريل عليه السلام ، فركضه ركضة فوقع بعدن .

فصل

في صراخ الشيطان لدى مبايعة الأنصار لرسول الله ﷺ :

وأما صراخ الشيطان في بيعة الأنصار لرسول الله ﷺ ليلة العقبة ففي المغازي والسير لما اجتمعوا لبيعة رسول الله ﷺ قال العباس : يا معشر الخزرج ! هل تدرون على ما تبايعون هذا الرجل ؟ قالوا : نعم . قال : إنكم تبايعونه على حرب الأحمر والأسود من الناس ، فإن كنتم ترون أنكم إذا أنهكت أموالكم مصيبة ، وأشرافكم قتلا أسلمتموه ، فمن الآن فهو والله إن فعلتموه خزي الدنيا والآخرة ، وإن كنتم ترون أنكم وافون بما وعدتموه اليه على نهكة الأموال ، وقتل الأشراف فخذوه فهو والله خير الدنيا والآخرة . قالوا : فإنا نأخذه على مصيبة الأموال وقتل الأشراف . فما لنا بذلك يا رسول الله إن نحن وفينا ؟ قال : الجنة . قالوا : ابسط يدك ، فبسط يده فبايعوه ، فأما عاصم بن عمر بن قتادة فقال : والله ما قال ذلك العباس إلا ليشد العقد لرسول الله ﷺ في أعناقهم ، وأما عبد الله بن أبي بكر فقال : ما قال ذلك العباس ، إلا ليؤخر القوم تلك الليلة رجاء أن يحضرها عبد الله بن أبي بن سلول ، فيكون أقوى لأمر القوم ، فالله أعلم أي ذلك كان .

ولما أراد الله عز وجل إظهار دينه واعزاز نبيه وانجاز موعده له ، خرج رسول الله ﷺ في الموسم الذي لقي فيه النفر من الأنصار ، فعرض نفسه على قبائل العرب كما كان يصنع في كل موسم ، فبينما هو عند

---

(١) سورة الزمر ، لآية : ٦٩ .

العقبة لقي رهطاً من الخزرج أراد الله بهم خيراً فقال لهم : من أنتم ؟ فقالوا : نفر من الخزرج . قال : أفلا تجلسون أكلمكم ؟ قالوا : بلى . فجلسوا معه فدعاهم إلى الله وعرض عليهم الاسلام ، وتلا عليهم القرآن فقال بعضهم لبعض : تعلموا والله إنه النبي الذي توعدكم به اليهود ، فلا يسبقنكم اليه فصدقوا وقبلوا ما عرضه عليهم من الاسلام ، وقالوا : قد تركنا قومنا بينهم من الشر والعداوة ما بينهم ، فعسى الله أن يجمعهم بك فسندعوهم إلى أمرك ، فإن الله يجمعهم عليك فلا رجل أعز منك ، ثم انصرفوا عن رسول الله ﷺ راجعين إلى بلادهم قد آمنوا وصدقوا ، فلما قدموا المدينة إلى قومهم ذكروا لهم رسول الله ﷺ ، ودعوهم إلى الاسلام حتى فشا فيهم ، فلم يبق دار من دور الأنصار إلا وفيها ذكر رسول الله ﷺ ، حتى إذا كان العام المقبل وافى الموسم من الأنصار اثنا عشر رجلا ، فلقوه بالعقبة وهي العقبة الأولى ، فبايعوا رسول الله ﷺ على بيعة النساء . أي : لم يبايعوه على القتال ، فكان يأخذ عليهن العهد ، فإذا أقررن بالسنتهن قال : بايعتكن وما مست يده يد امرأة في مبايعة قالته عائشة . وقال الشعبي : كن يأخذن بيده في البيعة من فوق ثوبه . وقيل : كان رسول الله ﷺ يغمس يده في إناء وتغمس المرأة يدها فيه عند المبايعة فيكون ذلك عقداً للبيعة ، وهذا رواية عن ابن اسحاق وقطع به النقاش ، وفيه نظر .

وقال عبادة بن الصامت : كنت فيمن حضر العقبة الأولى وكنا اثني عشر رجلا ، فبايعنا رسول الله ﷺ على بيعة النساء ، على أن لا نشرك بالله شيئاً ولا نسرق ولا نزني ولا نقتل أولادنا ولا نأتي ببهتان نفتريه بين أيدينا وأرجلنا ، ولا نعصيه في معروف ، فإن وفيتم فلكم الجنة ، وإن أصبتم من ذلك شيئاً فأخذتم بحده في الدنيا فهو كفارة له ، وإن سترتم عليه في الدنيا إلى يوم القيامة ، فأمركم إلى الله إن شاء عذب وإن شاء عفا ، فلما انصرف القوم بعث رسول الله ﷺ معهم مصعب ابن عمير ، وأمره أن يقربهم القرآن ، ويعلمهم الإسلام ، ويفقههم في الدين ، فكان يسمى المقرىء بالمدينة مصعب ، ففتح المدينة بالقرآن ، وأسلم معه خلق كثير ، ثم إن مصعباً رجع إلى مكة وخرج من خرج

من الأنصار إلى الموسم مع حجاج قومهم من أهل الشرك ، حتى قدموا مكة فواعدوا رسول الله ﷺ العقبة من أوسط أيام التشريق ، حتى إذا أراد الله بهم ما أراد من كرامته ونصر نبيه وإعزاز دينه .

قال كعب : فلما كانت الليلة التي واعدنا رسول الله ﷺ لها ، ومعنا عبد الله بن حرام أبو جابر سيد من ساداتنا ، وشريف من أشرافنا ، قلنا له : إنّا نرغب بك أن تكون حطباً للنار غداً . ثم دعوناه إلى الاسلام وأخبرناه بميعاد رسول الله ﷺ إيانا العقبة ، فأسلم وشهد معنا العقبة ، وكان نقيباً ، فبتنا تلك الليلة مع قولنا في رحالنا ، حتى إذا مضى ثلث الليل خرجنا من رحالنا لميعاد رسول الله ﷺ نتسلسل تسلسل القطا مستخفين حتى اجتمعنا في الشعب ، ونحن ثلاثة وسبعون رجلاً ومعنا امرأتان ، فأتانا رسول الله ﷺ ومعه عمه العباس بن عبد المطلب ، وهو يومئذ على دين قومه إلا أنه أحب أن يحضر أمر ابن أخيه ويتوثق به ،

فلما جلس . قال العباس : يا معشر الخزرج ! إن محمداً منا حيث قد علمتم ، وقد منعناه من قومنا ، فهو في عز ومنعة في بلده ، وإنه قد أبى إلا الاحتياز اليكم واللحاق بكم ، فإن كنتم وافون له بما وعدتموه ومانعوه ممن خالفه فأنتم وما تحملتم من ذلك ، وإن كنتم ترون إنكم مسلموه وخاذلوه بعد الخروج به اليكم ، فمن الآن فدعوه . قال : فقلنا : قد سمعنا ما قلت ، فتكلم يارسول الله ، فخذ لنفسك ولربك ما أحببت . قال ، فتكلم رسول الله ﷺ ، فتلا القرآن ورغب في الاسلام ، ثم قال : أبايعكم على أن تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم ، قال : فأخذ البراء بن معرور بيده ، ثم قال : نعم ، فوالذي بعثك بالحق لنمنعنك مما نمنع منه ازرنا ، فبايعنا يارسول الله ، فنحن والله أهل الحروب والحلقة ورثناها كابراً عن كابر . قال : فاعترض القول والبراء يكلم الرسول ﷺ أبو الهيثم بن التيهان ، فقال : يارسول الله ! إن بيننا وبين الرجال حبالاً ، وإنا قاطعوها يعني اليهود ، فإن فعلنا ذلك ، ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا . قال ، فتبسم رسول الله ﷺ ، ثم قال : بل الدم الدم والهدم الهدم ، أنا منكم وأنتم مني أحارب من حاربتم وأسالم من سالمتم .

قال كعب بن مالك : كان أول من ضرب على يد النبي ﷺ البراء ابن معرور ، ثم بايع القوم ، فلما بايعنا رسول الله ﷺ صرخ الشيطان من رأس العقبة بأبعد صوت سمعته قط . يا أهل الجباجب ! والجباجب: المنازل . هل لكم في مذمم والصباة قد اجتمعوا على حربكم ؟ فقال رسول الله ﷺ : هذا أزب العقبة أي عدو الله ، أما والله لأفرغن لك . قال : ثم قال رسول الله ﷺ : « امضوا إلى رواحلكم » .

عن الحسن قال لما بويع رسول الله ﷺ بمنى صرخ الشيطان ، فقال رسول الله ﷺ : هذا أبو ليلى قد أنذر بكم فتفرقوا ، فقال عباس بن عبادة : والذي بعثك بالحق بشيراً ونذيراً إن شئت لنملين على أهل منى غداً بأسيافنا فقال رسول الله ﷺ : لم نؤمر بذلك ، ولكن ارجعوا إلى رحالكم ، فرجعنا إلى رحالنا فنمنا عليها حتى أصبحنا ، فلما أصبحنا جاءتنا قريش ، فقالوا : يا معشر الخزرج ! بلغنا أنكم أتيتم صاحبنا تخرجونه من بين أظهرنا وتبايعونه على حربنا ، وإنه والله ما من حي من العرب أبغض الينا من أن ينشب الحرب بيننا وبينهم منكم . قال : فحلف مشركو قومنا بالله إنه ما كان من هذا الشيء . قال : وصدقوا لم يعلموا ، وبعضنا ينظر إلى بعض . قال ، ثم قام القوم وفيهم الحرث بن هشام وعليه نعلان جديدان ، فقلت له كلمة ، فخلعهما من رجليه ثم رمى بهما إليّ وقال : والله لتنتعلنهما . قال ، فقيل لي اردد اليه نعليه ، فقلت : والله لا أردهما . قال : والله صالح والله لئن صدق الفال لأسلبنه .

فصل :

في مجيء الشيطان في صورة شيخ نجدي في دار الندوة : لما اجتمع قريش للتشاور في أمر رسول الله ﷺ

قال أهل العلم بالاخبار : هاجر أصحاب النبي ﷺ مثل عمر ابن الخطاب ، وابنه عبد الله ، وأخيه زيد بن الخطاب ، وعثمان بن عفان ، وطلحة بن عبيد الله ، وحمزة بن عبد المطلب عم رسول الله ﷺ

وزيد بن حارثة وغيرهم ، وأقام رسول الله ﷺ بعد أصحابه ينتظر الإذن في الهجرة ، ولم يتخلف معه بمكة أحد من المهاجرين ، إلا من حبس أو فتن ، إلا أبو بكر الصديق وعلي بن أبي طالب . وكان أبو بكر كثيراً ما يستأذن رسول الله ﷺ في الهجرة ، فيقول له رسول الله ﷺ : لا تعجل لعل الله أن يجعل لك صاحباً ، فيطمع أبو بكر أن يكون هو ، ولما رأت قريش أن لرسول الله ﷺ شيعة وأصحاباً من غير بلدهم ، ورأوا خروج المهاجرين اليهم حذروا خروج الرسول ﷺ ، وعلموا أنه قد أجمع لحربهم فاجتمعوا في دار الندوة ، وهي دار قصي بن كلاب . وكانت قريش لا تقضي أمراً إلا فيها يتشاورون فيما يصنعون برسول الله ﷺ حين خافوه .

قال ابن عباس : لما خرجوا في اليوم الذي اتعدوا له كان ذلك اليوم يسمى الزحمة ، فاعترض إبليس في هيئة شيخ جليل عليه بت أي كساء غليظ ، فوقف على باب الدار ، فلما رأوه قالوا : مَنِ الشيخ ؟ قال : شيخ من أهل نجد سمع بالذي اتعدتم له ، فجاء ليسمع ما تقولون ، وعسى أن لا يعدمكم منه رأياً ونصحاً . قالوا : فادخل ، وقد اجتمع أشراف قريش ، فقال بعضهم لبعض : إن هذا الرجل قد كان من أمره ما قد رأيتم ، وإنا والله ما نأمنه عن الوثوب علينا فاجمعوا فيه رأياً ، فقال قائل : أحبسوه في الحديد وأغلقوا عليه باباً ثم تربصوا به ما أصاب أمثاله من الشعراء من الموت ، فقال الشيخ النجدي : لا والله ما هذا لكم برأي ، والله لئن حبستموه كما تقولون ليخرجن أمره إلى أصحابه ، فيثبوا عليكم فينتزعوه منكم . ما هذا لكم برأي ، فانظروا في غيره ، فتشاوروا ، فقال قائل : نخرجه من بين أظهرنا ، ثم إذا خرج فوالله لا نبالي أين ذهب . فقال الشيخ النجدي : لا والله ؟ ما هذا لكم برأي ألم تروا حسن حديثه وحلاوة منطقه وغلبته على قلوب الرجال بما يأتي به ، والله ما هو رأي . فقال أبو جهل : والله إن لي رأياً . قالوا : وما هو يا أبا الحكم ؟ قال : أرى أن نأخذ من كل قبيلة شاباً ، ثم نعطي كل فتى سيفاً ، ثم يعمدوا اليه فيضربوه بها ضربة رجل واحد ، فيقتلوه ، فنستريحوا منه ، فإنهم إذا فعلوا ذلك تفرق دمه في القبائل جميعاً ، فلم يقدر بنو

عبد مناف على حرب قومهم جميعاً ، فرضوا بالعقل فعقلنا لهم . فقال الشيخ النجدي : هذا هو الرأي الذي لا أرى غيره ، فتفرق القوم على ذلك ، فأتى جبريل النبي ﷺ فقال : لا تبت الليلة على فراشك .

فلما كان عتمة الليل اجتمعوا على بابه يرقبونه حتى ينام ، فيثبون عليه ، فلما رأى رسول الله ﷺ مكانهم قال لعلي بن أبي طالب : نم على فراشي وتسج بردائي الأخضر ، فإنه لن يخلص اليك شيء تكرهه منهم ، فلما اجتمعوا على بابه قال أبو جهل : إن محمداً يزعم أنكم إن تابعتموه على أمره كنتم ملوك العرب والعجم ، ثم بعثتم من بعد موتكم ، وجعلت لكم كجنات الأردن ، وإن لم تفعلوا كان فيكم ذبح ، ثم بعثتم من بعد موتكم ، ثم جعلت لكم نار تحرقون فيها .

قال : وخرج عليهم رسول الله ﷺ فأخذ حفنة من تراب ، ثم قال : نعم أنا أقول ذلك أنت أحدهم ، فأخذ الله على أبصارهم عنه ، فلا يرونه ، وجعل ينثر ذلك التراب على رؤوسهم ، وهو يتلو عليهم : ﴿يس * والقرآن الحكيم﴾ إلى قوله : ﴿فأغشيناهم فهم لا يبصرون﴾[1] ولم يبق منهم رجلا إلا وقد وضع على رأسه تراباً ، ثم انصرف ، فأتاهم آت ، فقال : ما تنتظرون ههنا ؟ قالوا : محمداً . قال : خيبكم الله . قد والله خرج عليكم محمد ، ثم ترك منكم رجلا إلا وقد وضع على رأسه تراباً وانطلق لحاجته ، قال : فوضع كل واحد منهم يده على رأسه ، فإذا عليه تراب ، ثم جعلوا يتطلعون فيرون علياً على الفراش مسجى ببرد رسول الله ﷺ ، فيقولون : والله ! إن هذا لمحمد نائم في برده ، فلم يبرحوا كذلك حتى أصبحوا ، فقام علي من الفراش ، فقالوا : والله لقد صدقنا الذي كان حدثنا ، وانزل الله سبحانه في ذلك : ﴿ وإذْ يمكُرُ بكَ الّذينَ كَفَرُوا ليُثْبِتُوكَ أو يقْتلُوكَ أو يخْرجوكَ ويمكرون ويمكُرُ اللهُ ، واللهُ خيرُ الماكرين ﴾[2] . وقوله تعالى : ﴿ أمْ يقولون شاعرٌ نتربّصُ بهِ ريْبَ المنُون ﴾ إلى قوله : ﴿ من المتربّصينَ ﴾[3] .

---

(١) سورة يس ، الآيات : ١ – ٩ .
(٢) سورة الأنفال ، الآية : ٣٠ .
(٣) سورة الطور ، الآية : ٣٠ ، ٣١ .

واختلف الناس لأي شيء قال الشيطان إني من أهل نجد ؟ فقيل : لأنهم قالوا : لا يدخل معهم في المشاورة أحد من أهل تهامة ، لأن هواهم مع محمد ، فلذلك تمثل لهم في صورة شيخ نجدي ، وقيل : لأن نجداً منها يطلع قرن الشيطان ، كما قال رسول الله ﷺ لما قيل له : وفي نجدنا يارسول الله ؟ قال : « هنالك الزلازل والفتن وفيها يطلع قرن الشيطان » . فلم يبرك عليها كما برك على اليمن والشام ، وقد قيل : إن الشيطان تمثل في صورة شيخ نجدي أيضاً حين حكموا رسول الله ﷺ في أمر الركن من يرفعه ، فصاح الشيخ النجدي : أرضيتم أن يليه هذا الغلام دون أشرافكم ؟ والحكمة فيه ما ذكرنا .

فصل

في صياح الشيطان أن النبي ﷺ قُتل يوم أُحُد :

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : لما نصر الله عز وجل نبيه ﷺ كما نصره يوم أُحد ، فأنكر ذلك فقال ابن عباس : بيننا وبين من أنكر ذلك كتاب الله عز وجل . إن الله تعالى يقول في يوم أُحد : ﴿ ولقد صدقكم اللهُ وعْده إذ تحسُّونهم بإذنه ﴾ [1] . قال ابن عباس : والحس : القتل ، حتى إذا فشلتم وتنازعتم في الأمر وعصيتم من بعد ما أراكم ما تحبون . منكم من يريد الدنيا ، ومنكم من يريد الآخرة ، ثم صرفكم عنهم ليبتليكم ، ولقد عفا عنكم والله ذو فضل على المؤمنين والمعنى : بهذه الرماة : وذلك أن النبي ﷺ أقامهم في موضع ثم قال : « احموا ظهورنا فإن رأيتمونا نقتل فلا تنصرونا ، وإن رأيتمونا قد غنمنا فلا تشركونا ، فلما غنم النبي ﷺ وأباحوا عسكر المشركين أكب الرماة جميعهم في العسكر ينهبون ، وقد التقت الصفوف ، فلما أخل الرماة تلك الخلة التي كانوا فيها دخلت الخيل من ذلك الموضع على أصحاب رسول الله ﷺ أول النهار ، حتى قتل من المشركين سبعة أو تسعة

(١) سورة آل عمران ، الآية : ١٥٢ .

ولواجا جولة نحو الجبل ولم يبلغوا ، وإنما كانوا تحت المهراس ، وصاح الشيطان : قتل محمد ، فلم يشك في أنه قد قتل ، فما زلنا كذلك حتى طلع رسول الله ﷺ بين السعدين نعرفه بكتفيه إذا مشى قال : ففرحنا حتى كأنه لم يصبنا ما أصابنا ، فأومأ نحونا وهو يقول : « اشتد غضب الله على قوم أدموا وجه نبيهم رسول الله ﷺ » . ويقول مرة أخرى : « اللهم إنه ليس لهم أن يعلو » ، فمكث ساعة فإذا أبو سفيان يصيح في أعلى الجبل : اعل هبل مرتين يعني إلهه . أين ابن أبي كبشة ؟ أين ابن أبي قحافة ؟ أين ابن الخطاب ؟ فقال عمر : يارسول الله ! ألا أجيبه ؟ قال : بلى . قال : فلما قال اعل هبل . قال عمر : الله أعلى وأجل ، ثم قال : أين ابن أبي كبشة ، أين ابن أبي قحافة ، أين ابن الخطاب ؟ فقال : هذا رسول الله ﷺ ، وهذا أبو بكر ، وهذا عمر . قال ، فقال أبو سفيان : يوم بيوم بدر ، والأيام دول ، وأن الحرب سجال . قال : فقال عمر : لا سواء قتلانا في الجنة وقتلاكم في النار . قال أبو سفيان : إنكم ستجدون في قتلاكم مثلة ، ولم يكن ذلك على رأيي ثم أدركته حمية الجاهلية ، فقال : أما أنه كان ذلك لم نكرهه . رواه الامام أحمد في المسند .

الفصل العاشر :

في أحقر أوقات الشيطان ودعائه على نفسه بالويل والثبور

عن العباس بن مرداس السلمي رضي الله عنه قال : دعا رسول الله ﷺ لأمته عشية عرفة بالمغفرة والرحمة ، فأكثر الدعاء فأجابه : إني قد فعلت الا ظلم بعضهم بعضاً فأما ما بيني وبينهم فقد غفرته ، فقال يارب ! إنك قادر على أن تثبت هذا المظلوم خيراً من مظلمته وتغفر لهذا الظالم ، فلم يجب تلك العشية بشيء فلما كانت غداة المزدلفة أعاد الدعاء فأجابه : إني قد غفرت . قال : تبسم رسول الله ﷺ فقال له بعض أصحابه : يارسول الله ! إنك تبسمت في ساعة لم تكن تبسم فيها ، فقال : « تبسمت من عدو الله إبليس إنه لما علم أن الله سبحانه قد استجاب لي أخذ يدعو بالويل والثبور ويحثي التراب على رأسه » . رواه عبد الله أحمد في المسند ، وأبو داود ، وابن ماجه ، والطبراني ، والحافظ الضياء في المختارة .

وفي الموطأ : عن ابراهيم بن أبي عبلة ، عن طلحة بن عبيد الله ابن كريز قال رسول الله ﷺ : « ما رؤي الشيطان يوماً هو فيه أصغر ولا أحقر ولا أدحر ، ولا أغيظ منه في يوم عرفة وما ذاك إلا لما رأى من نزول رحمة الله وتجاوزه عن الذنوب العظام إلا ما رؤي يوم بدر . قيل : وما رأى يوم بدر يارسول الله ؟ قال : أما إنه رأى جبريل يزع الملائكة » .

وروى أبو عثمان الصابوني عن رجل كان أميراً ببلاد الروم ،

فهرب من بعض الحصون قال : فكنت أسير بالليل ، وأكمن بالنهار ، فبينما أنا ذات ليلة أمشي بين جبال وأشجار إذا أنا بحس ، فراعني ذلك ، فنظرت ، فإذا راكب بعير ، فازددت رعباً ، وذلك أنه لا يكون ببلاد الروم بعير ، فقلت : سبحان الله في بلاد الروم راكب بعير إن هذا لعجب ، فلما انتهى إليّ قلت : يا عبد الله ! من أنت ؟ قال : لا تسأل . قلت : إني أرى عجباً ، فأخبرني . قال : لا تسأل . فأبيت عليه . قال : أنا إبليس ، وهذا وجهي من عرفات وافقتهم عشية اليوم أطلع عليهم ، فنزلت عليهم المغفرة ووهب بعضهم لبعض ، فدخلني الهم والحزن والكآبة ، وهذا جهني إلى القسطنطينية أتفرح بما أسمع من الشرك بالله والدعاء أن له ولداً ، فقلت : أعوذ بالله منك قال : فلما قلت هذه الكلمات لم أر شيئاً .

وقال علي بن الجارود : خرجت أنا وصاحبي في طلب الحديث ، فمررنا على قرية لوط ، فبينما نحن نمشي في تلك السكك في يوم عرفة إذا رجل كوسج ، فقال : من أنتم ؟ فأخبرناه فانصرف ، فقلنا له : من أنت ؟ فتغافل عنا ، فقلنا له : من أنت ؟ فتغاقل . فقلنا : أنت الشيطان إبليس ؟ قال : نعم . قلنا : وما جاء بك إلى ههنا ؟ قال : إني كنت بالموقف ، فنزلت الرحمة ، فغفر الله لرجل يعمل المعاصي خمسين سنة ، فشق عليّ فخرجت إلى بلاد قوم لوط أخفف عن نفسي ما أجد .

وقال الفضيل بن عياض : « ما من شيء أبغض على إبليس من أن يرى ابن آدم نائماً يقول متى يقوم حتى يعصى الله » . ذكره ابن أبي الدنيا . قال تعالى في قصة بدر : ﴿ وإذْ زيّنَ لهُمُ الشّيْطانُ أعْمالهم وقالَ لا غالبَ لكُم اليومَ منَ النّاس وإنّي جارٌ لكُم فلمّا تراءت الفِئتان نَكَصَ على عَقبيه وقالَ إنّي بريءٌ منكُم إنّي أرى ما لاترون ﴾[1] وذلك أن قريشاً لما عزمت على المسير ذكرت ما بينها وبين بكر بن وائل من العداوة ، فكاد ذلك يثبطهم ، فجاء إبليس في صورة سراقة بن مالك ابن جعشم لأنه من بني مالك ، فقال : لا غالب لكم اليوم من الناس ،

(١) سورة الأنفال ، الآية : ٤٨ .

وإني جار لكم ، فلما تراءت الفئتان أي التقت الفئتان والجمعان ، ورأى إبليس الملائكة علم أنه لا طاقة له بهم نكص على عقبيه ، أي : ولى مدبراً ورجع القهقرى على قفاه هارباً ، وكان في صف المشركين على صورة سراقة بن مالك يحرض على القتال ، آخذاً بيد الحرث بن هشام فنكص على عقبيه ، فقال له الحرث بن هشام : أفراراً من غير قتال ، وجعل يمسكه فيدفعه في صدره ، وانهزم فانهزم الناس ، فلما بلغ ذلك سراقة بن مالك قال : والله ما شعرت بمسيركم حتى علمت بهزيمتكم ، فلما أسلموا علموا أن ذلك من الشيطان وقال : ﴿ إني بريء منكم إني أرى ما لا ترون ﴾ ، فإنه رأى جبريل عليه السلام معتجراً ببرد يمشي بين يدي رسول الله ﷺ .

وعن ابن عباس قال : أيّد الله نبيه والمؤمنين بألف من الملائكة ، فكان جبريل عليه السلام في خمسمائة من الملائكة مجنبة ، وميكائيل في خمسمائة من الملائكة مجنبة ، وجاء إبليس في جند من الشياطين ومعه رايته في صورة رجال من بني مدلج ، والشيطان في صورة سراقة بن مالك ، فقال الشيطان للمشركين : لا غالب لكم اليوم من الناس ، وإني جار لكم ، فلما اصطفت القوم قال أبو جهل : اللهم أولانا بالحق فانصره ، ورفع رسول الله ﷺ يده فقال : يارب ! إن تهلك هذه العصابة فلن تعبد في الأرض أبداً ، فقال جبريل : خذ قبضة من التراب ، فأخذ قبضة من تراب فرمى بها وجوههم ، فما أحد من المشركين إلا أصاب عينيه ومنخريه وفمه فولوا مدبرين ، وأقبل جبريل عليه السلام إلى إبليس ، فلما رآه كانت يده في يد رجل من المشركين ، فانتزع إبليس يده ، ثم ولى مدبراً وشيعته فقال الرجل : ياسراقة ! ألم تزعم أنك جار لنا ؟ قال : (إني أرى ما لا ترون) . ذكره البيهقي قوله : إني أخاف الله . قال قتادة : صدق عدو الله في قوله : (إني أرى مالاترون) وكذب في قوله إني أخاف الله ، والله ما به مخافة ، ولكن علم أنه لا نجاة له فأسلمهم ، وكذلك عادة عدو الله بمن أطاعه . وقالت طائفة إنما خاف بطش الله به في الدنيا كما يخاف الفاجر أن يقتل أو يؤخذ بجرمه لا أنه خاف عقابه في الآخرة ، وهذا أصح ، وهذا الخوف لا يستلزم إيماناً ولا نجاة.

الفصل الحادي عشر :

جرى الشيطان من آدم مجرى الدم

قال الامام أحمد : حدثنا عبد الرزاق وعبد الأعلى كلاهما ، عن معمر ، عن الزهري ، عن علي بن الحسين ، عن صفية بنت حيي رضي الله عنها قالت : كان النبي ﷺ معتكفاً ، فأتيته أزوره ليلا ، فحدثته ثم قمت فانقلبت ، فقام يقلبني وكان مسكنها في دار أسامة بن زيد ، فمر رجلان من الأنصار ، فلما رأيا رسول الله ﷺ أسرعا فقال لهما : على رسلكما إنها صفية بنت حيي ، فقالا : سبحان الله يارسول الله! قال : « إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم ، وإني خشيت أن يقذف في قلوبكما شيئاً أو قال شراً » متفق عليه .

قال أحمد في المسند : حدثنا الحكم بن موسى ، قال : حدثنا عيسى ابن يونس ، حدثنا خالد بن سعيد ، عن الشعبي ، عن جابر قال : قال رسول الله ﷺ : « لا تلجو على المغيبات فإن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم . قلنا : ومنك يارسول الله ؟ قال : ومني ، ولكن الله أعانني عليه فأسلم » .

وقال مسلم في صحيحه : حدثنا عبد الله بن مسلمة بن نصر ، حدثنا ابن سلمة ، عن ثابت ، عن أنس أن النبي ﷺ كان مع إحدى نسائه ، فمر به رجل فدعاه فجاءه فقال : يا فلان ! هذه زوجتي . فقال يارسول الله ﷺ : من كنت أظن به فلا أظن بك ، فقال رسول الله ﷺ : « إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم » .

قال الشافعي : خاف النبي ﷺ أن يقع في قلوبهما شيء من أمره ،

فيكفروا ، وإنما قال ذلك شفقة عليهما لا على نفسه ، وقيل فيه استحباب الاحتراز من كل مكروه مما يجري به الظن أو يخطر بالبال . قال علي رضي الله عنه : « إياك وما يسبق إلى القلوب إنكاره وإن كان عندك اعتذاره » .

قال الشيخ تقي الدين : إنما حرم الله أكل الدم لأنه يقوي مجاري الشيطان فإنه يجري من ابن آدم مجرى الدم .

قلت : يشهد لما قال من تحريم الدم حديث عكرمة ، عن أبي هريرة ، وابن عباس قالا : « نهى رسول الله ﷺ عن شريطة الشيطان ، وهي التي تذبح فيقطع الجلد ولا تفري الأوداج » . رواه أبو داود وابن حبان وعنده قال عكرمة كانوا يقطعون منها الشيء اليسير ، ثم يدعونها حتى تموت ولا يقطعون منها الودج فنهى عن ذلك .

قال الشيخ تقي الدين : والملائكة والشياطين يعلمون ما توسوس به نفس العبد ، فالملائكة يعلمون ذلك لاحصاء وكتابة ما بهم من الحسنات والسيئات ، والشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم يعلم ما تهم به نفسه فيوسوس له به .

قال الشيخ تقي الدين : الملك يعلم ما يهم به العبد من حسنة وسيئة وليس ذلك من علمهم بالغيب الذي اختص الله به .

وقد روي عن ابن عيينة أنهم يشمون رائحة طيبة فيعلمون أنه همّ بحسنة ويشمون رائحة خبيثة فيعلمون أنه همّ بسيئة ، وهم وإن شموا رائحة خبيثة ، فعلمهم لا يفتقر إلى ذلك ، بل ما في قلب ابن آدم يعلمونه ويبصرونه ويسمعون وسوسة نفسه ، بل الشيطان يلتقم قلبه ، فإذا ذكر الله خنس ، وإذا غفل وسوس ، والشيطان يعلم ما تهواه نفسه من شهوات الغي فيزينها له ، وقرب الملائكة من قلب ابن آدم مما تواترت به الآثار كان العبد مؤمناً أو كافراً ، ولعل أصل جريان الشيطان من ابن آدم مجرى الدم ما قاله وهب بن منبه : أن إبليس وضع إبناً له بين يدي حواء وقال : أكفليه فجاء آدم فقال : ما هذا ياحواء ؟ فقالت : جاء عدونا

بهذا ، وقال : أكفليه . فقال : ألم أقل لك لا تطيعيه في شيء ، هو الذي غرنا حتى أوقعنا في المعصية ، وعمد إلى الولد فقطعه أربعة أرباع ، فجاء إبليس ، فقال ياحواء ! أين ابني ؟ فأخبرته بما صنع آدم ، فقال : يا خناس ! أجبني فأجابه ، فجاء إلى حواء ، فقال أكفليه فجاء آدم فحرقه بالنار ، وذراه في البحر ، فجاء إبليس فقال : أين ابني ؟ فأخبرته بما صنع آدم فجاء إلى البحر فقال : يا خناس تجيبني فأجابه ، فجاء به إلى حواء ، فقال : اكفليه فنظر إليه آدم ، فذبحه وشواه وأكلاه جميعاً ، فجاء إبليس فسألها فأخبرته حواء ، فقال : ياخناس تجيبني ، فأجابه من جوف آدم وحواء ، فقال إبليس : هذا الذي أردت أسكنك في صدور بني آدم ، فهو ملتقم قلب ابن آدم ما دام غافلا يوسوس ، فإذا ذكر الله لفظ قلبه وخنس ، وهذا قد ذكره الحكيم الترمذي وتبعه القرطبي ، وجماعة من المتأخرين وفيه نظر . فإن في الصحيحين عن ابن مسعود . قال رسول الله ﷺ : « لا تقتل نفس ظلماً إلا كان على ابن آدم الأول كفل من دمها لأنه كان أول من سن القتل » . ولو صح ما ذكره عن وهب كان آدم قد قتل قبل ابنه ، وهو خلاف الحديث .

قال شيخ الإسلام تقي الدين ابن تيمية : هذا من أقبح الكذب والبهتان لا يقوله أحد من العقلاء فضلا عن أهل العلم والإيمان ، ولم يذكره أحد من أهل العلم والدين ، وقد يقال في قوله ﷺ : أن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم ان آدم لم يدخل في ذلك ، فإن وسوسته له إنما كانت مشاهدة بيمين ، وأقسم أنه ناصح له كما سبق ، وأما دخول النبي ﷺ في قوله : « إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم » فقال الطحاوي يحتمل أنه ﷺ داخل في هذا ، ويحتمل أنه ليس بداخل قال : وحديث ابن مسعود يدل على عدم دخوله ، وهو قوله ﷺ : « ما من أحد إلا وقد وكل به قرينة من الملائكة وقرينة من الجن قيل : وأنت يارسول الله ؟ قال : وأنا . إلا أن الله أعانني عليه فأسلم فلا يأمرني إلا بخير » رواه مسلم .

قال الامام أحمد في المسند : حدثنا أسود بن عامر ، حدثنا سفيان ،

حدثنا منصور ، عن سالم بن أبي الجعد ، عن أبيه ، عن ابن مسعود ، فذكره قيل : هذا القرين من الملائكة غير القرين الذي يحفظ الانسان ، بل هذا موكل به ويرشده ويهديه ، وقيل : هذا الكاتب الذي يكتب فإن كل إنسان له ملكان كاتبان عن يمينه وشماله . وقال صاحبنا شمس الدين القونوي : هذا غير عام ومن عباد الله من لا يكتب عليه والالزام أن يكون على يسار النبي ﷺ ملك يكتب .

فإن قيل : فما الجمع بين هذا ، وهو قوله ﷺ : « إلا أن الله أعانني عليه فأسلم » ، وبين حديث أبي الأزهر أن النبي ﷺ كان إذا أخذ مضجعه من الليل قال : « بسم الله اللهم أغفر لي ذنبي واخسىء شيطاني وفك رهاني وثقل ميزاني واجعلني في الندى الأعلى » رواه أبو داود .

قلنا : إن كانت الرواية (فأسلم) فعل مضارع فلا معارضة ، فإنه ﷺ عصم منه وسلم من وسوسته لما أعطاه الله من العصمة ، وإن كانت الرواية (فاسلم) فعل ماض فأخبر عن شيطانه أنه أسلم ببركة النبي ﷺ فجاء يسرق سرق ، وجاء يفسد صلح كما في قصة مالك بن دينار لما دخل عليه في بيته لص يسرق ، فلم يجد في البيت شيئاً ، فلما أراد أن يخرج قال له مالك : ياهذا ! لم تجد شيئاً فلا تذهب خائباً توضأ وصلِّ ركعتين ، أو كما قال ، وعلى هذه الرواية لا إشكال لأنه قال : أخسىء شيطاني قبل أن يسلم شيطانه ، فأسلم بعد ذلك والخسأ في اللغة القرد يقوله اخس شيطاني أي أذله من جميع الشد الذي فيه حتى لا يبقى له قوة أن يكبته ، وإن دق ، والنبي ﷺ شق قلبه واستخرج منه حظ الشيطان .

وعن عائشة رضي الله عنها قالت : خرج رسول الله ﷺ من عندي ليلاً فغرت عليه ، فجاء فرأى ما أصنع ، فقال : « مالكِ ياعائشة أغرت ؟ فقلت : وما لي لا يغار مثلي على مثلك ؟ قال : أفأخذك شيطانك ؟ فقلت أومعي شيطان ؟ قال : نعم . قلت : ومع كل انسان ؟ قال : نعم . قلت ومعك يارسول الله ؟ قال : نعم ، ولكن ربي عز وجل

أعانني عليه فأسلم » . رواه البخاري ، وأكثر الرواة على فتح الميم من أسلم إلا سفيان بن عيينة قال بضمها . قال ابن الجوزي : ليس بصحيح لأن في بعض الروايات فلا يأمرني إلا بخير ، هذا في نسخة هنا ويأتي بعد في هذه .

وقال شيخ الاسلام ابن تيمية رضي الله عنه : أصح القولين في ذلك قوله حتى أسلم استسلم لي وانقاد لي ، ومن قال : حتى أسلم ، فقد حرف لفظه ، ومن قال : الشيطان صار مؤمناً ، فقد حرف معناه ، وقوله : فلا يأمرني إلا بخير دل على أنه لم يبق يأمرني بالشر ، وهذا إسلامه وإن كان ذلك عن خضوعه وذلته لا عن إيمانه بالله ، كما يقهر الرجل عدوه الظاهر ويأسره فلا يأمره إلا بخير لعجزه وذلته لا لصلاحه ودينه .

عن ابن عمر قال رسول الله ﷺ « فضلت على آدم بخصلتين : كان شيطاني كافراً فأعانني الله عليه حتى أسلم وكن أزواجي عوناً لي ، وكان شيطان آدم كافراً وكانت زوجته عوناً على خطيئته » .

فصل

في ماورد عن الاحتلام :

ولم يحتلم النبي ﷺ قط . وقد روى شيخ الاسلام الانصاري من حديث داود بن الحصين ، عن عكرمة ، عن ابن عباس قال : ما احتلم النبي ﷺ قط . « الاحتلام تلاعب من الشيطان » . ورواه الطبراني ، ورواه ابن عدي ولفظه عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : « ما احتلم نبي قط إنما الاحتلام تعبث من الشيطان » . والحديث من رواية ابراهيم بن اسماعيل بن أبي حبيبة مختلف فيه .

وفي تاريخ البخاري عن مسلمة بن عبد الملك قال : ما تثاءب نبي

قط وما احتلم نبي قط ، وقد ذكر طائفة من المفسرين أن آدم احتلم وامتزجت نطفته بالتراب وخلق منها يأجوج ومأجوج .

قال القرطبي في التذكرة : قال علماؤنا هذا فيه نظر لأن الأنبياء عليهم السلام لا يحتلمون .

وفي الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها قالت : كان رسول الله ﷺ يصبح جُنباً من جماع من غير احتلام ، ثم يصوم . قولها من غير احتلام قد يفهم منه إمكان الاحتلام .

وفي البخاري عن عائشة أيضاً قالت : كان النبي ﷺ سحر حتى حتى كان يرى أنه يأتي النساء ولا يأتيهن . قال سفيان : هذا أشد ما يكون من السحر .

وفي السنن : التثاؤب من الشيطان ، وكان النبي ﷺ يعطس .

عن أبي هريرة قال : « كان رسول الله إذا عطس وضع يده على فيه وخفض صوته » رواه أبو داود والترمذي ، وقال حسن صحيح .

قال الشيخ تقي الدين : أصح القولين في قوله : حتى أسلم استسلم وانقاد لي ، ومن قال : حتى أسلم فقد حرف لفظه ، ومن قال : الشيطان صار مؤمناً فقد حرّف معناه ، وقوله : «فلا يأمرني إلا بخير » دل على أنه لم يأمره بالشر ، وهذا اسلامه وإن كان ذلك من خضوعه وذلته لا عن إيمانه بالله ، كما يقهر الرجل عدوه الظاهر ويأسره فلا يأمره إلا بخير لعجزه وذله لا لصلاحه ودينه .

حدثنا ابراهيم بن نصر ، حدثنا ابراهيم بن الحجاج ، عن يعلى ، عن ابن أبي نجيح ، عن مجاهد ، عن ابن عباس قال : ما احتلم نبي قط . الاحتلام من الشيطان . قوله ﷺ : « ما منكم من أحدٍ إلاّ وكّل به قرينه من الملائكة ومن الجن يحتمل أن يوكّل بابن آدم شيطانه من حين ولادته » .

كما قال الامام أحمد : حدثنا عبد الرزاق ، أخبرنا معمر ، عن الزهري ، عن ابن المسيب ، عن أبي هريرة ، أن النبي ﷺ قال : « ما من مولود إلا الشيطان يمسه حين يولد ، فيستهل صارخاً من مس الشيطان إياه إلا مريم وابنها » . ثم يقول أبو هريرة : اقرأوا إن شئتم : ﴿ وإنّي أعيذُها بكَ وذُرِّيتها منَ الشّيْطان الرجيم ﴾ (١) . أخرجاه في الصحيحين . وأجرى أهل السنة هذا الحديث على ظاهره من غير تحريف ولا تأويل على عادتهم في ذلك ، وتأولت المعتزلة . قال الزمخشري : هذا الحديث ، والله أعلم بصحته ، فإن صح فمعناه أن كل مولود يطمع الشيطان في إغوائه إلا مريم وابنها فإنهما كانا معصومين ، وكذلك كل من كان في صفتهما لقوله : ﴿ لأغْوينّهُم أجْمعينَ * إلاّ عبادكَ منْهُم المُخْلصينَ ﴾ (٢) . واستهلاله صارخاً من مسه تخييل وتصوير لطعمه فيه كأنه يمسه ويضرب عليه بيده ، ويقول : هذا ممن أغويه ونحوه من التخييل قول ابن الرومي :

لما تؤذن الدُّنيـــا به من صُروفهـــا يكونُ بكاء الطفلِ ساعةَ يولد

وأما حقيقة المس والنخس كما يقول أهل الحشو فكلاّ ، ولو سلط إبليس على الناس ينخسهم لامتلأت الدنيا صراخاً وعياطاً من نخسه انتهى . وقد رد الأئمة هذا على الزمخشري ، وقالوا الحديث صحيح لا مطعن فيه ، وتأويل الزمخشري جنوح منه إلى اعتزال منتزع من فلسفة منتزعة من إلحاد ظلمات بعضها فوق بعض .

قال بعض المحققين : وما رؤي الشيطان إلا طعن في خواصر القدرية حتى نفوها ، وحمل الزمخشري وأمثاله على أن يقولوا في كتاب الله وكلام رسول الله ﷺ أنه تخييل ، كما قال في هذا الحديث ، ثم نظره بتخييل ابن الرومي جرأة وسوء أدب ، ولو كان الصراخ غير واقع من المولود لأمكن على بعد أن يكون تخييلا ، وأما وهو واقع مشاهد فلا وجه لحمله تمثيلا على التخييل ، وظاهر هذا الحديث أن الشيطان يمس كل مولود

---

(١) سورة آل عمران ، الآية : ٣٦ .

(٢) سورة ص ، الآية : ٨٢ ، ٨٣ .

إلا من استثني ، ويدخل في ذلك ما لو ذكر اسم الله عند الجماع ، والحديث في ذلك إنما جاء بنفي الضرر لا بنفي الأذى ، فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « لو أن أحدكم إذا أراد أن يأتي أهله قال : بسم الله . اللهم جنبنا الشيطان وجنب الشيطان ما رزقتنا فإنه إن قدر بينهما ولد لم يضره الشيطان أبداً » . متفق عليه .

قال ابن الجوزي في كشف المشكل يحتمل أن لا يضره شيطان بالكفر ، فيحفظ عنه ويحتمل أن يحفظ عن الكبائر ، ويحتمل أن يكون توفيقه للتوبة إذا زل . وقال عطاء في قوله تعالى : ﴿ وقدّموا لأنفسكم ﴾ (١) قال : هي التسمية عند الجماع . وقال مجاهد في قوله تعالى : ﴿ وشاركهم في الأموال والأولاد ﴾ (٢) . كان إذا الرجل ، ولم يسم انطوت الجان على القلفة ، فجامع فذلك قوله : ﴿ لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان ﴾ (٣) .

مَنْ رستْ وسمت قواعدُ دينه ... وبه هوىً أمر الضّلال وساخا
هو خيرُ منْ شدّ الرِّحال لقصده ... حادي المطيِّ وفي حِماهْ أناخا
أشْكُو إلى اللهِ المُهيمنِ عزم مَنْ ... في الدِّينِ أضحى ثابتاً رسّاخا
فلعلّني أكفي عزائل ناصب ... شركاً لنا من كيده وفخاخا
يجري مع الدم بالوساوس ما كنا ... في الصّدر همّازاً به نفّاخا
وأفوز بالبُشرى إذا ورد الورى ... يوم القيامة جاحماً طبّاخا
فنحا التقيُّ ولم يدرِ في قعْرها ... إلاّ غوياً معولاً صُراخا

فصل

ورد أن الشيطان بين الرغوة والصريح من اللبن :

قال الامام أحمد : حدثنا حسن ، حدثنا ابن لهيعة ، حدثنا عبد الله عن أبي عبد الرحمن الحبلى ، عن عبد الله بن عمرو قال : قال رسول الله

(١) سورة البقرة ، الآية : ٢٢٣ .
(٢) سورة الاسراء ، الآية : ٦٤ .
(٣) سورة الرحمن ، الآية : ٥٦ .

ﷺ « لا أخافُ على أُمتي إلا اللبن فإن الشيطان بين الرغوة والصريح من اللبن » . يحتمل أن يريد العرب ، أي لا يخاف على العرب إلا اللبن ، فإنه جلّ عيشهم وعليه يقع الاختلاف .

وقد جاء في لفظ آخر أن النبي ﷺ قال : « سيهلك من أمتي أهل الكتاب وأهل اللبن » . فسئل رسول الله ﷺ من أهل اللبن ؟ قال : قوم يتتبعون الشهوات ويضيعون الصلاة . قال ابراهيم الحربي : أظنه أراد يتباعدون عن الأمصار ، وعن صلاة الجماعة ، ويطلبون مواضع اللبن في المراعي البوادي ، وأراد بأهل الكتاب قوماً يتعلمون الكتاب ليجادلوا به الناس انتهى . ويحتمل أن يريد بأهل الكتاب : علماء السوء كما في سنن ابن ماجه : أشد الناس عذاباً يوم القيامة عالم لم ينفعه الله بعلمه .

وفي مسند الامام أحمد ، عن عبد الله بن عمرو قال رسول الله ﷺ : « أكثر منافقي أمتي قراؤها» . ورواه جعفر الفريابي من حديث عقبة بن عامر مرفوعاً .وفي مسند الامام أحمد ، عن أبي سعيد قال : قال رسول الله ﷺ : « إنّ من شرّ الناس رجلاً فاجراً جريئاً يقرأ كتاب الله لا يرعوي لشيء منه » . قوله جريء أي : رسولا ودليلا للشيطان .

فُقهاؤنا كذبالةِ النِّبْـــراس هي في الحريق وضوءها للنّاسِ
حبرٌ ذميمٌ تحتَ رائقِ منظـــرٍ كالفضّةِ البيضـــاء فوقَ نحاسِ

وقال العلاء بن الحداد :

أظْهروا للناس سِمْتاً وعلى المنْقوش داروا
وله صاموا وصلّـــوا وله حَجُّوا وزاروا
ولهُ قامُوا وقالـــوا ولهُ حلُّوا وسَارُوا
لو بدَا فوقَ الثُريا وهُـــم ريشٌ لطَاروا

قال عيسى بن مريم للحواريين : « يا ملح الأرض لا تفسدوا فإن كل شيء إذا فسد يداوى بالملح وإن الملح إذا فسد ليس له دواء » .

الفصل الثاني عشر :

هرب الشيطان من الآذان ووسوسته للمصلين من المسلمين

عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « إذا نُوديَ بالصلاة أدْبرَ الشّيْطان له ضراطٌ حتى لا يسمعُ الأذان فإذا قَضى الأذان أقبل فإذا ثوب بها أدبر فإذا قضى أقبل حتى يخطر بين المرء ونفسه يقول له اذكر كذا اذكر كذا لما لم يكن يذكر حتى يظل الرجل لا يدري كم صلى » . متفق عليه ، ولمسلم إذا أذن المؤذن أدبر الشيطان وله حصاص .

وقال سهيل بن أبي صالح : أرسلني أبي إلى بني حارثة ومعي غلام لنا ، فناداه مناد من حائط باسمه قال : وأشرف الذي معي في الحائط فلم ير شيئاً قال : فذكرت ذلك فقال : لو شعرت أنك تلقى هذا لم أرسلك ، ولكن إذا سمعت صوتاً فناد بالصلاة ، فإني سمعت أبا هريرة يحدث عن رسول الله ﷺ أنه قال : « إن الشيطان إذا نودي بالصلاة ولى له حصاص » . وللدارقطني : « إذا أذّن المؤذنُ خرجَ الشّيطان من المسجد له حصاص ، فإذا سكت المؤذن رجع فإذا أقام المؤذن خرج الشيطان من المسجد له حصاص ، فإذا سكت المؤذن رجع حتى يأتي المرء المسلم في الصلاة فيدخل بينه وبين نفسه حتى لا يدري أزاد في الصلاة أو نقّص فإذا وجد ذلك أحدكم فليسجد سجدتين وهو جالس قبل أن يسلم ثم يسلم » . الحصاص بالحاء والصاد المهملتين : هو الضراط مع شدة العدو ، وقيل : هو أن ينصب أذنيه ويرفع ذنبه ثم يعدو . قال الامام أحمد في رواية الأثرم : لا يبادر الرجل بالقيام عند الأذان يركع لأنه يقال إن الشيطان ينفر حين يسمعه .

وقال الامام أحمد في المسند : حدثنا أبو معاوية ، حدثنا الأعمش ، عن أبي سفيان ، عن جابر قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا أذّن المؤذن هرب الشيطان حتى يكون بالروحاء وهي من المدينة ثلاثون ميلا » . رواه مسلم . فقال : الروحاء من المدينة على ستة وثلاثين ميلا ، وهذا فيه فضل عظيم للأذان ، فإن الشيطان يدبر منه ولا يدبر من القرآن ذكره ابن عبد البر .

وقال ابن عباس : وإذا ذكرت ربك في القرآن وحده ولّوا على أدبارهم نفوراً. المراد : الشياطين ، وقال ابن زيد : المراد به المشركون .

وقيل : المعنى وإذا ذكرت ربك في القرآن وحده قول لا إله إلا هو وأنت تتلو القرآن ، وإنما يدبر الشيطان من الأذان لئلا يسمعه ، فيضطر إلى أن يشهد له بذلك يوم القيامة لقوله ﷺ : « لا يسمع صوت المؤذن جن ولا إنس ولا شيء إلا شهد له يوم القيامة » ، وقيل ليأسه من وسوسة الانسان عند الاعلان بالتوحيد .

قال مالك : استعمل زيد بن أسلم على معدن بني سليم ، وكان يصاب الناس فيه من قبل الجن فشكوا اليه ذلك فأمرهم بالأذان ،فارتفع ذلك عنهم فهم إلى اليوم كذلك . قال مالك : وأعجبني ذلك من رأي زيد .

وذكر وكيع أنه ذكر الغيلان عند عمر رضي الله عنه فقال : ليس شيء من خلق الله يتحول عن خلقه الذي خلق عليه ، ولكن لهم سحرة كسحرتكم ، فإذا أحسستم من ذلك شيئاً ، فأذنوا بالصلاة ، هذا الفضل يدل على عظمة الصلاة ، وأن الشيطان يجتهد في الوسوسة في الصلاة لأنها حاله قرب للمؤمن ومناجاة ، فيريد اللعين إفسادها أو تنقيصها عليه مهما أمكنه ، ولا شك أن عمل القلب لا يبطل الصلاة ولو كان أمراً محرما .

قال أحمد : إذا فكر في صلاته حتى شغله لا سجود عليه من يخلو من هذا من يقدر أن لا يفكر . وقد حكى المالكية والشافعية الاجماع على ذلك وقيل: إن طال عمل القلب أبطل كعمل البدن اختاره ابن الجوزي،

وابن حامد ، وبعض الشافعية ، وهو قول ضعيف لهذه الأحاديث ، وإذا لم تبطل الصلاة ، فإنه ينقص أجره بذلك . قال ابن عباس رضي الله عنهما : ليس لك من صلاتك إلا ما عقلت منها ، ولا يثاب إلا على ما عمل بقلبه ، فلا يكفر من صلاته إلا بقدره والباقي يحتاج إلى تكفير .

وعن عمار أنه صلى ركعتين ، فخففهما ، فقيل له في ذلك فقال : هل نقصت من حدودها شيئاً ؟ قال : لا ، ولكن خففتها . إني بادرت بها السهو . إني سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن الرجل ليصلي ولعله أن لا يكون له من صلاته إلا عُشرها أو تسعها أو ثمنها أو سبعها حتى انتهى إلى آخر العدد » . رواه الامام أحمد ، وأبو داود ، والنسائي ،

وعن أبي اليسر رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «منكم من يصلي صلاة كاملة ، ومنكم من يصلي النصف والثلث والربع والخمس حتى يبلغ العشر » . رواه أحمد والنسائي .

وقال أبو داود الطيالسي في مسنده : حدثنا نوح بن قيس ، حدثنا عمرو بن مالك النكري ، عن أبي الجوزاء ، عن ابن عباس قال : كانت امرأة تصلي خلف النبي ﷺ من أجمل الناس ، فكان رجال في آخر صفوف الرجال ينظرون اليها ، وكان أحدهم ينظر إليها من تحت إبطه ، وكان أحدهم يتقدم إلى الصف الأول ليرونها فأنزل الله تعالى هذه الآية : ﴿ ولقد علمنا المستقدمين منكم ولقد علمنا المستأخرين ﴾ . ورواه الترمذي والنسائي ، وهذا فكر في محرم ووعظهم الله في ستر .

فإن قيل : قال الله تعالى : ﴿ فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ * الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴾ (٢) . قال أبو العالية : هو الذي لا يدري عن كم انصرف عن شفع أو وتر ، وهذا يقتضي أن عمل القلب حرام ، وأن الوسوسة التي تذهل عن الركعات محرمة .

---

(١) سورة الحجر ، الآية : ٢٤ .
(٢) سورة الماعون ، الآيتين : ٤ ، ٥ .

قلنا : قد ثبت بالأخبار الصحيحة أن الوسوسة وعمل القلب لا يبطل الصلاة ، ولكن ينقص أجرها بذلك وما ذكرتم من الآية ، فعن أنس بن مالك ، وابن عباس رضي الله عنهم قال : الحمد لله الذي لم يقل في صلاتهم وإلا كان وعيداً للمؤمنين ، وإنما قال عن صلاتهم أي ساهون عنها سهو ترك وقلة مبالاة والتفات اليها . فالسهو في الصلاة : من أفعال المؤمنين ، والسهو عنها من أفعال المنافقين والكفار . قال ابن عطاء : ليس في القرآن وعيد صعب إلا وبعده وعد لطيف غير قوله : ﴿فويل للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون﴾. وأما ماقاله أبو العالية فلا يصح لأنه ﷺ سها في صلاته ، ولأنه قال عن صلاتهم ولم يقل في صلاتهم ، وتأول الأئمة قول أبي العالية على السهو الدائم لا القليل النادر . وقال ابن الجوزي : لا أظنه أراد السهو النادر ، وإنما أراد السهو الدائم ، وذلك بتشاغل القلب عن قلة احترام الصلاة فيتوجه الذم إلى ذلك السهو انتهى .

فالسهو : خطأ عن غفلته وذلك ضربان : **أحدهما** : أن لا يكون من الإنسان جواله ومولداته كالمجنون بسب إنساناً . **والثاني** : أن يكون منه مولداته كمن شرب خمراً ثم ظهر منه منكر لا عن قصد إلى فعله ، والأول معفو عنه ، والثاني مؤاخذ به . وفي الجملة السهو في الصلاة مما ينقص ثوابها وذلك مما يتفاوت فيه الناس ، والشيطان يجاب على المصلي بخيله ورجله ، ولهذا عظمت الصلاة الخالية من الوسوسة والسهو ، حتى قال رسول الله ﷺ : « منْ صلّى ركْعتين لا يسْهو فيهما غُفِرَ له ما تقدّم من ذنبه » .

وفي الصحيحين من حديث عثمان رضي الله عنه : « من صلّى ركعتين لا يحدّث فيهما نفسه غُفر له ما تقدّم من ذنبه » . وللناس في هذا قولان :

القول الأول : لا يحدث بشيء من الدنيا وما لا يتعلق بالصلاة ولو عرض له حديث فأعرض عنه عفي عن ذلك ، وحصلت له الفضيلة ، لأن هذا ليس من فعله ، فالخواطر التي تعرض ولا تستقر معفو عنها ،

واختار ذلك الماوردي والقاضي عياض والنووي ، وأراد النبي ﷺ حديث النفس المجتلب والمكتسب .

وقوله : يحدث فيهما نفسه : فيه اشارة إلى أن ذلك الحديث مما يكتسب لإضافته اليه .

والقول الثاني : أن الحديث من غير قصد يرجى أن تقبل معه الصلاة ويكون دون صلاة من لم يحدث نفسه بشيء ، لأنه ﷺ إنما ضمن الغفران لمراعي ذلك وما زال في المصلين من يقبل على صلاته بقلبه ووجهه ولا حديث نفسي .

قال سعد بن معاذ رضي الله عنه : ثلاث خصال أنا فيما سواهن ضعيف، ما سمعت من النبي ﷺ قولاً إلا عامت أنه حق من الله . وفي رواية إلا كأني أسمعه من الله . وما صليت صلاة فألهاني غيرها عنها حتى أفرغ منها ، وما تبعت جنازة فحدثت نفسي بغير ما هي قائلة أو مقول لها حتى أفرغ منها .

قال إبن اسحاق ، قلت للزهري : هل سمعت هذه الثلاث ؟ فطأطأ رأسه هيبة ، ثم قال : رحم الله سعداً ، فهو المأمون عندنا وعند المسلمين ، وما كنت أظن هذه الخصال إلا في نبي ، وكان مسلم بن يسار في الصلاة ، فانهدمت ناحية من المسجد ، وقام الناس وهو في الصلاة لا يرفع ، وقيل لعامر بن قيس : أتحدثك نفسك في الصلاة ؟ قال : أبالجنّة والحور العين ؟ قالوا : لا . ولكن بالأهل والمال . قال : لأن تختلف الأسنّة فيَّ أحب إليَّ من أن أجد ذلك ، ويعين على ذلك شيئان : قوة المقتضى بالتدبر ، وأنه مناج لله تعالى ، وضعف التشاغل . ومتى كان للقلب آلة تلهيه عن الله فسد وهلك هلاكاً لا صلاح معه .

عن عكرمة ، عن ابن عباس قال رسول الله ﷺ : « من صلى ركعتين لا يحدث فيهما نفسه بشيء فله عبد أو فرس » فقام رجل يصلي فصلى ركعتين ، فلما جلس أتاه الشيطان ، فقال : أيهما تأخذ العبد أو الفرس ؟ فتبسم النبي ﷺ . رواه ابن عدي .

فصل

في الفرق بين هاتين الروايتين :

عن سعد بن معاذ ، فقوله : ما سمعت من النبي ﷺ قولا قط إلا كأني أسمعه من الله بيّن . وقوله : إلا عرفت أنه حق .

هذا خُلُقٌ عظيم ، فصاحب الكلمة الأولى قد هتك الحُجُب وتخطى الدارين وصار بين يديه يجول وبه يصول وبه يلوذ وإياه يلاحظ ، وقد تحير كثير من السلف في قول سعد ، وقالوا : كيف تنقطع الوسوسة من القلوب ؟ فقال الحسن : هذا عندنا . وقال : ما جعل الله الزهري ما كنت أظن هذه الخصال إلا في نبي .

فإن قيل : قال البخاري ، قال عمر رضي الله عنه : إني لأجهز جيشي ، وأنا في الصلاة ، وقال أبو عثمان النهدي عن عمر : إني لأومّر أمرائي وأبعث جيوشي وأنا في الصلاة . وعنه : إني لأحسب جزية البحرين وأنا في الصلاة . ويغلب على ظني أنه جاء عنه رضي الله عنه : إني جهزت جيشاً ووصلت معهم وادي القرى وأنا في الصلاة ، وقد ذكرتم عن سعد بن معاذ أنه قال : ما صليت صلاة شغلني عنها غيرها حتى أفرغ منها ، فأيما أعلى في هذين المقامين مقام عمر بن الخطاب ، أو مقام سعد بن معاذ رضي الله عنهما ؟

فنقول : تكلم الناس قديماً وحديثاً في هذا ، فقالوا للمصلين خمسة أحوال : **الأول** : مصلٍّ ينقص من وضوئه ومواقيته وحدود أركانه . **الثاني** : محافظ على ذلك مضيق مجاهد نفسه في الوسوسة . **الثالث** : محافظ مجاهد في الوسوسة . **الرابع** : محافظ على الوضوء والمواقيت والأركان، مشغول بقلبه مع الله جل جلاله بحفظ هذه الحدود . **الخامس** : محافظ على الوضوء والمواقيت والأركان مشغول بربه قرير العين به محفوظ عليه حدودها .

كما جاء أن العبد إذا قام يصلي قال الله تعالى : ارفعوا الحُجُب ،

فإذا التفت قال : أرخوها ، فهذ القلب إلى سوى صلاة أو نفساً أو دنيا بعد أن يلتفت . **فالأول** : معاقب . **والثاني** : محاسب ، **والثالث** : مكفر عنه ، **والرابع** مثاب ، **والخامس** : مقرب ، ولهذا قال ﷺ : « وجعلت قرة عيني في الصلاة » . فمن قرت عينه فيها ، فللقرب بربه لأنه ينال منه براً ، وكلما ذاق العبد حلاوة الصلاة كان انجذابه إليها أوكد ، ولهذا قال : جعلت قرة عيني في الصلاة ، وقال لبلال : أرحنا بالصلاة ، فسعد بن معاذ رضي عنه كان من الصنف الرابع ، وإنه لم يخل من الإتقان للصلاة والإقبال على ربه بصلاته ، وعمر رضي الله عنه وأرضاه وجمعنا في زمرته من الصنف الخامس المقبلين على ربهم في صلاتهم بقلوبهم إلى ربهم ، فهم مشغولون بجلاله وجماله ومجده وعظمته مصلين وغير مصلين ، وعمر متقلد أمور المسلمين ولم يشغله عن الله لأنه مشغول بأمره معه ، وكيف ما دار مع الأحوال فمع ربه ، أما المشغول فيه فهو في غفلة ومحدث قلبه في قبضة الله به يعقل وبه يسمع وبه يبصر وينطق سواء فكّر في شأن صلاته وامارته ، لأن الكل فرض ، وفكره في ذلك مع ربه فيه يفكر وبه يولي وبه يعزل ، فليس في هذا نقص لأن هذه الأشياء لا يقدر أن يأخذه من الله ، فحال عمر رضي الله عنه في هذا حال الأقوياء ، وحال سعد حال الضعفاء ، وقد أطلنا في هذا في كتاب الباهر ، وذكرنا كلام الناس هناك .

فصل :

في حديث الخميصة :

عن عائشة رضي الله عنها قالت : كان رسول الله ﷺ يصلي في خميصة لها أعلام فنظر إلى أعلامها نظرة ، فلما انصرف قال : « اذهبوا بخميصتي هذه إلى أبي جهم وأتوا بأنبيجانية أبي جهم فإنها ألهتني آنفاً عن صلاتي » . رواه البخاري . وفي رواية له : « كنت أنظر إلى علمها وأنا في الصلاة فأخاف أن تفتني » . فما وجه هذا الحديث ؟ .

قلنا : ليس فيه بيان أنه شغل القلب ، أو شغل العين لأنه قال : كادت تفتني ، فعلم أنه شغل العين ، ولو كان شغل القلب مع النظر بالعين كانت الفتنة ، فعلم أنه شغل العين لا القلب ، فمشغول القلب بالله لا يشتغل بالأشياء عنه لا قلبه، فلا يصل إلى قلبه شيء بالالهاء للعين والفتنة للقلب .

قال ابن الجوزي : الحكمة في رد الخميصة إلى أبي الجهم ، وقال إني نظرت اليها في الصلاة فكادت تفتني ، وهو لم يلتفت إلى الأكوان ليلة الاسراء لقوله تعالى ﴿ ما زاغ البصر ﴾ إنه كان في تلك الليلة خارجاً عن طباعه ، فأشبه نظره من ورائه وإذا رد إلى الطبع البشري أثر فيه ما يؤثر في البشر ، الأنبجانية : كساد أسود والخميصة كساء له أعلام .

قال الحافظ أبو الفضل بن ناصر : سألت أبا الفتوح أحمد بن محمد الغزالي عن هذا الحديث « اذهبوا بهذه الخميصة وأتوني بانبجانية أبي جهم » فقلت : إذا كان النبي ﷺ مع قوته قال : ألهتني ، فكيف ينفذها إلى أبي جهم ؟ فقال : كان الموطن كدراً فنفذ إليه ما يليق به ، فقلت كان ينبغي أن يزيل الكدورة لا يزيدها ، فلم يقل شيئاً . قال الحافظ : ومعنى الحديث أن الانبجانية كانت للنبي ﷺ ، وإنما أضافها اليه لأنها كانت عليه والخميصة كان قد استعارها منه ليلبسها للوفد .

فصل

في الوسوسة في الصلاه :

قال يزيد بن هارون ، عن اسماعيل بن عياش ، عن عقيل بن مدرك قال : قال رسول الله ﷺ : « الوسوسة في الصلاة صريح الإيمان » . وقال ابراهيم النخعي : آية قبول صلاة المؤمن الوسوسة . وذلك أن أهل الكتاب لا يوسوسون فما وجه هذا ؟

قلنا : طيّب النبي ﷺ قلوب المؤمنين لما اغتموا بالوسوسة بأنها علامة الإيمان ليكون ذلك تسلية لهم ، والكفار قلوبهم خالية من الخير

ممتلئة من الشر قد صيرها الشيطان بيتاً لنفسه ، فماذا يوسوس له ليفسد عليه صلاته بخلاف المؤمن ، فإن عنده كنزاً يدور عليه الشيطان ، فالقلوب ثلاثة : قلب خالي من الايمان والخير وهو قلب الكافر بيت الشيطان ، وقلب فيه إيمان وعليه ظلمة الشهوات ، فهناك إقبال وادبار فلا يخلو من وسوسة ، وقلب محشو بالإيمان كله نور ولنوره في صدره إشراق ولإشراقه شعاع ولإشعاعه شعل ، فإذا دنا منه الوسواس صار رماداً .

وقد قيل : إذا تمكن ذكر الله من القلب ، فإن دنا منه الشيطان صرع كما يصرع الانسان إذا دنا منه الشيطان ، فتجتمع عليه الشياطين فيقولون: ما لهذا ؟ فيقال : قد مسه الانسي . وقالت الصحابة يارسول الله ! ليجد الرجل في نفسه ما لأن يخر من السماء إلى الأرض أحب إليه من أن يتكلم، فقال : وقد وجدتموه ؟ فقالوا : نعم ، فقال : « ذلك صريح الإيمان » .

وفي لفظ : إن أحدنا ليجد في نفسه ما يتعاظم أن يتكلم به ، فقال : الحمد لله الذي رد كيده إلى الوسوسة . قال العلماء : كراهته لذلك ، وفرار القلب منه هو صريح الإيمان ، والوسواس يعرض لكل من يتوجه الى الله ، فينبغي للعبد أن يثبت فإن ملازمة ذلك تصرف عنه كيد الشيطان إن كيد الشيطان كان ضعيفاً ، وكلما ازداد توجه العبد جاء من الوسواس أمور أخرى ، فإن الشيطان بمنزلة قاطع الطريق ، كلما ازداد العبد سيراً قطع الطريق عليه ، ولهذا قيل لبعض السلف . قيل : أنه أبو بكر الصديق . قاله شيخ الإسلام ابن تيمية في الأجوبة عن اليهود والنصارى أنهم قالوا لا نجد الوسوسة في صلاتنا . ما يصنع الشيطان في البيت الخراب ؟ .

قال أحمد بن أبي الحواري : شكوت إلى أبي سليمان الداراني الوسوسة في الصلاة ، فقال : إذا أردت أن ينقطع عنك ، فإذا أحسست به فافرح ، فإنك إذا فرحت انقطع عنك لأنه لا شيء أبغض إلى الشيطان من سرور المؤمن ، وإن اغتممت به زادك . قال بعض العلماء : لأن الوسواس إنما يبتلى به من كمل إيمانه فإن اللص لا يقصد بيتاً خراباً .

فصل

في تحريك اصبع المصلي :

ولما كان الشيطان يراصد ابن آدم في الصلاة يوسوس له حتى تنقضي صلاته جعل تحريك أصبع المصلي في التشهد مذعرة للشيطان ، كما جاء عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « تحريك الأصبع في الصلاة مذعرة للشيطان » فيه الواقدي ، ولهذا كان النبي ﷺ يشير بها ، وعن خفاف بن إيماء الصحابي أن النبي ﷺ كان يشير بها إلى التوحيد ، وقد ذكر القرطبي : أن أصبعه ﷺ الشاهدة كانت أطول من التي تليها وفيه نظر ، ولعله اشتبه بأصبع رجله ، فإنها كانت أطول .

قال الامام أحمد : حدثنا يزيد ، أنا يزيد بن عبد الله بن مقسم ، حدثتني عمتي سارة بنت مقسم ، عن ميمونة بنت آدم قالت : رأيت رسول الله ﷺ وهو على ناقته ، وأنا مع أبي ، وبيد رسول الله ﷺ درة كدرة الكتاب، فسمعت الناس يقولون الطيطية الطيطية ، فدنا منه أبي فأخذ بقدمه فأقر له رسول الله ﷺ قالت : فما نسيت فيما نسيت طول أصبع قدمه السبابة على سائر أصابعه .

قال عمر بن عبد العزيز : سأل رجل ربه أن يريه موضع الشيطان من قلب ابن آدم، فلما كان في الحول رأى فيما يرى النائم جسد رجل يشبه البلور يرى داخله من خارجه ، ورأى الشيطان في صورة ضفدع قاعد عند منكبه الأيسر،بين منكبه وأذنه له خرطوم طويل رقيق قد أدخله من منكبه الأيسر إلى قلبه يوسوس اليه ، فإذا ذكر الله عز وجل خنس . ذكره ابن أبي الدنيا في كتاب مكايد الشيطان . قال تعالى حكاية عن الشيطان : ﴿ قالَ فبما أغْويتني لأقْعُدنّ لهُمْ صِراطك المُسْتقيم * ثم لآتِيَنّهُم منْ بينِ أيْديهم ﴾ (١) . أشككهم في آخرتهم وأنه لا بعث ولا جنة ولا نار ، ومن خلفهم أرغبهم في دنياهم وأكذبهم بما فيها من

---

(١) سورة الأعراف ، الآية : ١٦ ، ١٧ .

الآيات ، وعن أيمانهم أشبِّه عليهم أمر دينهم وأبطلهم عن حسابهم ، وعن شمائلهم أشهِّي لهم المعاصي .

قال قتادة : أتاك الشيطان يا ابن آدم من كل ناحية غير أنه لم يأتك من فوقك لم يستطع أن يحول بينك وبين رحمة الله . قال اسحاق بن راهوية ، قال ابن عباس : لم يستطع أن يقول من فوقهم علم أن الله من فوقهم ، وقد صح عنه ، ولهذا جاء في الحديث : « الإستعاذة من تسلط الشيطان على الانسان من جهاته كلها » .

قال الإمام أحمد : حدثنا وكيع ، حدثنا عباد بن مسلم ، حدثنا ابن أبي سليمان بن جبير بن مطعم ، عن عبد الله بن عمرو يقول : لم يكن رسول الله ﷺ يدع هؤلاء الدعوات حين يصبح وحين يمسي : « اللهم إني أسألك العفو والعافية في الدنيا والآخرة ، اللهم إني أسألك العفو والعافية في ديني ودنياي وأهلي ومالي ، اللهم استر عوراتي وآمن روعاتي ، اللهم احفظني من بين يدي ومن خلفي وعن يميني وعن شمالي ، وأعوذ بعظمتك أن أُغتال من تحتي » . يعني : الخسف . رواه الخمسة ، إلا أبا داود ، وصححه ابن حبان والحاكم .

الفصل الثالث عشر :

مبيت الشيطان على خياشيم ابن آدم

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا استيقظ أحدكم من منامه فليتوضأ وليستنثر ثلاث مرات فإن الشيطان يبيت على خياشيمه » . متفق عليه . قد يقال إن الشيطان إنما بات على خياشيمه لبعده عن مواقع العبادة ، فإن العين باب النظر إلى خلق السموات والأرض ، قال الله تعالى : ﴿ وفي أنفُسكُم أفلاَ تُبْصرونَ ﴾ (١) . فهي باب العبرة ، والفهم باب الفكر ، فاذكروني أذكركم واذكروا الله لعلكم تفلحون ، والأذن سماع ذكر الله وآياته قال الله تعالى : ﴿ الذينَ يستمعُونَ القَوْل فيتْبعونَ أحْسَنَه ﴾ (٢) . وليس في الخياشيم شيء من هذه المعاني ، ويجوز أن يكون يدخل الشيطان في الإنسان من طريق الخياشيم ، ويقول الناس لمن ظهر فيه كبر نفخ الشيطان في منخره. قال الحجاج في خطبته : يا أهل الشقاق والنفاق نفخ الشيطان في مناخركم حين قلتم مات الحجاج فمه ، وهل يرجو الحجاج الخير كله إلا بعد لموت ، ولهذا قال النبي ﷺ : « التثاؤب في الصلاة من الشيطان » . فإذا تثاءب أحدكم فليكظم ما استطاع ، والخياشيم : باب ظاهر ليس له طبق ، والعين والفم لهما طبقات ، فلا يجد العدو اليه سبيلا كما لا يجد إلى السقاء إذا أوكى ، وذكر اسم الله عليه وإلى الباب إذا أغلق سبيلا .

وفي صحيح مسلم عن جابر رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « اغلقوا الباب وأوكئوا السقاء واكفؤا الاناء وأطفئوا المصباح ، فإن

---

(١) سورة الذاريات ، الآية : ٢١ .
(٢) سورة الزمر ، الآية : ١٨ .

الشيطان لا يفتح باباً مغلقاً ، ولا يحل وكاء ولا يكشف آنية وإن الفويسقة تضرم على الناس بيوتهم » .

فصل

وقد اختلف الناس في قوله ﷺ : « إذا استيقظ أحدكم من نومه فلا يغمس يده في الاناء حتى يغسلها ثلاثاً فإنه لا يدري أين باتت يده » . لأي معنى أمر الشارع بغسل اليد ههنا ؟ فقال القاضي : أبو يعلى وأصحابه هذا تعبد محض لأنه ليس بنجاسة حقيقة ، وقيل معلل بوهم النجاسة ، وقال آخرون : إنه من مبيت يده ملابسة للشيطان لأنه ﷺ أمر بغسل الخيشوم معللا بمبيت الشيطان عليه ، فعلم أن ذلك سبب للغسل غير النجاسة والحدث المعروف ، وقوله : « فإن أحدكم لا يدري أين باتت يده » يمكن أن يراد به ذلك فتكون هذه العلة من العلل المؤيدة التي شهد لها النص بالاعتبار .

الفصل الرابع عشر :

في نصب الشيطان عرشه على الماء وارسال سراياه

عن جابر رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن إبليس يضع عرشه على الماء ثم يبعث سراياه فأدناهم منه منزلة أعظمهم فتنة يجيء أحدهم ، فيقول فعلت كذا وكذا فيقول ما صنعت شيئاً ويجيء أحدهم ، فيقول ما تركته حتى فرقت بينه وبين أهله فيدنيه أو قال فيلتزمه ، ويقول نعم أنت » . رواه مسلم .

إبليس يضع كرسيه على البحر :

قال أحمد : حدثنا يونس ، حدثنا حماد بن سلمة ، عن علي ، عن أبي نضرة ، عن أبي سعيد أن رسول الله ﷺ قال لابن صياد ما ترى ؟ قال : أرى عرشاً على البحر حوله الحيات ، فقال رسول الله ﷺ : « رأى عرش إبليس » .

عن عطاء بن السائب ، عن أبي عبد الرحمن السلمي ، عن أبي موسى الأشعري قال رسول الله ﷺ : « إن إبليس يبعث جنوده إلى المسلمين ، فيقول : أيكم أضل رجلا ألبسته التاج ؟ فإذا رجعوا قال لبعضهم : ما صنعت : قال : ألقيت بينه وبين أخيه عداوة . قال : ما صنعت شيئاً سوف يصالحه ، ثم يقول للآخر : فأنت ما صنعت قال : ما زلت به حتى طلّق امرأته، قال : ما صنعت شيئاً سوف يتزوج أخرى ، فقال للآخر : فأنت ما صنعت ؟ قال : مازلت به حتى شرب الخمر . قال : أنت أنت ، ثم يقول للآخر : فأنت ما صنعت ؟ قال : ما زلت به حتى زنى . قال : أنت أنت ، ثم يقول للآخر : فأنت ما صنعت؟

قال : ما زلت به حتى قتل ، فيقول : أنت أنت » . رواه الامام أحمد في مسنده .

واعلم أن الطلاق قسمان : أحدهما أن يكون محرماً أو مكروهاً ، وذلك عند استقامة الحال من حسن العشرة والصحبة ، وقوة المحبة والقيام بحقوق الله تعالى وأداء الزوجة ما يجب عليها من طاعة الزوج ونحو ذلك . والطلاق في هذه الحالة إما حرام أو مكروه على اختلاف بين العلماء ، والثاني : أن يكون الطلاق واجباً أو مندوباً ، وذلك عند الشقاق والعداوة والمضارة وسوء العشرة ، وترك حقوق الله من الصلاة ، وتعاطي المنكرات ونحو ذلك ، مع عجزه عن تغيير ذلك ، فالطلاق في هذه الحالات إما واجب أو مستحب على اختلاف بين العلماء ، فيحمل الحديث الأول في فرح الشيطان بالطلاق والفراق بين الزوجين على الحالة الأولى ، فإن فرقة المتحابين المجتمعين على الطاعة والحلال هلاك لكل واحد منهما .

قال عطاء : الطلاق هلاك ، ويتمكن الشيطان بسبب ذلك إلى أمور بما يوقع كل واحد منهما في الزنا وارتكاب الفواحش الظاهرة والباطنة والسحر والعداوة وتشتت القلب، وربما يكون ذلك وسيلة إلى عوده إليها حراماً ، ويحمل الحديث الثاني في قوله : ما زلت به حتى طلّق امرأته. قال : ما صنعت شيئاً سوف يتزوج أخرى على الحالة الثانية إذا كان الطلاق مندوباً .

الفصل الخامس عشر :

في ذكر شياطين العبادات من الاسلام والصلاة والوضوء والصيام وان الشيطان يقعد للناس على الصراط المستقيم

قال تعالى عنه أنه قال : ﴿ رب بما أغويتني لأقعدن لهم صراطك المستقيم ﴾ .

وعن أبي سبرة ، عن ابن أبي الفاكه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إنَّ الشَّيْطانَ قعدَ لابن آدم بأطرقه فقعد له بطريق الإسلام » . فقال له : تسلم وتترك دينك ودين آبائك ، فعصاه فأسلم ، ثم قعد له بطريق الهجرة فقال : أتهاجر وتذر أرضك وسمائك ، وإنما مثل المهاجر كالعرش في الطول ، فعصاه وهاجر ، ثم قعد له بطريق الجهاد ، وهو جهاد النفس والمال فقال : تقاتل فتقتل فتنكح المرأة ويقسم المال . قال رسول الله ﷺ : « فمن فعل ذلك منهم ، فمات كان حقاً على الله أن يدخله الجنة ، وإن وقعت به ناقته كان حقاً على الله أن يدخله الجنة ، وإن قتل كان حقاً على الله أن يدخله الجنة ، وإن غرق كان حقاً على الله أن يدخله الجنة » . رواه الإمام أحمد في مسنده .

قال منصور ، عن مجاهد : ما من رفقة تخرج إلى مكة إلا جهز معهم إبليس مثل عدتهم .

فصل

في وسوسة الشيطان للإنسان أثناء الصلاة :

عن عثمان بن أبي العاص قال : قلت يارسول الله ! حال الشيطان بيني وبين صلاتي . قال : « ذاك خنزب فإذا أحسست به فتعوذ بالله منه

واتفل عن يسارك » . رواه مسلم . قال ابن أبي موسى من كثر منه الشك حتى صار كالوسواس طاعنه لأنه يفضي إلى نوع من المكابرة ، فيفضي إلى الزيادة في الصلاة مع تيقن إتمامها . قال مالك : الموسوس يبني على أول خاطر ، والشيطان لعنه الله له مع الإنسان في الصلاة مواقف ، فيشككه في كيفية النية حتى يصححها ، والنية قصد تتبع العلم ، فبلغ من استيلاء الشيطان على الموسوسين أنهم أجابوه إلى ما يشبه الجنون ويقارب مذاهب السوء ، فشياطينه الذين ينكرون حقائق الموجودات والأمور المحسوسات وعلم الإنسان بحال نفسه من الأمور اليقينيات الضروريات ، وهؤلاء يكبر أحدهم ويقرأ بلسانه ما تسمعه أذناه ويعلمه بقلبه ، ثم يصدق الشيطان في إنكاره يقيناً ، وجحد لما رآه ببصره وسمعه بأذنه وكذلك يشككه في نيته وقصده التي يعلمها من نفسه يقيناً ، ومع هذا يقبل قول إبليس في إنه ما نوى الصلاة ولا أرادها مكابرة منه لعيانه ، وجحد ليقين نفسه فيشككه في نيته حتى يفوته إدراك التكبيرة الأولى مع الإمام.

وقد قال رسول الله ﷺ : « من صلّى أربعين يوماً في جماعة يدرك التكبيرة الأولى كتبت له براءتان : براءة من النار وبراءة من النفاق » . رواه الترمذي وغيره من حديث أنس ، وهو حديث حسن صححه الحاكم وغيره ، وذكره ابن الجوزي في كتاب الموضوعات ، وليس ذلك بموضوع كما قد بينا ذلك في كتاب الباهر .

قال علماؤنا وغيرهم : إذا شهد المأموم تكبيرة الإمام واشتغل عقيبها بعقد صلاته أدركها لو أن أخر لم يدركها ، وهذا الموسوس لا يدرك هذه التكبيرة وليس له فيها نصيب ، ومنهم : من تفوته الركعة الأولى ورأيت من تفوته صلاة الجمعة والجماعة وهو مشتغل بتصحيح النية والتكبير ، ومنهم : من يتلفظ بالنية سراً وهذا سهل ، فإن العلماء اختلفوا في استحباب التلفظ بها ، ثم يخدعهم الشيطان فيجهرون بها ، فكالفظ الإجماع ثم يكررون لفظها ثم يكررون لفظ التكبير أو يكرر الحرف ، فيقول : أكاك كبر وغير ذلك من خدع الشيطان . وقد بيّن الشيخ موفق الدين ذلك في جزء له سماه ذم الشيطان والوسواس ، وقد قال بعض

العلماء لمن سأله إني أقول الله أكبر وأشك بعد ذلك ، فقال له : أنت غير مخاطب بالصلاة ، فقال : لماذا ؟ قال : لأن من كبّر وشكّ هل كبر غير مخاطب لأنه مجنون غير مخاطب قد رفع عنه القلم .

قال الشيخ موفق الدين : لو كلفه الله الصلاة والوضوء بغير نية لكلفه ما لا يطيقه ، ولا يدخل تحت وسعه ، وما كان هكذا ، فما وجه التعب في تحصيله ، وإن شك في حصوله فهذا نوع جنون .

وقال ابن عقيل ، وقد قيل له : رجل انغمس في الماء مراراً وشك هل صح الغسل أم لا ، فما ترى في ذلك ؟ فقال له : اذهب فقد سقطت عنك الصلاة . قال : وكيف ؟ قال : لأن النبي ﷺ قال : رفع القلم عن ثلاثة عن المجنون حتى يفيق ، ومن يغمس في الماء مراراً وشك هل أصابه الماء أم لا فهو مجنون . » .

قال الشيخ تقي الدين ابن تيمية : وجود الارادة غير العلم بذلك ، فقد فطر الله بني آدم على محبته كنفسه وكثير أنكر ذلك تكون صحبة نفسه في قلوبهم ، وإن لم يعلموا بذلك ، كما أن الذي يدخل في الصلاة قد نواها ، وقد يظن أنه ما نواها فوجود المحبة والإرادة غير العلم بذلك .

فصل

عن أبي بن كعب رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن للوضوء شيطاناً يقال له الولهان فاتقوا وسواس الماء » . رواه الإمام أحمد ، وابن ماجه ، وابن خزيمة ، والترمذي . وقال غريب ليس بالقوي لا نعلم أحداً أسنده غير خارجة بن مصعب ، وقد روي من غير وجه عن الحسن قوله : لا يصح في هذا الباب عن النبي ﷺ شيء ، وخارجة ليس بالقوي عند أصحابنا ، وكذا قال البيهقي أنفرد برفعه خارجة ، وليس بالقوي في الرواية . قال النخعي : تشديد الوضوء من الشيطان لو كان هذا فضلا لأوثر به أصحاب محمد ﷺ .

وقال ابراهيم التيمي : أول ما يبدأ الوسواس من الوضوء .

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال : مرّ رسول الله ﷺ على سعد وهو يتوضأ فقال : « ما هذا السرف ياسعد » ! قال : أوَفي الوضوء إسراف ؟ . قال : « نعم ، ولو كنت على نهر جار » . رواه الإمام أحمد ، وابن ماجه وفيه ابن لهيعة ، فينبغي للمتوضىء أن يخفف في اثنتين : أحدهما في النية كما سبق في نية الصلاة ، فإني رأيت بعض الموسوسين يقعد على بركة الوضوء من وقت طلوع الصبح إلى أن تطلع الشمس ، وهو في تحقيق النية فيفوته الوقت . والثاني : في غسل الأعضاء ودلكها وتكرير الغسلات وبعض الناس تمضمض واستنشق فوق الخمسين مرة وهو يظن أنه لم يأت بالسنّة بعد . نسأل الله العفو والعافية .

فصل

قال القرطبي : سمعت شيخنا الإمام أبا محمد عبد المعطي بثغر الاسكندرية يقول : إن شيطاناً يقال له البيضاوي يتمثل للفقراء المواصلين ، فإذا استحكم منهم الجوع وأضر بأدمغتهم يكشف لهم عن ضياء ونور ، حتى يملأ عليهم البيوت ، فيظنون أنهم قد وصلوا ، وأنه من الله وليس كما ظنوا .

وحكى أحمد بن طاهر الفراء قال : كان بمصر بيت للضيافة ، فجاء فقير يكنى بأبي سليمان فقال : الضيافة ، فقلت لإبني : امض به إلى البيت ، فأقام معنا تسعة أيام أكل فيها ثلاث أكلات كل ثلاثة أيام أكلة ، فسألته المقام عندنا فأبى ، وقال : أريد الثغر فسألته أن لا يقطع أخباره عني ، فغاب عني اثنتي عشرة سنة ، ثم قدم فقلت له : ويحك ما كتبت إليّ بأخبارك ؟ فقال : لم أبلغ الثغر كنت بالرملة ، فرأيت فيها شيخاً يقال له أبو شعيب مبتلى ، فخدمته سنة فوقع في نفسي أن أسأله أي شيء كان سبب بلائه ، فلما دنوت منه ابتدأني قبل أن أسأله ، فقال : وما سؤالك عما لا يعنيك ؟ فصبرت سنة أخرى ، ثم تقدمت اليه لأسأله ، فقلت : إن رأيت ؟ قال : نعم . بينما أنا أصلي بالليل في

محرابي إذ بدا لي من المحراب نور قوي كاد يخطف بصري قلت : اخسأ ياملعون ! فإن ربي أجلّ من أن يبرز إلى الخلق ، ثم صبرت ساعة فبدا لي نور كاد يخطف بصري ، فقلت : اخسأ ياملعون ، فإن ربي أجل من أن يبرز للخلق ، ثم بدا ثالثة أشد مما بدا وأقوى من الأول والثاني ، فقلت ياملعون ! اخسأ فلو نورت السموات والأرضين والعرش والكرسي كان ربي أجل من أن يبرز للخلق ، ثم سمعت نداء يا أبا شعيب ! قلت : لبيك . ثلاث مرات : تحب أن نفضلك في وقتك هذا ونجازيك على ما مضى لك أو نبتليك ببلاء نرفعك به في عليين ؟ فقلت : بلاؤك بلاؤك بلاؤك ، فذهبت عيني ويدي ورجلي . قال : فكنت أخدمه اثنتي عشرة سنة ، فقال لي يوماً : ترى ما أرى ؟ قلت : لا . قال : تسمع ما أسمع ؟ قلت : لا ، قال : ادن مني فسمعت أعضاءه يخاطب بعضها بعضاً ، يقول العضو للعضو أبرز منه ، فإذا أعضاؤه بين يديه صبة واحدة تسبح وتقدس ، ثم مات رحمه الله .

فصل

قال الله تعالى : ﴿ الشَّيْطانُ يعِدُكُمُ الفَقْرَ ويأمُرُكُم بالفحْشاء والله يعِدُكم مغْفرةً منْه وفَضلاً والله واسعٌ عليم ﴾ (١) .

قال ابن أبي حاتم : حدثنا أبو زرعة ، حدثنا هناد بن السري ، حدثنا أبو الأحوص ، عن عطاء بن السائب ، عن مرة الهمداني ، عن عبدالله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ : «إن للشيطان للمة بابن آدم وللملك للمة فأما لمة الشيطان فإيعاد بالشر وتكذيب بالحق ، وأما لمة الملك فإيعاد بالخير وتصديق بالحق ، فمن وجد ذلك فليعلم أنه من الله ، فليحمد الله ، ومن وجد الأخرى فليتعوذ من الشيطان الرجيم . ثم قرأ (الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء والله يعدكم مغفرة منه وفضلا) . رواه الترمذي ، والنسائي عن هناد ، وابن حبان في صحيحه ، عن أبي يعلى ،

---

(١) سورة البقرة ، الآية : ٢٦٨ .

عن هناد قال الترمذي : حسن غريب ، وهو حديث أبي الأ وص سلام بن سليم ولا نعرفه مرفوعاً إلا من حديثه كذا قال ، ورواه ابن مردويه من غير طريقة مرفوعاً .

قال حمدون القصار : إذا اجتمع إبليس وجنوده لم يفرحوا بشيء كفرحهم بثلاثة أشياء : رجل مؤمن قتل مؤمناً ، ورجل يموت على الكفر ، وقلب فيه خوف الفقر . ويشهد لقول ابن مسعود قوله تعالى : ﴿إنما ذلكم الشيْطان يخوف أولياءه فلا تخافوهم وخافونِ إن كنتم مؤمنينَ ﴾ (١) أي يخوفكم بأوليائه بما يقذف في قلوبكم من الوسوسة المرغبة لشيطان الانس الذي يخوف من العدو فيرجف ويخذل . وعكس هذا قوله تعالى: ﴿ إذْ يُوحي ربُّك إلى الملائكة أنِّي معكُم فثبِّتوا الّذين آمنوا ﴾ (٢) وقال : ﴿ يُثَبِّتُ اللهُ الذينَ آمنوا بالقَول الثّابت في الحياة الدُّنْيا وفي الآخرة ﴾ (٣) . وقال تعالى : ﴿ ولولا أنْ ثَبّتناكَ لقَدْ كدْت تركنُ إليهم شيئاً قليلاً ﴾ (٤) . والتثبيت : جعل الانسان ثابتاً ، وذلك بالقاء ما يثبته من التصديق بالحق والوعد بالخير ، كما قال ابن مسعود لمة الملك إيعاذ بالخير وتكذيب بالشر ، فمتى علم القلب أن ما أخبر به الوسواس حتى صدقه وإذا علم أن الله قد وعده بالنصر وثق بوعد الله فيثبت ، فهذا ثبت بالكلام كما يثبت الانسان الانسان في أمر قد اضطرب فيه بأن يخبره فيصدقه ويخبره بما يتبين له من أنه مصدق فيثبت ، وقد يكون التثبت بالفعل فيمسك القلب حتى يثبت كما يمسك الانسان الانسان .

وفي الحديث ، عن النبي ﷺ : « من سأل القضاء واستعان عليه وكل إليه ومن لم يسأل القضاء ولم يستعن عليه أنزل الله اليه ملكاً يسدده » فهذا الملك يجعله سديد القول بما يلقى في قلبه من التصديق بالحق والوعد بالخير ، كما قال الله تعالى : ﴿ وما كانَ لبشَرٍ أنْ يُكَلِّمه اللهُ إلاّ وحْياً أو من وراء حجاب أو يُرسلَ رسولاً فيُوحي بإذْنه ما يشاء ﴾ (٥)

---

(١) سورة آل عمران ، الآية : ١٧٥ .
(٢) سورة الأنفال ، الآية : ١٢ .
(٣) سورة ابراهيم ، الآية : ٢٧ .
(٤) سورة الاسراء ، الآية : ٧٤ .
(٥) سورة الشورى ، الآية : ٥١ .

والملائكة رسل الله ، ولفظ الملك فيه معنى الرسالة ، فإن أصل الكلمة ملأك على مفعل ، ولكن خففت لكثرة الاستعمال لأن الهمزة حركت الهمزة على الساكنين قبلها وحذفت الهمزة .

قال الامام أحمد : حدثنا أبو معاوية ، عن الأعمش ، عن ابن بريدة عن أبيه قال : قال رسول الله ﷺ : « ما يخرج رجل صدقة حتى يفك لحيى سبعين شيطاناً » . وقد قيل : إن الشيطان يأتي الرجل بسبعين من جنوده فيتعلقون بيديه ورجليه وقلبه ويمنعونه من الصدقة ، فقال بعض القوم : أنا أقاتل هؤلاء بالسبعين ، فخرج إلى منزله وملأ ذيله من الحنطة ليتصدق به ، فوثبت زوجته ونازعته حتى أخرجته من ذيله فرجع الرجل خائباً إلى المسجد وقال : هزمت السبعين وجاءت أمهم فهزمتني .

الفصل السادس عشر :

في راية الشيطان

قال الامام أحمد : حدثنا أبو عامر ، حدثنا عبد الله بن جعفر ، عن عثمان بن محمد عن المقبري، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ : « ما من خارجٍ يخرج إلا ببابه راية بيد ملك ، وراية بيد شيطان ، فإن خرج لما يحب الله اتبعه الملك برايته ، فلم يزل تحت راية الملك حتى يرجع إلى بيته ، وإن خرج لما يسخط الله اتبعه الشيطان برايته ، فلم يزل تحت راية الشيطان حتى يرجع إلى بيته » .

وعن علي رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا كان يوم الجمعة غدت الشياطين براياتها إلى الأسواق ، فيرمون الناس بالترابيب ويثبطونهم عن الجمعة ، وتقوم الملائكة فتجلس على أبواب المسجد ، فيكتبون الرجل من ساعة والرجل من ساعتين حتى يخرج الامام » .

ورواه أبو داود ، عن أبي عثمان النهدي ، عن سلمان الفارسي رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « من غدا إلى صلاة الصبح أعطي رُبع الايمان ، ومن غدا إلى السوق أعطي راية إبليس ، وهو مع أول من يغدو ، وآخر من يروح » ذكره أبو القاسم في الترهيب .

كان النبي ﷺ إذا دخل السوق قال : « اللهم إني أعوذ بك من شر هذه السوق ، وشر ما فيها ، وأعوذ بك أن أصيب فيها صفقة خاسرة ، ويميناً فاجرة » . ذكره الضياء في المختارة . ولما كانت الأسواق تنصب الشياطين راياتها فيها كان الذكر فيها مضاعفاً .

قال الامام أحمد : حدثنا حماد بن زيد ، عن عمرو بن دينار مولى

أبي الزبير ، عن سالم ، عن أبيه ، عن عمر بن الخطاب رضي الله عنهم قال رسول الله ﷺ : « من قال في الأسواق لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك ، وله الحمد بيده الخير يحيي ويميت وهو على كل شيء قدير كتب الله له بها ألف ألف حسنة ، ومحا عنه ألف ألف سيئة وبنى له بيتاً في الجنة » .

ورواه الترمذي في جامعه ، والحكيم الترمذي في نوادر الأصول من حديث يزيد بن هارون ، حدثنا أزهر بن سنان القرشي ، عن محمد ابن واسع ، عن سالم بن عبد الله بن عمر ، عن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : « من دخل سوقاً من أسواق المسلمين ، فقال : لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك ، وله الحمد يحيي ويميت وهو حي لا يموت بيده الخير وهو على كل شيء قدير كتب الله له ألف ألف حسنة وحطت عنه ألف ألف سيئة ورفعت اه ألف ألف درجة » . قال محمد بن واسع فقدمت خراسان ، فلقيت قتيبة بن مسلم ، فقلت له : قد جئتك بهدية فحدثته به فكان يركب في مركبه إلى السوق فيقولها ثم يرجع .

وهذه الكلمات يخرج بها الانسان عن الغفلة ، والغفلة مستولية على أهل الأسواق ، وهو سبحانه وتعالى المعطي والمانع والقابض والباسط والرازق ، وضع الأسباب وجعلها نصب أعين الآدميين ، فأهل البصائر واليقين تقذف بصائرهم لأولي الأسباب فهم يعملون في الأسباب مع وليها ، ويبتغون الأرباح من فضل الله ، وأهل الغفلة تعلقت قلوبهم بالتجارات والزراعات والصناعات والأسواق مظان الأرزاق ، وهي مملكة وضعها الله تعالى لأهل الدنيا بتداول الأملاك ،فالشيء الواحد يدور ملكه في اليوم الواحد مرات ، فمملكة التداول هي الأسواق ، ومملكة التدبير التداول وهو العرش .

واعلم أن هذه الكلمات التي قالها رسول الله ﷺ فسخ لأفعال أهل الأسواق ، لأن القلوب قد لمت بعضها بعضاً في النفع والضرر ، فقال هذا الذكر (لا إله إلا الله) فكان في قوله فسخاً لوله قلوبهم .(وحده لا شريك له) فكان في قوله فسخاً لما تعلقت قلوبهم بعضها ببعض في

نوال أو معروف أو لخوف أو ضرر ، ثم قال (له الملك) فكان في قوله فسخاً لما يرون من تداول أيدي المالكين تلك الأشياء . قال (وله الحمد) كان في قوله فسخاً لما يرون من منع أيديهم وتصرفهم في الأمور يحمل ذلك بعضهم إلى بعض ، ثم قال (يحيي ويميت) كان في ذلك فسخاً لحركاتهم ، فإن تلك الحركات تملك واقتدار ، فقال : يحيي أي هو أحياهم حتى انتشرت الحركات على جديد الأرض ، ويميت أي يميتهم فلا يبقى متحرك ، ثم قال (وهو حي لا يموت) نفى عنه ما نسب إلى المخلوقين في حياتهم من أنهم يموتون ، ثم قال (بيده الخير) أي هذه الأشياء التي يطلبونها من الخير في هذه الأسواق وجميع الخير بيده (وهو على كل شيء قدير) ، فمثل أهل الغفلة والتخليط في هذه الأسواق ، كمثل الهمج والذباب يجتمعون على مزبلة يتطايرون فيها على القذر ، فعمد رجل إلى مكنسه فكنس هذه المزبلة إلى الوادي ، فإذا البقعة نظيفة ، فهذا الناطق بهذه الكلمات وجد أسواقاً مشحونة بالكذب والغش والخيانة والظلم والعدوان والايمان الكاذبة والمكاسب الردية ، قد تمكن فيهم العدو وهم على شرف حريق وعذاب ، فنطق بهذه الكلمات فرمى بهذه المزبلة في وجه العدو .

الفصل السابع عشر :

في تصفيد الشيطان في رمضان

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا جاء رمضان فتحت أبواب الرحمة وغلقت أبواب جهنم وسلسلت الشياطين » . متفق عليه . المشهور أن ما في هذه الأحاديث حقيقة فتفتح أبواب الجنة حقيقة وتغلق أبواب النار كذلك ، وقالت طائفة إنه كناية عن أفعال الخير التي هي سبب دخول الجنة ، وكناية عن ترك المعاصي التي فعلها سبب لدخول النار .

فإن قيل : لو كان ذلك حقيقة لكانت الجنة مغلقة في سائر السنة إلا في رمضان ، ولكانت النار مفتحة سائر السنة إلا في رمضان ، وإلا لم يكن الحديث فيه معنى ؟

قلنا : لفظ فتحت وغلقت يقتضي التكثير ، فيجوز أن تكون أبواب الجنة بعضها مفتوحاً وبعضها مغلوقاً ، كما في المساجد في غير أوقات الصلاة والأعياد ، وأبواب الملوك في غير وقت الاجتماع العام عند الملك، فأما وقت الاجتماع فإنه تفتح الأبواب كلها فلا يبقى باب إلا فتح .

وما في جامع الترمذي عن أبي هريرة قال رسول الله ﷺ : « إذا كان أول ليلة من رمضان صفدت الشياطين ومردة الجن وغلقت أبواب النار ، فلم يفتح منها باب ، وفتحت أبواب الجنة فلم يغلق منها باب ونادى منادٍ : يا باغي الخير ! أقبل ، ويا باغي الشر ! أقصر ، ولله عتقاء من النار وذلك في كل ليلة » . وقال حديث حسن .

وقد جاء في الحديث : أن الجنة تزخرف في شهر رمضان ومن تمام تزيينها فتح جميع أبوابها ، وكذلك القول في جهنم أجارنا الله منها أنها في غير شهر رمضان منها ما هو مغلوق ، ومنها ما هو مفتوح ، وقد يكون لها أبواب كبار وصغار وخوخات في الأبواب ، فإذا جاء رمضان سدوا الكل ، والجنة بعد دخول المؤمنين اليها تبقى مفتحة الأبواب ، وجهنم بعد دخول أهلها اليها مسدودة الأبواب مردودة بالعمد ، وأما أمر الشياطين فإنها تسلسل وتغل في رمضان على ظاهر الحديث ، أو المراد مردة الشياطين ، كما في هذا اللفظ ، وكذا جزم به أبو حاتم ابن حبان وغيره من أهل العلم ، فليس في ذلك اعدام الشر بل قلة الشر لضعفهم. وفي الترمذي ، وابن ماجه : « صفدت الشياطين ومردة الجن » . وفي النسائي : « وتغل فيه مردة الشياطين » . وقد جرى الامام أحمد هذا على ظاهره .

قال عبد الله بن الامام أحمد : قلت لأبي قد نرى المجنون يصرع في شهر رمضان ، فقال : هكذا جاء الحديث ، ولا تكلم في ذلك ، فإن أصل أحمد أن لا يتأول من الأحاديث إلا ما تأوله السلف ، وما لم يتأوله السلف لا يتأوله ، وزعمت طائفة أن معنى (صفدت الشياطين) أن النفس الخبيثة الشريرة مقيدة في رمضان بالمردة من الانس ويتعففون عما هم فيه من شرب الخمر والزنا والقتل وغيرها ، وكذا مردة الجن والشياطين اسم لكل مارد من الانس والجن ، والأول أصح .

قال الامام أحمد : حدثنا يزيد ، حدثنا هشام بن أبي هشام ، عن محمد بن محمد بن الأسود ، عن أبي سلمة ، عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « أعطيت أمتي خمس خصال لم تعطهن أمة قبلهم خلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك ، وتستغفر لهم الملائكة حتى يفطروا ، ويزين الله كل يوم جنته ، ثم يقول يوشك عبادي الصالحون أن يلقوا عنهم المؤنة والأذى ويصيروا إليك ، وتصفد فيه مردة الشياطين لا يخلصوا فيه إلى ما كانوا يخلصون اليه في غيره ، ويغفر لهم في آخر ليلة ». قيل : يارسول الله ؟ أهي ليلة القدر ؟ قال : « لا » ، ولكن العامل إنما

يوفى أجره إذا قضى عمله » . اسناده حسن ، وفيه أن تصفيد الشياطين في شهر رمضان من خصائص هذه الأمة .

قال الشيخ تقي الدين : تفتيح أبواب الجنة ، واغلاق أبواب النار ، وتصفيد الشياطين إذا دخل رمضان ، إنما هو للمسلمين الذين يصومون رمضان لا للكفار الذين لا يرون له حرمة قوله ﷺ ، وذلك في كل ليلة هل يعود إلى العتقاء والنداء أو إلى العتقاء فقط ظاهر اللفظ العود إليهما .

قال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرحمن بن هشام ، عن قتادة ، عن خويلد العصري عن أبي الدرداء قال رسول الله ﷺ : « ما طلعت شمس قط إلا بعث بجنبتيها ملكان يناديان يسمعان أهل الأرض إلا الثقلين. يا أيها الناس ! هلموا إلى ربكم ما قل وكفى خير مما كثر وألهى ، ولا طلعت شمس إلا بعث بجنبتيها ملكان يناديان يسمعون أهل الأرض إلا الثقلين اللهم أعط منفقاً خلفاً وأعط ممسكاً تلفاً » .

وقال الإمام أحمد : حدثنا إسماعيل ، عن عطاء بن السائب ، عن عرفجة ، عن رجل من أصحاب رسول الله ﷺ أنه ذكر رمضان فقال : « تفتح فيه أبوابُ الجنةِ وتُغْلَقُ فيه أبوابُ النّار وتُصَفّد فيه الشياطين وينادي مناد كل ليلة : يا باغي الخير ! أقبل ، ويا باغي الشر ! أقصر ، حتى ينقضي رمضان » .

الفصل الثامن عشر :

في حضور الشيطان عند النبي صلى الله عليه وسلم وفراره من عمر رضي الله عنه

عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال : استأذن عمر على النبي ﷺ ، وعنده نسوة من قريش يكلمنه ويستكثرنه عالية أصواتهن على صوته ، فلما استأذن عمر رضي الله عنه قمن يبتدرن الحجاب ، فأذن له رسول الله ﷺ ، فدخل عمر ورسول الله ﷺ يضحك ، فقال عمر : أضحك الله سنك يا رسول الله ! بأبي أنت ما أضحكك ؟ قال : عجبت من هؤلاء اللاتي كن عندي ، فلما سمعن صوتك ابتدرن الحجاب . قال عمر : فأنت يا رسول الله أحق أن تهبن ، ثم قال عمر : أي عدوات أنفسهن أتهبنني ولا تهبن رسول الله ﷺ ؟ قلن : نعم أنت أفظ وأغلظ . قال ، فقال رسول الله ﷺ « إيه يا ابن الخطاب ! والذي نفسي بيده ما لقيك الشيطان سالكاً فجاً إلا سلك فجاً غير فجك » متفق على معناه . وفي مسلم من حديث أبي هريرة نحوه . الفج : الطريق .

وعن بريدة أن أمة سوداء أتت النبي ﷺ ، وقد رجع من بعض مغازيه ، فقالت : إني كنت نذرت إن ردك الله صالحاً أن أضرب عليك بالدف . قال إن كنت فعلت فافعلي ، وإن كنت لم تفعلي فلا تفعلي ، فضربت ، فدخل أبو بكر ، وهي تضرب ، ودخل غيره ، وهي تضرب ، ثم دخل عمر ، فجعلت دفها خلفها وهي مقنعة ،فقال رسول الله ﷺ : « إن الشيطان ليفر منك يا عمر أنا جالس ههنا ودخل هؤلاء ، فلما دخلت فعلت ما فعلت » . رواه الامام أحمد والترمذي ، ولفظه : إني كنت نذرت إن ردك الله سالماً أن أضرب بين يديك بالدف ، وأتغنى ، فقال : إن كنت نذرت فاضربي وإلا فلا . فقالت : نذرت ، فجعلت

تضرب ، فدخل أبو بكر وهي تضرب ، ثم دخل علي وهي تضرب ، ثم دخل عثمان وهي تضرب ، ثم دخل عمر ، فألقت الدف تحت أليتها وقعدت عليه ، فقال رسول الله ﷺ : « إن الشيطان يخاف منك ياعمر ! إني كنت جالساً وهي تضرب ، فدخل أبو بكر وهي تضرب ، ثم دخل عثمان وهي تضرب ، ثم دخل علي وهي تضرب ، فلما دخلت أنت ياعمر ألقت الدف وجلست عليه » . قال الترمذي : حديث حسن صحيح غريب .

وقال سالم بن عبد الله : أبطأ خبر عمر على أبي موسى ، فأتى امرأة في بطنها شيطان ، فسألها عنه ، فقالت : حتى يجيء شيطاني فجاء فسألته عنه ، فقال : تركته مؤتزراً بكساء يهنأ إبل الصدقة ، وذاك رجل لا يراه شيطان إلا خرّ لمنخريه الملك بين عينيه ، وروح القدس ينطق على لسانه . رواه ابن أبي الدنيا في كتاب مكايد الشيطان .

قال الكلاباذي في كتاب بحر الفوائد : يجوز أن يكون الشيطان كان يخاف عمر ولا يخاف النبي ﷺ ، لأنه لو خافه لم يجد خوفه منه وهيبته له من أحد وجهين : إما خوف إجلال وتعظيم وهو فضيلة ، والشيطان أبعد شيء من الفضائل ، والثاني : خوف عقوبة يحلها به ، والنبي ﷺ لم يكن يعاجل بالعقوبة استخفافاً به وقلة مبالاة إذ لم يكن النبي ﷺ يخاف فتنته ولا يهاب وسوسته ، فلم يهبه اغتراراً به وأمناً من مكر الله تعالى ، وأما عمر رضي الله عنه ، فإن كان يخاف الشيطان أن يفتنه ويوسوس إليه فكان يناصبه ، فكان يترك فجه وسبيله حذراً منه ، وأما النبي ﷺ فكان لا يبالي استخفافاً به واستصغاراً له ، فإنه ليس بشيء عنده ، وقد قال أبو حازم : وما الشيطان حتى يُهاب ؟ فوالله لقد أطيع فما نفع ، وعصي فما ضر ، وكان الشيطان يتمثل لعامر بن قيس في صورة حية في موضع سجوده ، فكان إذا سجد نحاه ويقول : والله لولا نجاستك لم أزل أسجد عليك .

قلت : وقد يقال في توجيه ذلك إن رسالة النبي ﷺ شاملة لكل مكلف من الجن والإنس والشياطين ، فكان حضوره عند النبي ﷺ

واستماعه أبلغ وأشق عليه ، واستماعهم للنبي ﷺ من كماله وشمول دعوته وفرار الشيطان من عمر فضيلة له ، والنبي ﷺ لم يكن له إلا ثلاثة خواطر : خاطر إلهي ، وخاطر ملكي ، ونفسي ليميزه الله سبحانه بالعصمة ، ولسائر المؤمنين أربع خواطر . الرابع خاطر شيطاني .

وقيل لإبليس : ما حالك مع الشيخ أبي مدين ؟ فقال : ما شبهت نفسي فيما يلقى إليه إلا بشخص بال في البحر المحيط ، فقيل له : لِمَ تبول فيه ؟ قال : حتى أنجسه فلا تقع به الطهارة ، فهل رأيتم أجهل من هذا الشيخ بأحكام الله ؟ وقد تقدم خبر عبد الرحمن ابن حبيش .

وعن أبي سعيد رضي الله عنه قال : قام النبي ﷺ يصلي وهو خلفه ، فقرأ ، فالتبست عليه القراءة ، فلما فرغ من صلاته قال : « لو رأيتموني وإبليس فأهويت بيدي فما زلت أخنقه حتى وجدت برد لعابه بين أصبعي هاتين الأبهام والتي تليها ، ولولا دعوة أخي سليمان لأصبح مربوطاً في سارية من سواري المسجد يتلاعب به صبيان المدينة ، فمن استطاع منكم أن لايحول بينه وبين القبلة أحد فليفعل » .رواه الحافظ ضياء الدين ، وهو حديث حسن ، وفي الصحيحين معناه .

وعن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : «إن عفريتاً من الجن تفلّت عليّ البارحة ليقطع عليّ الصلاة وإنّ الله أمكنني منه فذعته » . وذكره قال فرددته . رواه البخاري ، ورواه مسلم ولفظه : يفتك ، والفتك : الأخذ في غفلة وخديعة . قوله : فذعته هو بذال معجمة وتخفيف العين المهملة . أي خنقته . ورواه ابن أبي شيبة بدال مهملة . أي : دفعته دفعاً شديداً ، وأنكر الخطابي المهملة ، وقال : لا تصح وصححها غيره . قال ابن الجوزي في كشف المشكل .

فإن قيل : كيف دنا من النبي ﷺ وهو يفر من ظل عمر ؟

قلنا : كان يعلم من النبي ﷺ الحلم والصفح ، ومن عمر الغلظة والشدة وطمع في جانب الحلم ، ثم أنه استقيل في أذى الرئيس ، ولم يزل يستقيل في أذى غيره انتهى .

وقد قال ﷺ لعمر رضي الله عنه لما دخل عليه وعنده جواري يضربن بالدف فأسكتهن لدخوله ، وقال : إن هذا رجل لا يحب الباطل، فكل لذة لا توجب لذة في الآخرة وتمنع لذة الآخرة ، فهي لذة باطلة ولا منفعة لها ولا مضرة وزينتها تسر وتشغل عما هو خير منها في الآخرة، واللهو فيه لذة ، وقد يكره لأنه يصد عن فعل القربة والنفوس الضعيفة والصبيان قد لا تشتغل عن ترك اللغو بما يكون خيراً منه ، بل قد تشتغل بما هو شر منه أو تتألم بتركه ، فيكون تمكينها من ذلك إحساناً إليها وصدقة عليها كالمعاة واسقامها ، فلهذا أمكنهم رسول الله ﷺ من عمل هذا الباطل بحضرته احساناً اليهن ورحمة بهن ، وكان ذلك في حقه من الحق المستحب المأمور به ، وإن كان في حقهن من الباطل كما كان اعطاؤه المؤلفة قلوبهم مأموراً به في حقه ورفقاً بهم ، فالنبي ﷺ يبذل أنواعاً للنفوس من الأموال والمنافع ما يتألفها به على الحق المأمور به ، ويكون المبذول مما يلتزمه الآخذ ويحبه لأن ذلك وسيلة إلى غيره ولا يفعل ذلك مع من لا يحتاج إلى ذلك كالمهاجرين والأنصار ، بل يبذل أنواعاً أخر من الاحسان والمنافع ، وعمر رضي الله عنه لا يحب هذا الباطل ولا يحب سماعه وليس هو مأموراً إذ ذاك من التألف بما أمر به النبي ﷺ حتى يصبر نفسه على سماعه ، فكان إعراض عمر عن الباطل كمالاً في حقه ، وحال النبي ﷺ أكمل ومحبة النفوس للباطل نقص .

فصل

قال الله تعالى : ﴿ وما أرسلْنا منْ قبلك من رسولٍ ولا نبي إلاّ إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته ﴾ . المشهور في كتب التفسير أن النبي ﷺ قرأ : ﴿ والنّجْم إذا هَوى ﴾ [1] . فلما بلغ : ﴿ أفرأيتم اللات والعزى ﴾ . فقال : « تلك الغرانيق العلى ، وإن شفاعتهن لترتجى » .

قال أهل العلم : هذا السبب لم يصح ، وقد تكلم القاضي عياض في

(١) سورة النجم ، الآية : ١ .

الشفاء في ذلك ، وقال البزار : هذا الحديث لا نعلمه يروى عن النبي ﷺ بإسناد متصل . قال ابن عطية : مذهب أهل الحديث أن الشيطان ألقى ولا يعنون هذا الاعتبار ولا غيره . قال : ولا خفاء أن القاء الشيطان إنما هي ألفاظ مسموعة بها وقعت الفتنة ، ثم اختلف الناس في صورة هذا الالقاء والذي في التفسير أنه ﷺ تكلم بذلك على لسانه . قال العلماء: والمتكلمون هذا لا يجوز للعصمة . إنتهى .

وفي الصحيحين : عن ابن عباس أن النبي ﷺ سجد في النجم ، وسجد معه المسلمون والمشركون والجن والإنس رواه البخاري . قال كثير من العلماء منهم ابن الجوزي : إنما سجد المشركون معه لأنهم سمعوا تلك الغرانيق العلى وإن شفاعتهم لترتجى ، ففرحوا ووافقوه في السجود . وقد ذكرت في التفسير أن شيطاناً تكلم بذلك ، فسمعوه إما من الانس وإما من الجن ، لأنهم كانوا إذا قرأ النبي ﷺ لغواً كما وصفهم الله عز وجل بقوله وقالوا : ﴿ لا تَسْمَعوا لهذا القرآن والْغوا فيه ﴾ (١) . فلما سمعوا هذه السورة قال بعض هذه الكلمات على وزنها ، فظنوا أنه ﷺ قالها، وإنما قيلت في ضمن تلاوته ، وأما أن يكون هذا جرى على لسان الرسول المعصوم فمحال ، فلا يغتر بما في التفاسير أنه جرى على لسانه ، ولو جاز هذا لاختلط الحق بالباطل ولا يقال لعل هذا مما القاه الشيطان ، لأن الله تعالى قد عصم نبيه وبين كيفية حفظ الوحي من الشيطان قال تعالى : ﴿ فإنّهُ يَسْلُكُ منْ بينِ يديه ومنْ خَلْفه رصَدا ﴾ (٢) . فالمعنى أنه يحرس الوحي عند تلاوة الملك له على الرسول ﷺ من استراق الشياطين لئلا يسبقونه إلى الكاهن ، فيتكلم به قبل الرسول ، وهذه العصمة تنافي صحة ما ادعى مما أنكرناه ، وقد ذهب إلى ما قلنا كبار العلماء منهم : أبو الحسين بن المنادى ، وأبو جعفر النحاس ، وابن عقيل في خلق كثير من المحققين ، وفي الجملة كلام الناس في صورة هذا الالقاء يدور على وجوه :

---

(١) سورة فصلت ، الآية : ٢٦ .

(٢) سورة الجن ، الآية : ٢٧ .

أحدها : أن النبي ﷺ قال ذلك .

قال شيخ الاسلام تقي الدين ابن تيمية في الرد على الرافضي : المشهور عند السلف والخلف أن ذلك جرى على لسانه ، ثم نسخه الله . انتهى كلامه ، وهذا قول باطل عند عامة العلماء من المحدثين والفقهاء والمتكلمين من جميع الطوائف قالوا : ومن المحال أن يجري هذا على لسان النبي ﷺ لدلائل عصمته .

الثاني : قال قتادة ومقاتل : أنه ﷺ أصابته سنة عند قراءته هذه السورة ، فجرى هذا الكلام على لسانه بحكم النوم وهذا لا يصح إذ لا يجوز على المعصوم مثله في حال من أحواله ، ولا يخلقه الله على لسانه في نوم ولا يقظة .

الثالث : إن الشيطان نطق بلفظ أسمع الكفار عند قراءة النبي ﷺ (أفرأيتم اللات والعزى) وقرب صوته من صوت النبي ﷺ حتى التبس الأمر على المشركين ، وقالوا : محمد قرأها ، وهذا هو الجواب المشهور عند المحدثين والفقهاء ، كأبي الحسن بن المنادى ، وابن عقيل ، والقاضي أبي بكر ، وإمام الحرمين ، والقاضي عياض وغيرهم .

وقال الإمام فخر الدين الرازي : الصحيح عند أهل الحق أن الشيطان لا يقدر على القاء الباطل في أثناء الوحي وكان صديق الملك سام بن محمد يقول : من جوز هذا وقال القاء الشيطان في أثناء الوحي في سورة النجم فقوله باطل من وجهين :

أحدهما : أن النبي ﷺ قال : « منْ رآني في المنام فقد رآني حقاً فإن الشيطان لا يتمثل بي» ، فإذا لم يقدر الشيطان على أن يتمثل بصورة الرسول فكيف يقدر على التشبه بجبريل حال اشتغاله بتبليغ الوحي .

الثاني : أن النبي ﷺ قال : « ما سلك عمر فجّاً إلا سلك الشيطان فجاً آخر فإذا لم يقدر الشيطان على أن يحضر مع عمر، فكيف يقدر أن يحضر مع جبريل في موضع تبليغ وحي الله عز وجل » .

الثالث : أن الملقى شيطان الإنس لقوله تعالى حكاية عنهم : (والغوا فيه) .

الرابع : أن التمني قد يراد به القراءة كما قاله الأكثر ، وقد يراد به حديث وهو المراد هنا ، ومعنى الآية : إلا إذا حدث ألقى الشيطان في حديثة . وروي عن ابن عباس قال النحاس هذا أحس ما قيل في الآية وأعلاه وأجله .

الخامس : إن الإلقاء في قلوب الكفار عند قراءة النبي ﷺ قاله سليمان بن حرب شيخ البخاري ، فجعل في معنى هذا كقوله تعالى : ﴿ ولَبِثْتَ فينَا منْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴾ [1] . وقال شيخ الإسلام تقي الدين : القاء الشيطان قد يكون في لفظ المبلغ ، وقد يكون في سمع المبلغ ، وقد يكون في فهمه .

---

(١) سورة الشعراء ، الآية : ١٨ .

الفصل التاسع عشر :

في كلام الانبياء عليهم السلام وغيرهم للشياطين

قال أبو العالية : لما رست السفينة رأى نوح عليه السلام إبليس على الكوثر ، فقال له نوح : أهلكت الناس غرقوا من أجلك . قال : فما تأمرني ؟ قال : تتوب . قال : وهل لي من توبة ؟ ادع ربك ، فدعا نوح ربه ، فأوحى الله اليه أن توبته أن يسجد لقبر آدم ، فقال له نوح عليه السلام قد جعلت لك توبة . قال : وما هي ؟ قال : تسجد لقبر آدم . قال : أنا لم أسجد له حياً ، فكيف أسجد له ميتاً . رواه ابن أبي الدنيا في كتاب مكائد الشيطان .

وله عن ابن عمر قال : لقي موسى عليه السلام إبليس ، فقال : ياموسى ! أنت الذي اصطفاك الله برسالته وكلمك تكليماً أذنبت أذنبت ، وأنا أريد أن أتوب ، فاشفع لي إلى ربك أن يتوب عليّ . قال موسى : نعم ، فدعا موسى ربه ، فقال الله له : قد قضيت حاجتك فلقي موسى عليه السلام إبليس لعنه الله ، فقال : قد أُمرت أن تسجد لقبر آدم ويتاب عليك ، فاستكبر وغضب ، وقال : أنا لم أسجد له حياً أأسجد له ميتاً ؟ ثم قال إبليس : ياموسى ! إن لك عليّ حقاً بما شفعت لي عند ربي ، فاذكرني عند ثلاث لا أهلكك فيهن . أذكرني حين تغضب فإن وجهي في وجهك وعيني في عينك ، وأجري منك مجرى الدم ، واذكرني حين تلقى الزحف ، فإني آتي ابن آدم حين يلقى الزحف ، فأذكره أهله وزوجته وولده حتى يولي وإياك أن تجالس امرأة ليست بذات محرم فإني رسولها إليك ورسولك اليها .

وذكر أهل التاريخ : أن إبليس قال لنوح عليه السلام حين عرض

عليه التوبة : تنصحني ؟ قال : أنصحك . قال : إن عندي اثنتين وإن شئت أربعاً ، فأوحى إليه أن سله عن اثنتين ولا تسأله عن أربع ، فسأله فقال : ليس هذا من عندك لا تحسد الناس ، فإن الحسد منعني أن أسجد لآدم ، فصرت بهذه الحال ، وإياك والحرص فإن الحرص هو الذي حمل آدم على أن أكل من الشجرة وأخرج من الجنة ، ولقي عيسى بن مريم عليه السلام إبليس لعنه الله فقال له : أسألك بالحي القيوم الذي جعل عليك اللعنة ما الذي يسل جسمك ويقطع ظهرك ؟ فضرب بنفسه الأرض ، ثم قام فقال : لولا أنك سألتني بالحي القيوم ما أخبرتك . أما الذي يقطع ظهري فصلاة الرجل في بيته نافلة وفي الجماعة ، وأما الذي يسل جسمي فصهيل الفرس في سبيل الله عز وجل .

وقال ابن عدي : حدثنا عبد المؤمن بن أحمد ، حدثنا منقذ بن الحكم حدثنا ابن لهيعة ، عن أبيه ، عن أبي الزبير ، عن جابر قال : كانت جنية تأتي في نساء منهم النبي ﷺ ، فأبطأت عليه ، فأتت ، فقال : ما أبطأك ؟ قالت : مات لنا ميت بالهند ، فذهبت في تعزيته ، ورأيت في طريقي إبليس يصلي على صخرة ، فقلت ما حملك على أن أضللت آدم ؟ قال : دعي هذا عنك . قلت تصلي وأنت أنت ؟ قال : يا فارغة ! إني لأرجو من ربي إذا أبرّ قسمه أن يغفر لي ، فما رأيت رسول الله ﷺ ضحك ذلك اليوم . هذا حديث غريب . قال ابن الجوزي هذا حديث محال ، وابن لهيعة لا يوثق به .

قال مكحول أبو عثمان : كان عيسى عليه السلام يصلي على رأس جبل فأتاه إبليس ، فقال لعيسى عليه السلام : ألست تؤمن بالقضاء والقدر ؟ قال عيسى عليه السلام : نعم . قال : فالق نفسك من شاهق فلا يصيبك إلا ما قدر لك ، فقال له عيسى عليه السلام : « الرب يبتلي عبده ويختبره وليس للعبد أن يختبر ربه » . رواه ابن أبي الدنيا . وعن طاووس نحوه .

وعن ابن عباس : أن الشيطان لقي عيسى عليه السلام على عتبة بيت المقدس قال يا ملعون : أخبرني ما الذي صنعت بأمة موسى ؟ قال :

سولت لهم اليهودية . قال : ما تصنع بأمتي ؟ قال : آمرهم أن يتخذوك إلهاً . قال : ما تصنع بأمة محمد ؟ قال هيهات لا سبيل لي عليهم ولكن أحبب اليهم الدنانير والدراهم حتى تكون عندهم أشهى من قول لاإله إلا الله .

قال وهب بن منبه : لما ضربت الدراهم والدنانير حمله إبليس فقبله ، وقال سلاحي وقرة عيني وقرة قلبي بكما أغوي وبكما أطغي ، بكما أكفر بني آدم ، بكما يستوجب ابن آدم حبي . قال وهب بن منبه : فالويل ثم الويل لمن آثرهما على طاعة الله .

قال مجاهد : لما كبر اليسع عليه السلام قال : لو أني استخلفت رجلا من الناس يعمل عليهم في حياتي ، حتى أنظر كيف يعمل ، فجمع الناس فقال : من يقبل لي بثلاث استخلفه ، يصوم النهار ، ويقوم الليل ، ولا يغضب ، فقام رجل تزدريه العين ، فقال : أنا . قال : فجعل إبليس يقول للشياطين عليكم بفلان ، فأعياهم الرجل ، فقال : دعوني وإياه ، فأتاه في صورة فقير حين أخذ مضجعه للقائلة ، وكان لا ينام الليل والنهار إلا تلك القائلة ، فذكر أنه اشتكى اليه من قوم ظلموه ، فقال له : إذا رجعت ائتني آخذ لك بحقك ، فلم يجيء اليه ، ثم جاء وقت القائلة قال : لِمَ لا جئت ؟ قال : إذا عرفوا أنك قاعد قالوا نحن نعطيك حقك ، وإذا نمت جحدوني فمنعه النوم ، فدخل عليه مرة أخرى من كوة في البيت ، فقال له أعدوا الله ، فقال : نعم أعييتني في كل شيء ففعلت ما تراه لأغضبك ، فسماه الله ذا الكفل لأنه تكفل بأمر فوفى به .

عن ابن عمر قال : كنا جلوساً عند النبي ﷺ ، فجاء رجل من أقبح الناس وجهاً وأقبحهم شباباً وأنتن الناس ريحاً ، والناس حلق حلق ، فتخطى رقاب الناس حتى جلس بين يدي النبي ﷺ ، فقال : من خلقك ؟ فقال النبي ﷺ : «الله» . قال : فمن خلق السماء ؟ قال : «الله» . قال : فمن خلق الأرض ؟ قال : « الله » . قال : فمن خلق الله ؟ فقال النبي ﷺ : « سبحان الله » وأمسك لحيته وطأطأ رأسه ، وقام الرجل فذهب فرفع رسول الله ﷺ رأسه فقال : « عليّ بالرجل » فطلبناه ،

فكأن لم يكن ، فقال رسول الله ﷺ : « هذا إبليس جاءكم ليشككم في دينكم » . رواه البيهقي في دلائل النبوة .

قال الجنيد بن محمد : رأيت إبليس يمشي في السوق عرياناً وبيده كسرة خبز يأكل ، فقلت له : ويحك تمشي في السوق عرياناً ولا تستحي من الناس ! فقال : يا أبا موسى ! وهل بقي أحد على وجه الأرض يستحي منه . من كان يستحي منهم تحت التراب أكلهم الثرى ذكره ابن جهضم . وقد خنق النبي ﷺ إبليس في الصلاة حتى سال برد لعابه على يده .

قال الإمام أحمد : حدثنا سبرة بن معبد ، حدثنا أبو عبيد ، صاحب سليمان قال : رأيت عطاء بن يزيد الليثي قائماً يصلي ، فذهبت أمرّ بين يديه فردني ، ثم قال : حدثني أبو سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قام فصلى صلاة الصبح وهو خلفه ، فقرأ ، فالتبست عليه القراءة ، فلما فرغ من صلاته قال : « لو رأيتموني وإبليس فأهويت بيديَّ فما زلت أخنقه حتى وجدتُ بَردَ لعابه بين أصبعيَّ هاتين الابهام والتي تليها ، ولولا دعوة أخي سليمان أصبح مربوطاً بسارية من سواري المسجد يتلاعب به صبيان المدينة ، فمَنْ أستطاع منكم أن لا يحول بينهُ وبين القبلة أحد فليفعل » ..

قال شيخ الإسلام تقي الدين ابن تيمية : رسول الله ﷺ لم يكن مستخدم الجن ، لكن دعاهم إلى الإيمان بالله ، وقرأ عليهم القرآن ، وبلغهم الرسالة ، وبايعهم كما فعل بالانس ، والذي أوتيه النبي ﷺ أعظم مما أوتيه سليمان ، فإنه استعمل الجن والإنس في عبادة الله وحده وسعادتهم في الدنيا والآخرة لا لغرض يرجع إليه إلا ابتغاء وجه الله وطلب رضاه ، واختار أن يكون عبداً رسولاً ، وقد سبق خبر أبي هريرة لما وكله رسول الله ﷺ بحفظ الزكاة ، فجاءه الشيطان وعلمه آية الكرسي .

وعن الفضيل بن عياض قال : جاء إبليس وموسى يناجي ربه ،

فوقف قريباً منه ، فقال له بعض الملائكة : يا ملعون ! ما الذي ترجو منه في هذا الوقت ؟ فقال ما رجوت من أبيه آدم ، فلهذا قال : ﴿ ربِّ أرني أنظُرْ إليكَ ﴾ [1] . ليزول الوسواس .

قال وهب بن منبه : بلغنا أن الخبيث إبليس تبدى ليحيى بن زكريا فقال له : إني أريد أن أنصحك ، فقال : كذبت أنت لا تنصحني ، ولكن أخبرني عن بني آدم . قال : عندنا على ثلاثة أصناف : أما صنف منهم أشد الأصناف علينا نقبل على أحدهم حتى نفتنه ونستمكن منه ثم يفزع إلى الاستغفار والتوبة ، فيفسد علينا كل شيء أدركناه منه . ثم نعود فلا نحن نيأس منه ولا نحن ندرك منه حاجتنا ، فنحن من ذلك ، وأما الصنف الآخر : فهم في أيدينا بمنزلة الكرة في أيدي صبيانكم نتلقفهم كيف شئنا قد كفونا أنفسهم ، وأما الصنف الآخر : فهم مثلك معصومون لا نقدر منهم على شيء ، فقال له يحيى عليه السلام : هل قدرت مني على شيء ؟ قال : لا . إلا مرة واحدة ، فإنك قدمت طعاماً تأكله فلم أزل أشهيه إليك حتى أكلت أكثر مما تريد ، فنمت تلك الليلة ولم تقم إلى الصلاة ، كما كنت تقوم اليها . فقال يحيى : لا جرم ، لا شئعت طعاماً أبداً حتى أموت ، فقال له الخبيث : لا جرم لا نصحت آدمياً بعدك أبداً .

قال شيخ الإسلام تقي الدين ابن تيمية في الفرقان الكبير قد يأتي الجني إلى من هو في البرية ملكاً أو أميراً ، وقد يكون كافراً قد انقطع وعطش وخاف الموت ، فيأتيه في صورة أنسي ويسقيه ويدعوه إلى الاسلام فيسلم ويطعمه ، ويقول له : من أنت ؟ فيقول : أنا فلان ، كما جرى مثل هذا لي في القلعة . كنت في قاعة وجرى مثل هذا لأمير من الترك من ناحية المشرق وقال له ذلك الشخص : أنا ابن تيمية فلم يشك ذلك الأمير أني أنا هو ، وأخبر بذلك ملك ماردين وأرسل بذلك ملك ماردين رسولاً إلى مصر وأنا في الجب ، فاستعظموا ذلك ، وأنا لم أخرج من الجب ولكن كان هنا جنياً وهو يحبنا ، فصنع بالترك كثيراً

---

(١) سورة الأعراف ، الآية : ١٤٣ .

مثل ما كنت أصنع لهم . لما جاؤا إلى دمشق كنت أدعوهم إلى الاسلام، فإذا نطق أحدهم الشهادتين أطعمتهم ما تيسر ، فعمل معهم مثل ما كنت أعمل وأراد بذلك إكرامي قال لي طائفة من الناس : فلم لا يجوز أن يكون ملكاً ؟ قلت : لا لأن الملك لا يكذب ، وهذا قد قال أنا ابن تيمية وهو يعلم أنه كاذب في ذلك . انتهى .

وذكر ابن أبي الدنيا أن عبد الله بن حنظلة بن الغسيل لقيه الشيطان وهو خارج من المسجد ، فقال : تعرفني يا ابن حنظلة ؟ فقال : نعم . قال : من أنا ؟ قال : أنت الشيطان . قال : كيف علمت ذلك ؟ قال : خرجت وأنا أذكر الله فلما رأيتك تلهيت جعلت أنظر اليك ، فشغلني النظر اليك عن ذكر الله ، فعلمت أنك الشيطان . قال : صدقت ، فاحفظ عني شيئاً أعلمك . قال : لا حاجة لي به . قال : تنظر ، فإن كان خيراً قبلت ، وإن كان شراً رددت . لا تسأل أحداً غير الله سؤال رغبة ، وانظر كيف تكون إذا غضبت .

وذكر أيضاً أن إبليس قال : يارب ! اعفني من السجود لآدم أعبدك عبادة ما عبدكها أحد من خلقك . قال : فأوحى الله إليه إنما أطاع من حيث عصيت .

وذكر أيضاً عن الربيع بنت معوذ بن عفراء رضي الله عنها أنها قالت: بينما أنا في مجلسي إذ انشق سقفي ، فهبط عليَّ منه أسود مثل الجمل لم أر مثل سواده قالت : فدنا مني يريدني قالت : وتبعته صحيفة فإذا فيها من رب عكب إلى عكب أما بعد فلا سبيل لك على المرأة الصالحة بنت الصالحين قالت : فخرج من حيث جاء ، وأنا أنظر اليه ، وكانت الصحيفة عندها .

وقال ابن أبي الدنيا : حدثنا اسحاق بن اسماعيل ، حدثنا وهب بن جرير ، أنا أبي ، عن الحسن ، عن عمار بن ياسر قال : قاتلت مع النبي ﷺ الجن والإنس قيل : فكيف قاتلت الجن ؟ قال : كنا مع رسول الله ﷺ في سفر ، فنزلنا منزلاً . فأخذت قربتي ودلوي لأستقي

من الماء ، فقال رسول الله ﷺ : « إنه سيأتيك على الماء آت يمنعك منه » فلما كنت على رأس البئر إذ جاء رجل أسود ، فقال : والله لا تستقي منها اليوم ذنوباً واحداً ، فأخذني ، فأخذته فصرعته ، وأخذت حجراً فكسرت به وجهه وأنفه ، ثم ملأت قربتي ، فأتيت رسول الله ﷺ ، فقال : « هل أتاك على الماء أحد » ؟ قلت : نعم ، فقصصت عليه القصة. قال : « أتدري من هو » ؟ قلت : لا . قال : « ذاك الشيطان » .

قال أبو سعيد الخراز : رأيت إبليس في منامي وبيدي عصا ، فرفعتها حتى أضرب ، فقال لي قائل : هذا لا يفزع من العصا . قلت : من أي شيء ؟ قال : من نور يكون في القب ، وقال أبو سعيد أيضاً: رأيت إبليس في النوم على وسطه منطقة ملوية ، وهو يفر من خلفنا ، فقلت : تعال . فقال : إيش أعمل عندكم ؟ أنا أخدع الناس بالدنيا وأنتم قد تركتم الدنيا ، فمر قليلاً ، ثم رجع ، فقال لي : فيكم لطيفة ؟ فقلت : إيش هو ؟ فقال : صحبة الأحداث ، ثم قال أبو سعيد : ما أقل من سلم منهم .

قال إبراهيم الموصلي : استأذنت الرشيد أن أتأخر عنه كل أسبوع يوماً ، فأذن لي أن أنفر يوم السبت ، فبينما أنا في داري وحشمي وخدمي إذ أنا بشيخ ذي هيئة وجمال ، وبيده عكاز مقمعة بفضة ، فدخلني منه هيبة ووحشة ، فسلم أحسن سلام ، فرددت عليه وأذنته بالجلوس ، فجلس ، ثم أخذ في أحاديث الناس وأيام العرب ، حتى زال الغضب ، فقلت : أحب غلماني أن يسروني بهذا الشيخ ، فقلت لك في الطعام . قال : إني أعاف . قلت : الشراب ؟ قال : نعم فشربت وشرب ، فقال : يا أبا اسحاق ! هل لك أن تغنيني ما قدم لك عند الخاص والعام فخجلت فأخذت العود وتغنيت ، فقال : أحسنت يا إبراهيم ، ثم قال: هل لك أن تعيده ؟ فلم أجد إلى رده سبيلا ، فأخذت العود وتغنيت ، فقال : أجدت يا أبا إسحاق ! ثم تغنيت ، فقال : أحسنت ياسيدي ، ويابقية عودي ، ثم قال أتأذن لعبدك في جسه ؟ قلت : نعم ، فدعاه فإذا هو في حجره .

ولي كبدٌ مقْروحةٌ منْ يبيعني بها كبداً ليست بذات قُروح
أباها على النّاس لا يشترونهـا ومنْ يشتري ذا علةٍ بصحيحِ

قال إبراهيم : فجاوبته الأبواب ، ثم قال : يا إبراهيم : تعلم ، ثم غاب عني ، فوثبت كالمجنون أفتش ، فأتيت النساء ، فقلت لهن : رأيتم الشيخ ؟ قلن : نعم رأيناه عندك ، وسمعنا غناءه ، فبينما أنا كذلك إذ سمعت هاتفاً يقول : كان نديمك اليوم أبو مرة يا أبا إسحاق ، فقلت : لأطرفن أمير المؤمنين بذلك فأخبرت الرشيد .

قال بعض السلف : دليل هذا قوله تعالى : ﴿ هَلْ أُنَبِّئُكُم على مَنْ تَنَزّل الشياطين تنزّل على كل أفّاكٍ أثيم ﴾ [1] .

(١) سورة الشعراء ، الآية : ٢٢١ .

الفصل العشرون :

مم خلق الشيطان وافتخاره بأصله

عن عائشة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ : « خلقت الملائكة من نور ، وخلق الجان من مارج من نار ، وخلق آدم مما وصف لكم » . رواه مسلم .

وقال تعالى حكاية عن إبليس أنه : ﴿ قال أنَا خيرٌ منْهُ خَلَقْتني مِنْ نارٍ وخَلَقْتَهُ منْ طينٍ ﴾ (١) . وقد اختلف العلماء في إبليس . هل كان من الملائكة أم لا ؟ على قولين : أحدهما : أنه كان من الملائكة قاله ابن عباس ، وابن مسعود ، وسعيد بن المسيب ، واختاره الشيخ موفق الدين ، والشيخ أبو الحسن الأشعري ، وأئمة المالكية ، وابن جرير الطبري . قال البغوي : هذا قول أكثر المفسرين لأنه سبحانه أمر الملائكة بالسجود لآدم .

قال تعالى : ﴿وإذْ قُلْنا للملائكَةِ اسْجُدوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إلاَّ إبْليس ﴾ (٢) . فلولا أنه من الملائكة لما توجه الأمر بالسجود ، ولو لم يتوجه إليه الأمر بالسجود لم يكن عاصياً ، ولما استحق اللعنة والخزي والنكال . والقول الثاني : أنه كان من الجن ، ولم يكن من الملائكة قاله ابن عباس في رواية ، والحسن ، وقتادة ، واختاره الزمخشري ، وأبو البقاء العكبري ، والكواشي في تفسيره لقوله تعالى : ﴿ إلاَّ إبليسَ كانَ مِنَ الجنِّ فَفَسَقَ عَنْ أمرِ ربِّهِ ﴾ (٣) . فهو أصل الجن ، كما أن

(١) سورة الأعراف ، الآية : ١٢ . وسورة ص ، الآية : ٧٦ .
(٢) سورة البقرة ، الآية : ٣٤ . وسورة الاسراء ، الآية : ٦١ .
(٣) سورة الكهف ، الآية : ٥٠ .

آدم أصل الإنس ، ولأنه خلق من نار والملائكة خلقوا من نور ، ولأن له ذرية ولا ذرية للملائكة .

قال في الكشاف : إنما تناوله الأمر وهو للملائكة خاصة لأن إبليس كان في صحبتهم ، وكان يعبد الله عبادتهم ، فلما أُمروا بالسجود لآدم والتواضع له كرامة له كان الجني الذي معهم أجدر بأن يتواضع .

وروى عكرمة عن ابن عباس قال : كان أبو الجن اسمه سوما ، فقال الله له : تمن ؟ فقال : أتمنى أن أرى فلا أرى ، وأن نغيب في الثرى، وأن يصير كهلنا شاباً ، فأعطي ذلك ، فإن الدهر يمر على إبليس فيهرمه، ثم يصبح وهو ابن ثلاثين سنة ، وقد قيل إن الجان مسخ الجن ، كما أن القردة والخنازير مسخ الانس ، وجاء ذلك عن ابن عباس بسند لا بأس به . والقول الأول هو الصحيح الذي عليه جمهور العلماء ، وصححه البغوي وأجابوا عن قوله تعالى : ﴿إلاَّ إبْليسَ كانَ منَ الجنِّ﴾[1] أي من الملائكة الذين هم خزنة الجنة . قال سعيد بن جبير : من الذين يعملون في الجنة ، وقال قوم : من الملائكة الذين كانوا يصوغون حلى أهل الجنة .

وروى الضحاك عن ابن عباس قال : كان إبليس من حي من أحياء الملائكة يقال لهم : الجن . خلقوا من نار السموم من بين الملائكة ، وخلقت الملائكة من نور غير هذا الحي ، وخلق الجن الذين ذكروا في القرآن من مارج من نار .

قال ابن القيم : الصواب التفصيل في هذه المسألة ، وأن القولين في الحقيقة قول واحد ، فإن إبليس كان مع الملائكة بصورته وليس منهم بمادته وأصله . كان أصله من نار ، وأصل الملائكة من نور . فالنافي كونه من الملائكة والمثبت لم يتواردا على محل واحد ، وكذلك قال شيخ الاسلام تقي الدين ابن تيمية في الفتاوى المصرية ، وقيل : إن فرقة من الملائكة خلقوا من النار سموا جناً لاستتارهم عن الأعين ، فإبليس كان

---

(١) سورة الكهف ، الآية : ٥٠ .

منهم ، والدليل على ذلك قوله تعالى : ﴿ وجَعَلُوا بيْنَه وبينَ الجِنّةِ نَسَباً ﴾ [1] . وهو قولهم الملائكة بنات الله ، ولما أخرجه الله من الملائكة جعل له ذرية . سئل الشعبي : هل لإبليس زوجة ؟ قال : فقلت إن ذلك عرس لم أشهده . قال : ثم قرأت هذه الآية ، فعلمت أنه لا يكون له ذرية إلا من زوجة ، فقلت : نعم . وقال قوم : ليس له ذرية ولا أولاد وذريته أعوانه من الشياطين .

وخرج البرقاني من حديث أبي عثمان ، عن سلمان الفارسي ، عن النبي ﷺ قال : « لا تكن أول من يدخل السوق وآخر من يخرج منها فيها باض الشيطان وفرّخ » . قال بعض الأئمة : إسناده صحيح ، وهذا يدل على أن له ذرية من صلبه . وقال ابن عباس رضي الله عنهما : كان إبليس من أشراف الملائكة ومن أكرمهم قبيلة وإن من الملائكة قبيلة يقال لهم الجن ، فكان منهم وكان له سلطان في السماء ، وكان له سلطان في الأرض ، وكان يوسوس ما بين السماء والأرض فعصى فمسخه الله شيطاناً رجيماً .

فصل

في شرور إبليس لعنه الله :

في قول الله سبحانه حكاية عن إبليس قال : ﴿ أنا خيرٌ منْه خلَقْتني منْ نارٍ وخلَقْتَه منْ طينٍ ﴾ [2] . تتضمن أمرين : أحدهما ، افتخاره بأصله على آدم عليه السلام ، والثاني : أنه أول من عارض أمر الله بعقله ، فعارض السمع بالعقل فعارض الشرع بالعقل ، فهو ميراث عن الشيخ أبي مرة فإن الله سبحانه لما أمره بالسجود لآدم عارض أمره بقياس عقلي مركب من مقدمتين : أنا خير منه وخير المخلوقين لا يسجد لمن هو دونه أنتج لا ينبغي أن يسجد له ، وهذا من الشكل الأول ، وقياس آخر

---

(١) سورة الصافات ، الآية : ١٥٨ .

(٢) سورة الأعراف ، الآية : ١٢ .

هكذا خلقتني من نار وخلقته من طين والمخلوق من النار خير من المخلوق من الطين ، وأنتج هذا أنا خير منه ، وفي بني آدم من صوب رأي إبليس وقياسه ، فكان على هذا المذهب بشار بن برد الأعمى وأنشد في قصيدته الرائية :

الأرضُ مُظلمةٌ سواد مُقتمةٌ والنارُ معبودةٌ مذْ كانتِ النّارِ
إبليسُ خيرُ منْ أبيكُم آدمُ فتَنبهُوا يا معشرَ الفُجارِ
إبليسُ منْ نار وآدمُ طينـــةٌ والأرضُ لا تَسْمو سموّ النّارِ

وكان بشار هذا يمدح الخليفة المهدي ، حتى وشى اليه الوزير أنه هجاه وقذفه ونسبه إلى شيء من الزندقة أنه يقول بتفضيل النار على التراب ، وعذر إبليس بترك السجود لآدم ، فأنشد : الأرض مظلمة ، فأمر المهدي بضربه ، فضرب حتى مات ، ويقال أنه غرق ، فإبليس لعنه الله بتلك النخوة والكبر ليرضى أن يصير قواداً لكل عاص كما قال :

عَجِبْتُ منْ إبليسَ في تمرُّده وقُبْحِ ما أظْهر من نخْوتـــهِ
تاهَ على آدمَ في سَجْـــــدةٍ وصارَ قَـــوّاداً لذريّتـــــهْ

ومن شره أيضاً : أنه لص سارق لأموال الناس ، فكل طعام أو شراب لم يذكر اسم الله عليه ، فله فيه حظ بالسرقة والخطف ، وكذلك يبيت في البيت إذا لم يذكر فيه اسم الله ، فيأكل طعام الانس بغير إذنهم ، ويبيت في بيوتهم بغير إذنهم ، ويدخل سارقاً ، ويخرج مغيراً ، ويدل على عوراتهم ، فيأمر العبد بالمعصية ، ثم يلقي في قلوب الناس يقظة ومناماً أنه فعل كذا وكذا ، ومن هذا يفعل العبد الذنب لا يطلع عليه أحد ، فيصبح والناس يتحدثون به وما ذاك إلا أن الشيطان زينه له وألقاه في قلبه ، ثم وسوس إلى الناس بما فعل ، فألقاه في الذنب ، ثم فضحه به ، فالرب يستره ، والشيطان يفضحه ، وقلّ من يتفطن لهذه الدقيقة ، وبشار بن برد الأعمى كان على مذهب الكاملية أتباع أبي كامل ، وهو الذي زعم أن الصحابة كفرت بأجمعها بتركها بيعة علي ، وكفّر عليّاً بتركه قتالهم ، وكان بشار يقول ذلك ، فجمع بين مقالتين خبيثتين

هذه وتصويبه لإبليس في تفضيله النار على الأرض ، وقد رد عليه صفوان الأنصاري في قصيدة له يقول فيها :

زعَمْتَ بأنَّ النارَ أكرمُ عُنصراً ... وفي الأرض تحيى بالحجارة والزند
ويخلقُ في أرجائها وأرومها ... أعاجيبُ لا تحصى بخط ولا عَقد
وفي تلك الأجبال خلْقٌ معظّمٌ ... زُبرجدٌ أملاك الورى ساعة الحشد
من الذهب الإبريز والفضة التي ... تروقُ وتضيء ذا القناعة والزهْد
وكلّ مُزمنٍ نحـــاس وآنك ... ومن زيبق حر ونوشادر سندي
وفيها ضروب القار والشبّ والمها ... وأصنافُ كبريتٍ مطاولة الرفد
وكل مواقيت الأنام وجلهـــا ... منَ الأرض والأحجار فاخرة المجد
وفيها مقامُ الركن والحل والصفا ... ومستلم الحجاج منْ جنّة الخلد
أتهجو أبا بكرٍ وتخلعُ بعدَه ... علياً وتعزو كل ذاك إلى بُرْد
كأنّك غضبانَ على الدّين كلّه ... وطالب زحل لا تبيتُ على حقْد
توائبُ أقماراً وأنتَ مشـــوّهٌ ... وأقربُ خلق الله من شُبهة القرد

ثم أن حماداً أخذ عجز هذا البيت ، فقال في بشار قصيدته الدالية التي يقول فيها : وما أقبح من قرد إذا عمي القرد :

والله ما الخنزيرُ في قُبْحه ... منْ ربعة ابن قيس أو خشْمه
بلْ وجهه أحسنُ منْ وجهه ... ونفسه أكرمُ منْ نفسه

فكل من كان على دين الكاملية فكفره كامل ، ومن صوب إبليس في استكباره فهو منه أكفر . كذا كان أحمد الغزالي أخو الشيخ أبي حامد الغزالي المشهور صاحب التصانيف ، كان أحمد المذكور يتعصب لإبليس ويعذره حتى قال يوماً : لم يدر ذلك المسكين أن أظافير القضاء إذا حلت أدمت ، وقسى القدر إذا رمت أصمت .

وكُنّا وليلى في صعودٍ منَ الهوى ... فلمّا توافيْنا ثبتتْ وذلّتِ

ذكر ذلك أبو الفرج ابن الجوزي في كتاب المنتظم في تاريخ الملوك والأمم ، وهذا القياس لإبليس باطل من وجوه :

أحدها : أنه قياس في مقابلة النص .

الثاني : قوله أنا خير منه كذب ومستند باطل ، فإنه لا يلزم من تفضيل مادة على مادة المخلوق منها على المخلوق من الأخرى ، فإن من كمال قدرة الله سبحانه أن يخلق من المادة المفضولة ما هو أفضل من المخلوق من غيرها ، ومحمد وإبراهيم وموسى عليهم السلام أفضل من الملائكة ، ومذهب أهل السنة أن صالح البشر أفضل من الملائكة ، وإن كانت مادتهم نوراً ومادة البشر تراباً ، والتفضيل ليس بالمواد والأصول ، ولهذا كان العبيد والموالي الذين آمنوا بالله ورسوله أفضل عند الله ممن ليس مثلهم من قريش وبني هاشم ، وهذه المعارضة الإبليسية صارت ميراثاً في أتباعه في التقديم بالأصول والأنساب على الايمان والتقوى كما قال بعضهم :

لَعَمْرُكَ ما الإنْسانُ إلاَّ بدينــه ... فلا تترك التّقْوى اتّكالا على الحسب
فَقَدْ رفع الإسلام سلمانَ فارسٍ ... وقد وضع الشّرك الشّريف أبا لهب

الثالث : ظنه أن النار خير من التراب باطل ، ومستنده ما فيها من الضياء والخفة ، وما في التراب من الثقل والظلمة ونسي الشيخ النجس ما في النار من الخفة والطيش وطلب العلو والافساد بطبع ، حتى أن شواظاً منها لو وقع في مدينة أفسدها ، والتراب خير من النار وأفضل من وجوه: **أحدها** : أن طبعه السكون والرزانة ، **وثانيها** : أنه مادة الحيوان والنبات والأقوات والنار بخلافه ، **وثالثها** : أنه لا يمكن أن يعيش بدونه وبدون ما خلق منه ، ويمكنه أن يعيش برهة من الدهر بلا نار . **ورابعها** : أن الأرض تؤدي اليك ببركتها أضعاف ما تودعها من الحب والنوى وتغذيه لك ، والنار تفسده . **وخامسها** : أن الأرض مهبط الوحي ومسكن الرسل والأولياء وكفاتهم أحياء وأمواتاً ، والنار مسكن أعداء الله . **وسادسها** : أن في الأرض بيته محبط الأوزار وتكفير السيئات وجالباً لهم مطالع معاشهم ومعادهم ، **وسابعها** : أن النار طبعها العلو والفساد ، والله لا يحب المستكبرين ولا المفسدين ، والأرض طبعها الخشوع والاخبات ، ومعلم الخير من المادة الأرضية ، ومعلم الشر من المادة النارية ، **وثامنها** :

أن النار لا تقوم بنفسها بل لا بد لها من محل تقوم به لا تستغني عنه ، فهي محتاجة إلى المادة الترابية في قوامها وتأثيرها ، والأرض قائمة بنفسها . **وتاسعها** : أن التراب يفسد صورة النار يبطلها ويقهرها ، وأن علت عليه . **وعاشرها** : أن الرحمة تنزل على الأرض فتقبلها وتحيى بها وتخرج زينتها وأقواتها تشكر ربها ، وتنزل على النار فتأباها وتطفئها ، فبينها وبين النار معاداة ، وبين الرحمة والأرض مؤاخاة . **وحادي عشرها** : أن النار تطفىء بالتكبير ، فتضمحل عند ذكر الرب ، ولهذا يهرب المخلوق منها عند الأذان ، حتى لا يسمعه ، والأرض تبتهج بذلك وتشهد به لصاحبها يوم القيامة . وقد جاء أن الأرض تفتخر بمن يذكر الله عليها . **وثاني عشرها** : يكفي من فضل المخلوق من الأرض على المخلوق من النار . أن الله سبحانه خلقه بيده ونفخ فيه من روحه وأسجد له ملائكته وعلمه أسماء كل شيء ، فهل حصل للمخلوق من النار واحدة من هذه ، فقد أطلعت على بحث شيخ القوم ورئيسهم ، فما الظن بمعارضته التلامذة ، واعلم أن كل شبهة عارضوا بها الوحي المنزل ، فعند أئمة السنة ما يبطلها من وجوه كثيرة ، كما فعل الإمام أحمد في الرد على الجهمية ، وعثمان بن سعيد الدارمي وعبد العزيز المكي وهلم جرا من عالم بعد عالم . والحق والباطل فرسا رهان إلى يوم القيامة ، وقد جرى على الإمام أحمد من تلامذة هذا الشيخ أبي مرة وأتباعه من الجاهلين والمعاندين والمعطلين ما جرى على من قام مقامه على ممر السنين ، وكذلك على الشيخ تقي الدين ابن تيمية قدس الله روحه ونور ضريحه .

مَضُوا ومَضى ثمّ التقوا عند ربهم ... فأخرهم للحكم يوم التّحاكمِ

ابن رشيق القيرواني :

سألتُ الأرض لِمَ جُعلتِ مصلّى ... ولِمَ كانت لنا طُهْراً وطيبا

فقالتْ غير ناطقةٍ لأنّي ... حويت لكلِّ إنسانٍ حبيبا

الفصل الحادي و العشرون :

في تحزين الشيطان لابن آدم في المنام برؤيا سيئة وأن من رأى النبي ﷺ في المنام فقد رآه حقاً فإن الشيطان لا يتمثل به

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ قال : « إذا رأى أحدكم رُؤيا يحبُّها فإنها من الله تعالى ، فلْيحمَد الله عليها وليحدِّث وفي رواية : فلا يحدث بها إلا لمن يحب ، وإذا رأى غير ذلك مما يكره ، فإنما هي منَ الشّيطان فليستعذ بالله من شرِّها ولا يذكرها لأحد فإنها لا تضرّه » . رواه البخاري .

وعن أبي قتادة رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ : « الرؤيا الصالحة من الله تعالى ، والحلم من الشيطان فمَنْ رأى شيئاً يكرهه فليتفل عن شماله ثلاثاً وليتعوذ منَ الشّيطان فإنها لا تضره » متفق عليه .

وعن جابر رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال : « إذا رأى أحدكم الرؤيا يكرهها فليبصق عن يساره ثلاثاً وليستعذ بالله من الشيطان ثلاثاً وليتحول عن جنبه الذي كان عليه » . رواه مسلم .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ : « إذا رأى أحدكم رؤيا يكرهها فليتفل ثلاث مرات ثم ليقل اللهم إني أعوذ بك من عمل الشيطان وسيئات الأحلام فإنها لا تكون شيئاً » . قال الطبري في حديث : إذا رأى ما يكره يتعوذ من الشيطان ، ومن شر الشيطان ، وليتفل عن شماله ثلاث مرات وجه أنفث عن الشمال ثلاثاً إخساء الشيطان. كما يتفل على الشيء القذر يراه أو يذكره ، ولا أقذر من الشيطان ، فأمر عليه السلام بالتفل عند ذكره ، وأما خصوصية الشمال دون اليمين فلعل طريق الشيطان إلى ابن آدم لدعائه ما يكره من قبلها .

قال الحكيم الترمذي : لأن التفلة واصلة إلى وجه الشيطان فتصير قروحاً ، وكذلك رمي الجمار إنما يرمى رأس الشيطان ومطلعه حيث طلع لآدم ، ثم للخليل عليهما السلام ، فبقيت سنّة ، لأن تلك الطلعة كائنة منه لكل مسلم حاج ، فإذا رمى الحاج شدخ رأسه حتى يجثي ، وإنما أمر بسبع حصيات لأنه أطلع رأسه من سبع أرضين ونفسه موثقة في سجين ، وذلك سجنه تحت الأرض السابعة ، فكل حصاة يحشى في الأرض حتى يبلغ حشاته بالحصاة السابعة الأرض السابعة السفلى إلى مستقره ، فكذلك التفلة مع تعوذك بالله يرد ما جاء به من الوسوسة ، كالنار إلى وجهه ، فيحترق ويصير قروحاً .

وعن الربيع بن خشيم أنه قص عليه رؤيا منكرة وذلك أنه أتاه آت فقال : إني رأيت في المنام كأن قائلا يقول أخبر الربيع أنه من أهل النار ، فتفل عن يساره ثلاثاً وقال أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، فرأى ذلك الرجل في الليلة الثانية كأن رجلا جاء بكلب ، فأقامه بين يديه ، وفي عنقه حبل ، وفي جبهته قروح ، فقال هذا ذلك الشيطان الذي أراك في منامك رؤيا الربيع ، وهذه القروح تلك التفلات الثلاث التي كانت منه كان عبد الله بن مسعود يجلس الربيع بن خشيم إلى جنبه ويقول : مرحباً أبا يزيد لو رآك رسول الله ﷺ لأحبك ، وما رأيتك إلا ذكرت المخبتين .

وقال الشيخ عبد القادر الكيلاني في فتوح الغيب : رأيت إبليس اللعين في النوم ، وأنا في جمع كثير ، فهممت بقتله ، فقال لي اللعين لعنه الله : لِمَ تقتلني وما ذنبي ؟ إن جرى القلم بالشر ، فلا أقدر أغيره إلى الخير ، وإن جرى القلم بالخير فلا أقدر أغيره إلى الشر ، فأي شيء بيدي ، وكانت صورته صورة الخناتي ، لين الكلام ، مسنون الوجه ، فيه طاقات شعر في ذقنه ، حقير الصورة ، ذميم الخلقة ، ثم تبسم في وجهي تبسم خجل وجل .

وحدثني عمر الوراق المقرىء صاحبي قال : رأيت إبليس في النوم وأنا أقرأ القرآن ، وهو أسود ، فقال لي : أنت من أهل النار قرأت

أو لم تقرأ ، فقال لي بعض المعبرين يريد تحزين ويصده ، وقال لي إنه رآه مرة أخرى وإنه قال له : تظن أن ما قاله هذا الرجل حق ؟ قال فرفعت صوتي وقلت كل ما قاله رسول الله ﷺ حق ثلاث مرات .

قلت : وقد رأيته في المنام ، وأنا أكتب في هذا الكتاب ، رأيته على باب جامع دمشق تحت الساعات وهو قاعد وحوله حلقة مزدحمة ، فلما جئت تقربت إليه ، فرفع رأسه وقال لي : ما الذي جاء بك إلينا ؟ فقلت له : جئت لأنكر عليك أو نحو ذلك ، فطأطأ رأسه ووضعه في حجره وخنس ، ويغلب على ظني أنه لابس زي الفرنج ، وقد جاء أنه يغتم بنوم المؤمن ، وهذا أحسن ، فإذا تحصن منه بالذكر عند النوم عجز عن وسوسته ، وعن تحزينه في نومه ، فيغيظه منامه لأنه إذا استيقظ ربما يتمكن منه بخلاف حالة النوم .

فصل

في رؤيا النبي ﷺ في المنام :

وقد خص النبي ﷺ بأن الشيطان لا يتنبه به . عن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ : « مَنْ رآني في المنام فقد رآني حقاً فإنّ الشيطانَ لا يتمثل بي » . متفقاً عليه .

وعن جابر رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ : « من رآني في المنام فقد رآني فإنه لا ينبغي للشيطان أن يتشبه بي » . وفي رواية : أن يتمثل في صورتي . رواه مسلم .

وقال الإمام أحمد : حدثنا يحيى بن زكريا ، عن أبيه ، عن أبي إسحاق ، عن أبي الأحوص ، عن عبد الله بن مسعود ، عن النبي ﷺ : « من رآني في المنام فإنا الذي رآني ، فإن الشيطان لا يتمثل بي » .فأما ما جاء من حديث عمران بن حصين قال قال رسول الله ﷺ : « من رآني في المنام فقد رآني فإن الشيطان لا يتمثل بي ومن رأى أبا بكر

الصديق في المنام ، فقد رآه فإن الشيطان لا يتمثل به » . فإنه من رواية أحمد بن الحسن بن أبان المصري ، وهو غير ثقة .

وقال الطبراني : حدثنا إسحاق بن إبراهيم ابن العربي الغزي بمدينة غزة ، حدثنا محمد بن أبي السري العسقلاني ، حدثنا عبد الرزاق ، عن معمر ، عن زيد بن أسلم ، عن عطاء بن يسار ، عن أبي سعيد الخدري مرفوعاً : « من رآني في منامه فقد رآني فإن الشيطان لا يتمثل بي ولا بالكعبة » . تفرد به ابن أبي السري ، وههنا فوائد :

منها : قال الأستاذ أبو إسحاق : رؤيا المنام إدراك بأجزاء لم تحلها آفة النوم . قال رأى الرائي أنه بالمشرق وهو بالمغرب أو نحوه ، فهي أمثلة جعلها الله عز وجل دليلا على تلك المعاني كما جعلت تلك الحروف والأصوات والرقوم والكتابة ليلا على المعاني .

قال علي رضي الله عنه : الأرواح يعرج بها في منامها ، فما رأت وهي في السماء هو الحق ، فإذا ردت إلى أجسادها تلقتها الشياطين في الهواء وكذبتها ، فما رأت من ذلك فهو الباطل ، فإذا رأى النبي ﷺ فهي أمثلة تضرب له بقدر حاله ، فإن كان موحداً رآه حسناً ، أو ملحداً رآه قبيحاً .

قال صاحب المقاييس ، قال بعض الأمراء : رأيت البارحة النبي ﷺ في المنام أشد ما يكون من السواد ، فقلت له : ظلمت الخلق وغيرت الدين . قال النبي ﷺ : « الظلم ظلمات يوم القيامة والتغير فيك لا فيه ». وعنده كاتبه وصهره وولده ، فأما الكاتب ، فمات وأما الآخران ، فتنصرا ، وأما هو جعل يعتذر .

ومنها : ما تقدم أن المدرك إنما هو المثل وبه يخرج الجواب عن كون النبي ﷺ يرى في الزمان الواحد في المكانين ، فإن المرئي في المكانين مثلان ، وأما المشكل أن يكون الواحد في مكانين في زمان واحد ، وأجابت الصوفية بأنه عليه السلام كالشمس يرى في أماكن كثيرة عدة ، وهي واحدة ، وهو جواب ضعيف ، وإنما الجواب أن المرئي مثله ﷺ ،

وكذلك كل مرئي من بحر أو جبل أو آدمي إنما يرى مثاله لا هو وبه يظهر معنى قوله ﷺ : « من رآني في المنام فقد رآني حقاً فإن الشيطان لا يتمثل بي » . والتقدير : من رأى مثالي فقد رأى مثالي حقاً ، فإن الشيطان لا يتمثل بمثالي ، وأن الخبر إنما شهد لعصمة المثال عن الشيطان .

نص الكرماني في كتابه تأويل الرؤيا أن الرسل والكتب المنزلة والملائكة والسحب ، كذلك معصومة عن تمثيل الشيطان بمثلها ، وما عدا ذلك من المثل يمكن أن يكون حقاً ، ويمكن أن يكون من الشيطان ، وأنه تمثل بذلك المثال .

وقال الغزالي : الموجود خمس مرات . ذاتي كالسماء والأرض ، وحسي كدارة النار ومن نقطة متحركة ، وخيالي كتصور الفرس بعد غيبتها ، وعقلي كالقدرة ، فإنها يد عقلية ، وشهي ، فرؤية النبي ﷺ في المنام من الموجود الحسي وهو ما يتمثل من القوة الباصرة من العين مما لا وجود له خارج العين ، كما يرى النبي ﷺ في المنام ، فلا تكون رؤيته بمعنى انتقال شخصه من روضة المدينة إلى موضع النائم ، بل هو على سبيل وجود صورته في حسن النائم فقط .

ومنها : قال أهل العلم : إنما تصح رؤية النبي ﷺ لأحد رجلين : أحدهما صحابي رآه يعلم صفته ، فإنه إذا رآه في المنام جزم بأنه رأى مثله المعصوم من الشيطان ، وثانيهما : رجل تكرر عليه سماع صفاته المنقولة في الكتب حتى انطبعت في نفسه صفاته ﷺ ، وأما غير هذين فلا يحصل الجزم ، بل يجوز أن يكون من تخييل الشيطان ولا يفيده قول المرئي أنا رسول الله ولا قول من يحضر هذا رسول الله ، لأن الشيطان يكذب لنفسه ويكذب لغيره ، فلا يحصل الجزم .

فإن قيل بشكل هذا بما قاله أهل التغيير أن الرأي يراه شاباً وشيخاً وعلى أنواع شتى من المثل التي ليست مثاله ﷺ .

قلنا : هذه صفات الرائين وأحوالهم تظهر فيه عليه السلام ، وهو كالمرآة لهم .

ومنها : لو رآه ﷺ ، فقال : إن امرأتك طالق ثلاثاً وهو يجزم بأنه لم يطلقها هل تحرم عليه ، لأن رسول الله ﷺ لا يقول إلا حقاً . تردد فيه المتأخرون من الفقهاء ، والصواب عدم التحريم ، لأن أخباره في اليقظة في شريعته المعظمة أنها مباحة راجحة على خبر النوم ، لتطرق الاحتمال للرائي بالغلط في ضبط المثال ، والغالب على الرائي عدم الضبط ، ولذلك لم يرتب العلماء على المنامات شيئاً من الأحكام ، وقد نقل القاضي عياض الإجماع عليه فيما لو رأى النبي ﷺ ، فقال له غداً من رمضان فصم ، وعن أبي إسحاق الأسفرايني أنه حكى وجهين : في أنه لو رأى النبي ﷺ فأمره بأمر هل يجب امتثاله إذا استيقظ على وجهين . وقال الحياطي في فتاويه لو رآه إنسان فسأله عن حكم فأفتاه بما يخالف مذهبه وليس مخالفاً لنص ولا إجماع فقال : فيه وجهان . وقال شيخ الإسلام تقي الدين بن تيمية : الإسرائيليات والمنامات لا يجوز أن يثبت بها حكم شرعي لا استحباب ولا غيره ، ولكن يجوز ذكره في الترغيب والترهيب فيما لو علم حسنه أو قبحه بأدلة الشرع ، فإنه ينفع ولا يضر ، واعتقاد موجبه قدر ثواب وعقاب يتوقف على الدليل الشرعي .

ومنها ما جاء عن عمر بن حمزة بن عبدالله بن عمر عن عمه عن سالم عن أبيه ، أن عمر رضي الله عنه قال : رأيت النبي ﷺ في النوم ، فأعرض عني فقلت : مالي ؟ فقال : إنك تُقبِّل وأنت صائم . قال القاضي أبو يعلى : الظاهر من حال عمر أن القبلة تحرك شهوته ، وقال أبو محمد بن خرم عن عمر بن خرم ليس بشيء ، والشريعة لا تؤخذ بالمنامات والنبي ﷺ أفتى عمر رضي الله عنه بالإباحة في اليقظة .

ومنها قال عبد الله بن أحمد في المسند : حدثنا عثمان بن شيبة ، حدثنا يونس عن أبي اليغفور العبدي ، عن أبيه ، عن مسلم بن سعيد مولى عثمان بن عفان : أنه أعتق عشرين مملوكاً ، ودعا بسراويل ، فشدها عليه لم يلبسها في جاهلية ولا إسلام ، وقال : إني رأيت النبي ﷺ البارحة

في المنام ، ورأيت أبا بكر وعمر وقالوا : اصبر فإنك تفطر عندنا القابلة، ثم دعا بمصحف فنشره بين يديه .

ومنها قال صهيب : رأيت النبي ﷺ في النوم فقلت يارسول الله اختلف علينا في التشهد ، فقال : « عليك بتشهد عبد الله بن مسعود » رواه الترمذي وغيره ، وذكره غير واحد من المرجحات لتشهد ابن مسعود على غيره من التشهدات .

ومنها قال القاضي أبو الطيب الطبري : رأيت النبي ﷺ في المنام فقال لي يا فقيه .

ومنها قال سعيد بن أبي عروبة ، عن عمر بن عبد العزيز : رأيت النبي ﷺ ، وأبا بكر وعمر جالسان عنده ، فسلمت وجلست ، فبينما أنا جالس إذ أتي بعلي بن أبي طالب ومعاوية ، فدخلا بيتاً وأجيف عليهما الباب ، وأنظر فما كان بأسرع من أن خرج علي رضي الله عنه ، وهو يقول : قُضِيَ لي ورب الكعبة ، وما كان بأسرع من أن خرج معاوية في أثره وهو يقول غُفِرَ لي ورب الكعبة !وقد جاء منام عمر ابن عبد العزيز على وجوه متعددة مشهورة .

ومنها منام أبي الفضل بن ناصر الحافظ شيخ الجوزي رأى النبي ﷺ وقال له : عليك بمذهب الشيخ أبي منصور الخياط ترجع بسبب ذلك إلى مذهب أهل السنة ، وهو منام مشهور طويل ، وقد ذكره الشيخ موفق الدين في كتاب التوابين .

ومنها ، قال لي الشيخ شرف الدين ابن قاضي الجبل رأيت النبي ﷺ بظاهر مدينته ، فقلت له : يارسول الله ! أنت قلت أن الله حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء ؟ قال : نعم أنا قلته ، وقال لي أنه يعرف شيئاً إذا قرأه الإنسان عند منامه رأى النبي ﷺ ، ولم يقله لنا بخل بذلك وفاته أجر عظيم ، وقد جاء مصلاة لرؤية النبي ﷺ في المنام ، فعن ابن عباس يرفعه : « ما من مؤمن يصلي ليلة الجمعة ركعتين يقرأ في كل ركعة الفاتحة مرة ، وخمساً وعشرين مرة قل هو الله أحد ، ثم يسلم ثم

يقول ألف مرة اللهم صل على محمد النبي الأمي ، فإنه يراني ليلته في المنام ، وإلا فلا تتم له الجمعة القابلة حتى يراني في المنام ، ومن رآني غفر الله له الذنوب » . وهذا الحديث وضع على يعلى بن عبيد ، عن الأعمش ، عن أبي صالح ، عن ابن عباس ، وقد اتهم به محمد بن محمد بن الأشعث على أن اسناده ظلمات ، والمتن أشد ظلمة . وقد ذكر في كتاب الفردوس : واغتر جماعة ممن يميل إلى التصوف ولا أصل له .

وقيل : من قرأ سورة الكوثر ألف مرة وصلى على النبي ﷺ ألف مرة رآه في المنام .

وعن الزهري : من اغتسل ليلة الجمعة وصلى ركعتين ويقرأ فيهما قل هو الله أحد ألف مرة رأى النبي ﷺ في المنام .

قال عامر بن سعيد البجلي : لما قتل الحسين رأيت النبي ﷺ في المنام فقال : إن رأيت البراء بن عازب فاقرئه مني السلام ، وأخبره أن قتلة الحسين في النار ، وإن كان الله أن يسخب أهل الأرض منهم بعذاب أليم . قال، فأخبرت البراء ، فقال : صدق رسول الله ﷺ .

قال رسول الله ﷺ : « من رآني في المنام ، فقد رآني فإن الشيطان لا يتصور بي » . رواه الحافظ الضياء في المختارة ، قال الحسن البصري رأيت النبي ﷺ في منامي ، فقال لي : « من استوى يوماه فهو مغبون ومن كان يومه شراً من أمسه فهو ملعون » ، عن أبي عياش الزرقي رضي الله عنه قال رسول الله ﷺ : « منْ قال إذا أصبح لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير كان له عدل رقبة من ولد إسماعيل ، وكتبت له عشر حسنات ، وحط عنه عشر سيئات ، ورفع له عشر درجات ، وكان في حرز من الشيطان حتى يمسي ، وأن قالها إذا أمسى كان له مثل ذلك حتى يصبح ، فرأى رجل النبي ﷺ فقال يارسول الله ! إن أبا عياش يحدث عنك بكذا وكذا ، فقال : « صدق أبو عياش » . رواه أبو داود وغيره من أهل السنن .

ومنها ؛ عن خزيمة بن ثابت أنه رأى في منامه أنه يقبّل النبي ﷺ ، فأخبره بذلك ، فناوله النبي ﷺ فقبل جبهته . رواه الإمام أحمد في المسند . وفي رواية له أنه رأى في المنام أنه يسجد على جبهة النبي ﷺ ، فأتى خزيمة النبي ﷺ ، فحدثه فاضطجع رسول الله ﷺ ، ثم قال له صدق رؤياك فسجد على جبهته ﷺ .

ومنها ؛ قال عبد الرحمن بن أبي حاتم : بلغني أن بشر بن الحرث الحافي قال : رأيت النبي ﷺ في المنام فقال لي : يابشر ! تدري لِمَ رفعك الله على أقرانك ؟ قلت : لا يارسول الله ! قال : باتباعك لسنتي ، وخدمتك للصالحين ، ونصيحتك لأخوانك ، ومحبتك لأصحابي وأهل بيتي هو الذي بلغك منازل الأبرار .

ومنها ؛ قال الربيع ، قال لي الشافعي : خذ كتابي وامض به إلى أحمد بن حنبل وأتني بالجواب . قال الربيع : فدخلت بغداد ، فلقيت أحمد بن حنبل صلاة الصبح ، فصليت معه الفجر ، فلما انتقل من المحراب سلمت اليه الكتاب وقلت : هذا كتاب أخيك الشافعي من مصر ، فقال أحمد : نظرت فيه قلت لا ، فكسر الخاتم وقرأ الكتاب فتغرغرت عيناه بالدموع ، فقلت له : إيش فيه يا أبا عبد الله ! فقال يذكر أنه رأى النبي ﷺ في المنام ، فقال له : أكتب إلى أبي عبد الله أحمد بن حنبل ، وقرأ عليه مني السلام وقل له : أنك ستمتحن وتدعى إن خلق القرآن ، فلا تجبهم يرفع الله لك علماً إلى يوم القيامة ، فقلت : البشارة ، فخلع قميصه الذي يلي جلده ، فدفعه إليّ ، فأخذته وخرجت إلى مصر ، وأخذت جواب الكتاب وسلمته إلى الشافعي ، فقال لي : ياربيع ! أي شيء دفع اليك ؟ فقلت القميص الذي يلي جلده ، فقال لي الشافعي ليس نفجعك فيه ، ولكن بله وادفع الينا الماء حتى نشركك فيه .

ومنها ؛ قال الإمام أحمد في المسند : حدثنا عبد الرحمن وعفان قالا ، حدثنا حماد بن سلمة ، عن عمار بن ياسر قال : رأيت النبي ﷺ في المنام نصف النهار أشعث أغبر معه قارورة فيها دم يلتقطه ، فقلت

يارسول الله ! ما هذا ؟ قال : دم الحسين وأصحابه لم أزل ألتقطه منذ اليوم . قال عمار : فحفظنا ذلك ، فوجدنا قتل ذلك اليوم .

ومنها ؛ رأى بعضهم النبي ﷺ في المنام ، فذكر له كتاب قوت القلوب لأبي طالب ، فقال : لا تقل قوت القلوب ، فإن قوت القلوب هو القرآن ، وقد أنكر طائفة تسمية أبي طالب هذا الاسم .

ومنها ؛ قال الحسن بن علي رضي الله عنه : لا أقاتل بعد رؤيا رأيتها النبي ﷺ واضعاً يده على رأسه ، ورأيت أبا بكر واضعاً يده على النبي ﷺ ورأيت عمر واضعاً يده على أبي بكر ، ورأيت عثمان واضعاً يده على عمر ، ورأيت دماً دونهم ، فقيل ذا دم عثمان يطلب الله به .

ومنها ؛ قال أبو زيد المروزي الفقيه الزاهد : كنت نائماً بين الركن والمقام ، فرأيت النبي ﷺ ، فقال لي : يا أبا زيد ! إلى متى تدرس كتاب الشافعي ولا تدرس كتابي ؟ فقلت : وما كتابك ؟ قال : جامع محمد بن اسماعيل البخاري ، وكان أبو زيد يرويه عن الفريدي وهو أجل من رواه عنه .

الفصل الثاني والعشرون :

في اجتهاد الشيطان على المؤمن عند الموت

روى أبو داود في سننه أن إبليس يقول لأعوانه عند الموت : عليكم به ، فإن فاتكم الآن لم تقدروا عليه .

وعن واثلة بن الأسقع قال قال رسول الله : « لقّنوا موتاكم لا إله إلا الله وبشّروهم بالجنة فإنّ الحليمَ منَ الرجال والنساء يتحيّر عند ذلك المصرع ويمتحنون وأنّ الشيطانَ أقربُ ما يكون من ابن آدم عند ذلك المصرع ولمعاينة ملك الموت أشدُّ من ألف ضربة بالسيف » . رواه أبو نعيم ، وقال عبد الله بن الإمام أحمد : حضرت وفاة أبي بيدي خرقة لأشد لحييه ، فكان يغرق ثم يفيق ، ويقول : لا . بعد . لا بعد . فعل هذا مراراً ، فقلت له : ياأبت ! أي شيء يبدو منك ؟ قال ، فقال : الشيطان قائم بحذائي عاض على أنامله يقول : فتني يا أحمد ، وأنا أقول لا بعد حتى أموت .

وقال ابن أبي الدنيا في مكايد الشيطان : حدثنا أبو جعفر الكندي ، حدثنا إبراهيم بن صيعة الأنصاري عن يحيى بن سعيد قال : لما حضرت عمرة ابنة عبد الرحمن الوفاة اجتمع عندها ناس من التابعين منهم : عروة بن الزبير ، والقاسم بن محمد ، وأبو سلمة ، فبينما هم عندها ، وقد أغمي عليها إذ سمعوا نقيضاً من السقف ، فإذا ثعبان أسود قد سقط ، كأنه جذع عظيم ، فأقبل يهوي نحوها إذ سقط رق أبيض فيه مكتوب (بسم الله الرحمن الرحيم) من رب عكب إلى عكب ليس لك على بنات الصالحين سبيل ، فلما نظر إلى الكتاب سما حتى خرج من حيث نزل .

وقال ابن أبي الدنيا : حدثني أبي ، حدثنا أبو خالد القرشي ، عن سفيان الثوري ، عن رجل ، عن عطاء بن يسار قال : تبدى إبليس لرجل عند الموت ، فقال : ما نجوت منك بعد .

وحكى القرطبي في التذكرة عن شيخ شيخه أحمد بن محمد القرطبي أنه احتضر ، فقيل له : قل لا إله إلا الله ، فكان يقول لا ، فلما أفاق ذكرنا له ذلك ، فقال : أتاني شيطان عن يميني وعن يساري يقول أحدهما : مت يهودياً ، فإنه خير الأديان ، والآخر يقول : مت نصرانياً فإنه خير الأديان ، فكنت أقول لهم لا لا . أنّى تقولان هذا ، وقد كتبت بيدي في كتاب الترمذي والنسائي عن النبي ﷺ : « أنّ الشيطانَ يأتي أحدَكم عندَ موته فيقولُ مُتْ يهودياً مُتْ نَصْرانياً » ، فكان الجواب لهما لا لكم . قال القرطبي لم أجد هذا الحديث في كتاب الترمذي ، وأما النسائي ، فهو نسخ ، فيحتمل أن يكون في بعضها .

وقال أبو الحسن القابسي في شرح رسالة ابن أبي زيد : روي أن العبد إذا كان عند الموت قعد عند رأسه شيطانان . واحد عن يمينه والآخر عن شماله ، فالذي عن يمينه على صفة أبيه ، فيقول له : يا بني ! أني كنت عليك شفيقاً ولك محباً ، ولكن مت على دين النصرانية ، فهو خير الأديان ، والذي على شماله على صفة أمه تقول : يابني ! أنه كان بطني لك وعاء وثديي لك سقاء وفخذي لك وطاء ، ولكن مت على دين اليهودية وهو خير الأديان انتهى .

وقال الغزالي عند ذلك فعند هذا يزيغ الله من يريد زيغه وهو قوله : ﴿ ربّنا لا تُزِغْ قُلُوبَنَا بعْدَ إذْ هَدَيْتنا ﴾ [1] . أي لا تزغ قلوبنا عند الموت وقد هديتنا من قبل أزماناً ، فإذا أراد الله بعبده هداية وتثبيتاً جاءته الرحمة أو جبريل عليه السلام ، فيطرد عنه الشياطين ، ويقول للمؤمن هؤلاء أعداؤك من الشياطين مت على الحنيفية والشريعة المحمدية ، فما شيء أحب إلى الانسان من ذلك الملك وهو قوله تعالى : ﴿ وهَبْ لَنَا منْ لَدُنْك رحْمةً إنّك أنْتَ الوهّاب ﴾ [1] .

---

(١) سورة آل عمران ، الآية : ٨ .

وقال بعض العلماء في قوله تعالى : ﴿ وجاءتْ سَكْرةُ الموْت بالحقّ ﴾ [1] . قال بالسابقة . وقال بعض السلف : إنما يوزن من الأعمال خواتيمها ، وكان أبو الدرداء يحلف بالله عز وجل ما أحد أمن أن يسلب إيمانه إلا سلبه .

قال منصور بن عمار : إذا مات الإنسان إقتسمه خمسة أشياء : المال للوارث ، واللحم للديدان ، والعظم للتراب ، والروح لملك الموت ، والإيمان بالله إن كان سعيداً ، أو يخاف على أن يكون إيمانه للشيطان . وحدثني بعض أصحابي لما مرض جاءه الشيطان في زي يهودي ، فعرفه فعرض عليه دين اليهودية قال : فتعوذت بالله أو كما قال أبو الفرج ابن الجوزي في صيد الخاطر : أوصي نفسي ومن يبلغه كلامي بالثبات عند الموت ولا حول ولا قوة إلا بالله ، فما يلقى المؤمن شدة تشبهها ، وأجود للمريض أن يغوص في سكرات الموت ، فلا يعقل ونعوذ بالله من الافاقة مع عدم الثبات .

وكان سفيان الثوري يقول : أخاف أن أفتتن عند الموت ، يشتد الأمر عليّ فأسأل الرفق فلا أعطى فأفتتن . ونِعْم ما قال ، فإن عوارض الفتن هناك كثيرة لا تحصى ، فربما وجد تشوقاً إلى الدنيا وانزعج لفراق محبوب ، أو ضعف عن حمل البلاء ، أو عرض الفتن ، فمال الإنسان عن التوحيد أو أعرض عن المالك ، فالله الله إذا نزل بك الموت فلا يكون لك هم إلا في تهذيب الاعتقاد ، والاستغفار من الذنوب ، والتوبة من الخطايا لعلك تلقاه نظيفاً .

وقد كان الجنيد يقرأ إلى أن مات ، فقيل له : ارفق بنفسك ، فقال : الآن تطوى صحيفتي .

وتوفي شيخ الإسلام ابن تيمية ، وهو يقرأ عند الموت : ﴿ إنّ المُتّقينَ في جنّاتٍ ونهَرَ * في مَقْعد صِدْقٍ عِنْدَ مَليكٍ مُقْتَدر ﴾ [2] .

---

(١) سورة ق ، الآية : ١٩ .

(٢) سورة القمر ، الآية : ٥٤ ، ٥٥ .

قال ، وحكي عن بعض المشايخ أنه احتضر وهو يقرأ في قوله تعالى في سورة يس : ﴿ أأتخذُ من دُونه آلهةً إنْ يُردني الرّحْمن بضُر لا تُغْنِ عنّي شفَاعَتُهُم شيْئاً ولا يُنْقِذُون * إنّي إذاً لفي ضَلال مُبين ﴾ (١) . ثم توفي فخاف عليه تلامذته ، ثم دفنوه ، فخاف عليه بعض تلامذته ، فنام عند قبره ، فسمع كلام منكر ونكير وهما يقولان له : من ربك ؟ فقال تمام الآية : ﴿ إنّي آمنْتُ بربّكُم فاسْمعون ﴾(٢) . فقال الملكان : ﴿ قيل ادخل الجنة قال ياليت قومي يعلمون بما غفر لي ربي وجعلني من المكرمين ﴾ .

قال محمد بن ثابت البناني : ذهبت ألقن أبي وهو في الموت ، فقلت ياأبت ! قل لا إله إلا الله ، فقال يابني ! خذ عني فإني في وردي السادس أو السابع .

ووجدت حاشية بخط الوالد أبي المصنف . قال سبط ابن الجوزي : كان آخر ما تكلم به الشيخ أبو عمرو رضي الله عنه : ﴿ إنّ الله اصْطفى لكُمُ الدّينَ فلا تمُوتُنّ إلاّ وأنْتُم مُسْلِمُون ﴾ (٣) .

قلت : وكذا كان والدي رحمه الله وأنا جالس عنده فقرأ عنده سورة يس فكان يقرأ معنا همهمة تفهم منه بعض الآيات إلى أن فاضت نفسه.

وقد ذكر النسائي وغيره في دعاء النبي ﷺ : « اللهم إني أعوذ بك من الغرق والحرق وأعوذ بك من أن يتخبطني الشيطان عند الموت » .

وفي سنن أبي داود : كان النبي ﷺ يقول : « اللهم إني أعوذ بك من الهرم ، وأعوذ بك من الهدم ، وأعوذ بك من أن يتخبطني الشيطان عند الموت » .

مرض أبو قلابة بالشام فأتاه عمر بن عبد العزيز يعوده ، فقال : يا أبا قلابة ! تشدد ولا تشمت بنا المنافقين .

---

(١) سورة يس ، الآيتان : ٢٣ ، ٢٤ .
(٢) سورة يس ، الآية : ٢٥ .
(٣) سورة البقرة ، الآية : ١٣٢ .

قال محمد بن يزيد بن خنيس : حلف وهيب بن الورد أن لا يراه الله ضاحكاً ، ولا أحد من خلقه حتى يعلم ما يأتي به رسل الله . قال : فسمعوه عند الموت يقول وفيت لي ولم أوف لك .

وقال علقمة بن مرثد : كان الأسود بن يزيد يقوم حتى يصفر ويخضر ، فلما احتضر بكى ، فقيل له : ما هذا الجزع ؟ فقال مالي لا أجزع ، والله لو أتيت بالمغفرة من الله عز وجل لأهمني الحياء منه بما قد صنعت أن الرجل ليكون بينه وبين الرجل الذنب الصغير ، فيعفو عنه ، فلا يزال مستحيياً منه ، ولقد حج ثمانين حجة .

وقال أبو بكر بن عياش : دخلت على عاصم ، وقد احتضر ، فجعلت أسمعه يردد هذه الآية يحققها كأنه في المحراب : ﴿ ثُمَّ رُدُّوا إلى الله مَوْلاهُم الحقّ ألاَ لَهُ الحُكْمُ وهُوَ أسْرع الحاسبينَ ﴾ (١) .

وقال أهل التاريخ : كان آخر ما تكلم به أبو بكر الصديق رضي الله عنه يمسك لسانه ويقول : هذا الذي أوردني الموارد ، فلما مات رؤي في المنام فقيل له : ما أوردك لسانك ؟ قال : أوردني لساني الجنة بقول لا إله إلا الله محمد رسول الله .

لما كان أبو يزيد البسطامي في مرضه الذي مات فيه بكى شديداً ، ثم ضحك ، فقيل له : لِمَ بكيت ثم ضحكت ؟ فقال : أتاني إبليس قال : يا أبا يزيد ! تموت وتخلص من شبكتي فبكيت ، فأتاني ملك من الله فبشرني بالجنة فضحكت .

عن أنس رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ : « يقوم من باب الميت صفان من الملائكة يستقبلونه بالاستغفار ، فيصيح إبليس عند ذلك صيحة يتصدع منها عظام جسده ، ويقول لجنوده : الويل لكم كيف خلص هذا العبد منكم ، فيقولون : هذا كان معصوماً » ، رواه أبو يعلى الموصلي في حديث طويل .

---

(١) سورة الأنعام ، الآية : ٦٢ .

قال سفيان : « إن الشيطان أشد بكاء على الميت المؤمن إذا مات من بعض أهله لما فاته من افتتانه إياه في دنياه » . ذكره ابن أبي الدنيا .

فإن قيل : هذا كله يدل على أن الشيطان بعد موت المؤمن لا سبيل له عليه بعد ذلك ، وقد انقطع تسلطه على المؤمن .

وقد ورد أن النبي ﷺ قال وقد أخذ في تسوية اللحد : « اللهم أجره من الشيطان » . وهذا يدل على أن العدو لا ينقطع طمعه عن المؤمن بالموت .

وقال عمر بن مرة : كانوا يستحبون إذا وضع الميت في القبر أن يقولوا اللهم أعذه من الشيطان الرجيم .

قال سفيان : إذا سئل الميت من ربك تزيي له الشيطان في صورة ، فيشير إلى نفسه إني أنا ربك ، فعلمنا أن للشيطان هناك سبيلا .

الفصل الثالث والعشرون :

فيما اعد لابليس في جهنم ورجائه المغفرة

قال الإمام أحمد : حدثنا عفان ، حدثنا حماد بن سلمة ، عن علي بن زيد ، عن أنس أن رسول الله ﷺ قال : « أول من يكسى حلة من النار إبليس ، فيضعها على جانبيه ويسحبها من خلفه وذريته بعده وهو ينادي : يا ثبوراه ! وينادون : يا ثبورهم ، حتى يقفوا على النار فيقول : يا ثبورهم ويقولون يا ثبورهم ، فيقال لهم : لا تدعوا اليوم ثبوراً واحداً وادعوا ثبوراً كثيراً » . وعن حذيفة قال قال رسول الله ﷺ : « والذي نفسي بيده لا يدخل الجنة الفاجر في دينه ، الأحمق في معيشته ، والذي نفسي بيده ليغفرن الله يوم القيامة مغفرة يتطاول لها إبليس رجاء أن تصيبه » . رواه الطبراني من رواية سعد بن غيلان ، وهو مجهول ، وقد سبق في الفصل التاسع عشر أن إبليس يصلي ، وأنه قال : إني لأرجو من ربي إذا أبر قسمه أن يغفر لي .

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص قال رسول الله ﷺ : « إذا طلعت الشمس من مغربها خر إبليس ساجداً ينادي ويجهر : إلهي مرني أن أسجد لمن شئت . قال فيجتمع إليه زبانيته فيقولون : ياسيدهم ما هذا التضرع ؟ فيقول إنما سألت ربي أن ينظرني إلى الوقت المعلوم ، وهذا الوقت المعلوم . قال : ثم تخرج دابة الأرض من الصفا من صدع في الصفا قال : فأول خطوة تضعها بأنطاكية فتأتي إبليس فتلطمه » . رواه الطبراني بإسناد ضعيف .

قال سفيان بن عيينة : لما نزلت هذه الآية : ﴿ ورَحْمَتِي وسِعَتْ

كلّ شيء ﴾ [1] . مد إبليس عنقه وقال : أنا من الشيء فنزلت : ﴿ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [1] . مدت اليهود والنصارى أعناقهم وقالوا : نحن نؤمن بالآيات ونؤدي الزكاة ، فخلصها الله تعالى من إبليس واليهود والنصارى ، فجعلها الله لهذه الأمة خاصة فقال : ﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ ﴾ [2] . الآية . وهذا دليل على أن إبليس عارف بالله كما نص عليه الإمام أحمد ، واحتج بقوله تعالى : ﴿ قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي ﴾ [3] .

وقال إسحاق : لم يكن عارفاً بالله ، ومن زعم أنه عارف بالله فقد كفر ، ولم يبلغه كلام أحمد ، ولم يبلغ أحمد كلام إسحاق . والتحقيق أنه عارف بالله في الجملة ويعرف وجود الصانع وقدرته ، لكن نسبه إلى النقص في الجملة وهو جهل منه بما يجوز على الله ويمتنع عليه ، فهو عارف بالله من وجه ، كما قال الإمام أحمد غير عارف بالله معرفة مطلقة كما قال إسحاق .

قال الحكم بن إسحاق : بلغنا أن الله تعالى ينزّل مع المطر الملائكة أكثر من عدد ولد إبليس وولد آدم يحصون كل قطرة حيث تقع وما تنبت . رواه ابن جرير في قوله : ﴿ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلاَّ بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ ﴾ [4] .

وعن أنس رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ أن جبريل حدثه قال : « كل قطرة مطر تنزل من السماء موكل بها ملك من الملائكة يضعها موضعها » . ذكره ابن عساكر في تاريخ دمشق . والله سبحانه تعالى أعلم

تم والحمد لله رب العالمين

---

(١) سورة الأعراف ، الآية : ١٥٦ .
(٢) سورة الأعراف ، الآية : ١٥٧ .
(٣) سورة الحجر ، الآية : ٣٩ .
(٤) سورة الحجر ، الآية : ٢١ .

الفهرس

الموضوع	الصفحة
خطبة الكتاب	٣
الفصل الأول : في الاستعاذة وأحكامها	٧
تعريف كلمة الاستعاذة	٧
فصل : في معنى كلمة الشيطان في اللغة	٨
فصل : في تعريف كلمة الرجيم	٩
فصل : في عداوة الشيطان لابن آدم	١٠
فصل : في شروع الاستعاذة	١٤
فصل : الاستعاذة في الصلاة	١٧
فصل : أقوال العلماء في الاستعاذة	١٨
الفصل الثاني : في وسوسة الشيطان للأبوين	٢٦
فصل : في معصية إبليس وعدم سجوده لآدم	٣٦
فصل : في ندم آدم لأكله من الشجرة	٣٨
فصل : في غواية إبليس لآدم	٤٠
فصل : في كيفية خروج آدم من الجنة	٤٤
فصل : في بكاء آدم لخروجه من الجنة	٥٠
فصل : في توبة آدم عليه السلام ودعائه إلى الله سبحانه وتعالى	٥٢

الموضوع	الصفحة
فصل : في وسوسة إبليس لآدم وحواء في تسمية ولدهما	٥٣
الفصل الثالث : هل للشيطان سلطان على بني آدم أم لا	٥٧
الفصل الرابع : في التحصن من الشيطان بذكر الله تعالى	٦٣
الفصل الخامس : في عقد الشيطان على قافية ابن آدم كل ليلة ...	٧٤
الفصل السادس : في أكل الشيطان وقيئه وبوله	٧٨
الفصل السابع : في عقبات الشيطان السبع وقصة برصيصا العبد وحديث من خلق	٨٢
فصل : الفقه في الدين حرز من الشيطان	٨٧
الفصل الثامن : في بكاء الشيطان	٩٥
الفصل التاسع : في رنة للشيطان ونداثه ليلة البيعة	٩٧
فصل : في صراخ الشيطان لدى مبايعة الأنصار لرسول الله ﷺ	٩٨
فصل : في مجيء الشيطان في صورة شيخ نجدي في دار الندوة : لما اجتمع قريش للتشاور في أمر رسول الله ﷺ	١٠١
فصل : في صياح الشيطان ان النبي ﷺ قُتل يوم أُحُد	١٠٤
الفصل العاشر : في أحقر أوقات الشيطان ودعائه على نفسه بالويل والثبور	١٠٦
الفصل الحادي عشر : جرى الشيطان من آدم مجرى الدم	١٠٩
فصل : في ما ورد عن الأحتلام	١١٣
فصل : ورد ان الشيطان بين الرغوة والصريح من اللبن	١١٦
الفصل الثاني عشر : هرب الشيطان من الآذان ووسوسة المصلين من المسلمين	١١٨
فصل : في الفرق بين هاتين الروايتين	١٢٣

الموضوع	الصفحة
فصل : في حديث الحميصة	١٢٤
فصل : في الوسوسة في الصلاة	١٢٥
فصل : في تحريك أصبع المصلي	١٢٧
الفصل الثالث عشر : مبيت الشيطان على خياشيم ابن آدم	١٢٩
الفصل الرابع عشر : في نصب الشيطان على عرشه على الماء وارسال سراياه	١٣١
إبليس يضع كرسيه على البحر	١٣١
الفصل الخامس عشر : في ذكر شياطين العبادات في الاسلام والصلاة والوضوء والصيام وان الشياطين يقعد للناس على الصراط المستقيم	١٣٣
فصل : في وسوسة الشيطان للإنسان أثناء الصلاة	١٣٣
الفصل السادس عشر : في راية الشيطان	١٤٠
الفصل السابع عشر : في تصفيد الشيطان في رمضان	١٤٣
الفصل الثامن عشر : في حضور الشيطان عند النبي ﷺ وفراره من عمر رضي الله عنه	١٤٦
الفصل التاسع عشر : في كلام الأنبياء عليهم السلام وغيرهم للشياطين	١٥٣
الفصل العشرون : مم خلق الشيطان وافتخاره بأصله	١٦١
فصل : في شرور إبليس لعنه الله	١٦٣
الفصل الحادي والعشرون : في تحزين الشيطان لابن آدم في المنام برؤياسيئةوأنمن رأى النبي ﷺ في المنام فقدرآه حقاً فإن الشيطان لا يتمثل به	١٦٨

الموضوع	الصفحة

فصل : في رؤيا النبي ﷺ في المنام ١٧٠

الفصل الثاني والعشرون :

في اجتهاد الشيطان على المؤمن عند الموت ١٧٨

الفصل الثالث والعشرون :

فيما اعد لإبليس في جهنم ورجائه المغفرة ١٨٤